ليلةُ الأرواح الأربعة

فوزي يتكين

محمد تانبوا

الترجمة عن التركيَّة: هيفين جمو

ليلةُ الأرواح الأربعة

فوزي يتكين

محمد تانبوا

الترجمة عن التركيَّة: هيفين جمو

الغلاف: لالش عبد الرحمن

الطبعة الأولى 2022

منشورات مركز ميزوبوتاميا للترجمة

مطبعة شلّير

weshanashiler@gmail.com
www.shiler.info

مقدمة:

الكتابةُ عن سجن آمد العسكري أمرٌ صعبٌ للغاية. فكتابة هذه السيرة تعني إحياء الماضي وتجسيده، أي تجسيد تلك الفظائع التي تبثُّ الرعب في نفس الإنسان، ومهما كان كاتبها أديباً بارعاً فلن يكون بمقدوره التعبير عن واقع سجن آمد كما هو البتَّة، لا بقلمهِ ولا بفرشاته ولا بسرده، سيَّما الذين عاشوا في السجن، فحينَ يقرأون أو يسمعون الكتابات الموثَّقة لأحداث سجن آمد، حتى تلك المكتوبة بإبداعٍ لا متناهٍ، فإنهم يجدونها ناقصة، حتى الكاتب نفسه حينَ يقرأ نِتاجه الذي يعايش واقع آمد سيدرك أن ما كتبه هو في الواقع أقل بكثير مما لم يكتبه.

"كاتبا هذا العمل فوزي يتكين ومحمد تانبوا، كانا محتجزين منذ العام 1981 في المهجع 33 التابع لسجن آمد"، وقد شَهِدا التعذيب الذي تعرّض له فرهاد كورتاي ورفاقه الذين أحرقوا أجسادهم احتجاجاً على الانتهاكات الجسيمة داخل أسوار السجن. بدآ بالكتابةِ عن المهجع 33 وعن ذلك الحدث بشكلٍ أساسي، وتطرَّقا إلى مجمل الممارسات وسلَّطوا الضوء عليها.

بعد انقلاب 12 أيلول سارعت السلطات لتحوّيل سجن آمد العسكري إلى مركزٍ للتعذيب المنهج. في شهر تشرين الثاني من عام 1980 وبعد استلام مولود أكويونلو، المعروف باسم "كيستابو" المكلف بمراقبة الأمن الداخلي للسجن، فرض على السجناء الاصطفاف في وضعية الجاهزية لفتراتٍ طويلة متوِّعداً بالضرب المبرح كل من يخالف تعليماته.

كان يشير إلى عصاه قائلاً: "هذا خلدي"، ومن ثمَّ يشير إلى سلسلته السميكة قائلاً: "هذه مسبحتي"، فارِضاً على المعتقلين حلاقة شعورهم وشواربهم كما يفعل العسكريّ، بالإضافة إلى تلاوة الدعاء عند المباشرة بتناول الطعام.

كان المعتقلون حديثاً يتعرضون للتعذيب المنظَّم والممنهج، وكانوا يبثّون أصوات الذين يتعرضون للتعذيب في الممرات عبر مكبِّرات الصوت ويُسمعونها للمعتقلين بغية حرمانهم من النوم، و يكونُ الضرب والزج في الحجرة الانفرادية مصير كل من يعترض على ذلك.

شرَع بعض المعتقلين من ضمن المجموعات، نتيجةً تلك الممارسات بصيام الموت تنديداً بإجراءات إدارة السجن الوحشية بحقهم وذلك في 2 كانون الأول من عام 1981، ولإنهاء صيام الموت الذي امتد لـ 12 يوماً جلبوا سبعة عناصر من السلك العسكري لهذه المهمة وبدأوا بتعذيب اولئك الذين بدأوا بالإضراب.

كان السحل والسجن الانفرادي مصير معظم المعتقلين الذين قاوموا تلك الاجراءات، وأصرَّوا على المضي قدماً في إضرابهم. كان الجلادون يضعون المقاومين في الحجرات، ويتم الضغط على من تبقى في المهجع كي يستسلموا ويرضخوا، وفي نهاية تلك الإجراءات التي استمروا بتطبيقها حتى تاريخ 24 شباط عام 1981 تم عزل أغلب المقاومين في الحجرات الانفرادية، وبهذا الشكل انقطعت العلاقة بين القادة الثوريين والمعتقلين المقاومين.

في هذه المرحلة وكَّل "كيستابو" مهامه إلى أسعد أوكتاي يلدران، الذي بدوره استطاع فرض قوانينه على المعتقلين الباقين في المهجع ليقبلوها مرغمين، ومن

تلك القوانين: (تلاوة الدعاء، ترديد نشيد الاستقلال التركي، وفرض المشية العسكرية في أوقات الزيارة ذهاباً وإياباً، "حيث كان التوجه للفسحة المخصصة للمساجين تتم على وقع النشيد الوطني التركي"، الاصطفاف حين التفقّد، الوقوف عند دخول العساكر والحرّاس إلى المهجع، وإلى ما هنالك).

بعدها التفت اسعد أوكتاي يلدران إلى قضية المضربين المعزولين في الحجرات الانفرادية، الذين كان يتراوح عددهم بين 500 و 600 حيث لم يذعن أيٌ منهم لقوانين الآمر الجديد، و كانوا من منتسبي حزب العمال الكردستاني، باستثناء اثنين منهم. وبغية استسلامهم أنشأ أسعد نقاطاً للتعذيب داخل ممرات السجن، و مركز تعذيب وأنشأ أيضاً نقاطاً للتعذيب في ممر الحجرة المعروفة بالمهجع /35/ الشهير، كان التعذيب مباشراً من الساعة الخامسة فجراً ويستمر لغاية الخامسة مساء، حيث كانوا يجلبون المعتقلين واحداً تلو الآخر إلى الممر ويتم تعذيبهم كي يستسلموا، ومن لم يقبل الاستسلام يتمُّ ضربه حتى يخرَّ ساقِطاَ ومن ثم يرمونه داخل حُجرته.

أما المعتقلون في أقسام الحجرة المعروفة بالمهجع /37/، فلقد كان يتم الإيعاز إليهم "بالاستعداد للضرب"، ولأنهم كانوا يُخرجون أياديهم وأرجلهم من خلال القضبان، كان الحرَّاسُ يضربونهم بالعصيّ ويعذبونهم طيلة اليوم.

وفي حين كان التعذيب والمقاومة يسيران على هذا المنوال، بدأت مجموعة من الثوار بقيادة كمال بير وخيري دورموش، في 4 آذار عام 1981، بصيام الموت. و في اليوم الـ 23 من صيام الموت، أخذوا من المهجع /37/ 110

مقاوماً من قسم المعزولين إلى المهجع /35/. في اليوم الـ 30 استشهد علي أرَك إثر نزيفٍ في المعدة، فبدأت مجموعة أخرى من المعتقلين بصيام الموت ليصل عددهم إلى 28 شخصاً.

توقف الإضراب الذي أستمر 43 يوماً بناء على وعدٍ قطعه أسعد أوكتاي "بأن يتم التوقف عن كل أنواع التعذيب الممارس بحقهم، مقابل أن يقف المعتقلون باستعداد" لحظة دخوله مهاجعهم، لم يفي أسعد بوعده واستأنف التعذيب مرّة أخرى بعد فترة وجيزة، لذا قاومَ المعتقلون في حجرات المهجع /35/ حتى 26 أيار عام 1981 من خلال عصيان القوانين، و لكنهم قَبلوا فيما بعد القوانين، أي أنهم استسلموا، وهذا الاستسلام لم يكن أبداً استسلام الفكر والعقيدة، إذ أنهم جميعاً كانوا يعلمون بأن الاستسلام الأسوأ هو الاستسلام الفكري، وكانوا يلعنون الحال الذي آلوا إليه، أي حالة الاستسلام الجسدي، وكان يجب تقييم الفكر بأنه مقاومةٌ أيضاً، دون شك كانت هذه حالة صراع، ففي النهاية إما كانوا سيمنعون الاستسلام الفكري أو كانوا سينهون حالة الاستسلام جسدياً، فالمجموعات الأخرى استسلمت جسدياً وفكرياً لأنهم لم يتمكنوا من المقاومة، عدا أعضاء حزب العمال الكردستاني الذين لم يقبلوا الاستسلام فكرياً ومضوا في طريق المقاومة. وموقف فرهاد كورتاي هو المثال الأوضح في هذا الصدد.

ونتيجة انهزام مقاومي المهجع /35/ بدأ أسعد أوكتاي بممارسة االترهيب في كل المهاجع، وتحويل حياة المعتقلين إلى جحيم، وجعل كل لحظاتهم تعذيباً؛ ليغدوَ السجنُ نفقاً مظلماً.

بات السجناءُ الآن وجهاً لوجه أمام ضروبٍ وأشكالٍ من التعذيب تلقي كل منها رعب الموت في الأفئدة، ففي كل لحظةٍ كان ثمة تعذيب لا يتصوره عقلٌ بشريّ، و لتوضيح تفاصيل تلك المرحلة، سأسرد لكم بإيجازٍ أحداث يومٍ واحدٍ من أيام السجن.

يبدأ يوم السجن حين يطلقُ مناوبوا الساعةِ الخامسةِ فجراً إيعازَ الاستيقاظ لثلاث مرات، يرتدي السجناء ثيابهم بسرعة ومن ثم يصطفون في طابور أمام دورات المياه لقضاء حاجتهم، وحلق ذقونهم، طبعاً بدون وجود مرايا أو مياه، وكان يتوجَّبُ عليهم الانتهاء من كل ذلك والاجتماع والاصطفاف بانتظامٍ وسط المهجع خلال ربع ساعة. وبعد أن يصطفّ كل سجينٍ في مكانه المخصص، يبدأ مسؤول المهجع بإعطاء إيعاز "انتبه"..."استعد". بعد التنفيذ كان المسؤول يقول: "عدّ في مكانك، راوح مكانك، ارفع رجليك إلى صدرك، ردد نشيد "قره دنيز".

كان السجناء يبدؤون بترديد النشيد بصوتٍ واحد، ويضربون بأرجلهم على الأرضِ بوتيرةٍ متناسقةٍ ويستمرون على هذه الحالة حتى وصول وجبة الإفطار، عند السابعة، وآنَ وصول الوجبة إلى باب المهجع يتم منحهم استراحة. كان المسؤول يهرع إلى الباب لاستلام عربة الطعام وإدخالها، يلقي التحيةَ العسكرية للحارس قائلاً: "هل أستطيع أن أدخل العربة إلى الداخل".

و كان الأمر عائداً إلى الحارس سواءً بقبول أو رفض إدخالها، فإن قال الحارس "خذها" يأخذها المسؤول ويذهب بها مسرعاً إلى داخل المهجع، كان الحارس

يوعز إلى المعتقلين الذين هم في وضعية الوقوف: "انتبه"..."استعد"، ومن ثم يأمرهم بقراءة الدعاء بطريقة الكورال، وبعد الانتهاء من ذلك، يتوجه الحارس إليهم بإيعاز "ابدأوا بالأكل!" ليردّ عليه المعتقلون: "أمرك سيدي"، في حال لم يعجب الحارس طريقة تلاوتهم للدعاء كان يشتمهم بأقذر الألفاظ، وكان المعتقلون مجبرين على الرد على شتائمه بقولهم: "شكراً".

لم يكن الحارس ليكتفِ بهذا الأمر وحسب، بل كان يجعلهم يرمون الطعام في المرحاض، أو يعاقبهم، ويأمرهم هكذا: "تمددوا تحت الأسرّة"، وكان المعتقلون مجبرين على الانتهاء من تناول الطعام وتدخين السجائر خلال خمسة ربع ساعةٍ فقط.

بعد الانتهاء من تناول الفطور يصطفّ المعتقلون لإجراء التفقّد الذي كان يستغرق ساعة أو ساعتين أحياناً، حيث يقوم المعتقل الواقف في بداية الصف الأول، بإلقاء التحية العسكرية لمسؤول الحجرة، ثم يقوم بالتعريف عن اسمه باختصار وبعدها يجثو على ركبتيه، ويبدأ بقراءة أرقام المساجين حتى يصل لرقم آخر سجين وهنا كان ينتهي التفقد، وتكرار هذا الإجراء كل يوم كان بمثابة تعذيبٍ نفسي للسجناء.

عندما كان الضباط ورؤسائهم يدخلون المهجع لإجراء التفقّد، يشيرون بالعصي على السجناء والسجين المؤشر عليه مجبرٌ بأن يخبرهم عن رقمه، وخلال كل تفقد كان لابد أن يتعرض المعتقلون للضرب الجماعي. حيث يتم تعذيبهم عبر الإيعاز لهم: "تكوموا فوق بعض لتشكلوا تلة! وتمددوا تحت الأسرّة". كان الأمر

نفسه يتكرر أثناء التفقّد الليلي أيضاً، حيث يتم إخراج المعتقلين الذين سيذهبون إلى المحكمة لحضور جلسات المحاكمة من المهجع في رتل واحد إلى المر، ويتم تفتيشهم بالكامل، وأحيانا كان الحرّاس يخلعون عنهم سراويلهم وملابسهم الداخلية ويفتّشون مؤخّراتهم بالمصابيح.

بعد الانتهاء من التفتيش يسيرُ المعتقلون في المر بمشية عسكرية ويتوقّفونَ هناك لساعاتٍ وهم يرددون النشيد القومي التركي. كان يتم وضع القيود في معاصم أيديهم والأغلال في سواعدهم وأرجلهم ويأمرونهم بأن يحنوا رؤوسهم كي لا يتمكنوا من رؤية أحد مع الاستمرار بضربهم بالعصي طيلة الوقت، ومن ثم كانوا يضعونهم في سيارات نقل الموتى. كانوا يبدؤون بتعذيبهم في السيارة المغلقة حتى يصلوا إلى باب المحكة من خلال لكمهم ورفسهم وضربهم بالعصي ليصبحوا كقطنٍ محلوج داخل فيما يعرف بـ "تعذيب السيارة"، ومن كان يتجاوز "التعذيب في عربات نقل المساجين" كان يؤخذ إلى "تعذيب جلسات المحكمة"، حيث كان يتوجب عليهم بأن يبقوا رؤوسهم مرفوعة، مثبتين نظرهم إلى الأمام مباشرةً، الأيادي على الركَب، مع عدم التلفُّت يميناً أو يساراً أو الإيتاء بأي حرّكةٍ مهما حدث، حتى دون أن يقضوا حوائجهم كالذهاب إلى دورات المياه أو الأكل أو شرب الماء، وأن يجلسوا كتماثيلٍ في أمكنتهم، ومن لم يلتزم بتنفيذ كل هذه القوانين تنتظرهُ أشد أنواع التعذيب في العربة أثناء العودة من المحكمة وفي المر حيث نقاط التعذيب قبل إعادته إلى المهجع.

باختصار، كانت رحلة الذهاب من سجن آمد العسكري إلى المحكمة والعودة إليه كالسير على جسر "السيرات" أي جسر الجحيم أو السيرِ في النفق الأكثر

رعباً في العالم. أما الذين يبقون في المهاجع، يصطفون في رتل واحد ويأتي مسؤول المهجع بكتاب ليقرأ لهم فحواه مقطعاً تلوَ الآخر بأعلى صوته، ليردد المساجين خلفه كل ما قرأه، كانت طريقة قراءة الكتب هذه الأكثر إثارةً للاهتمام في العالم، حيث كانت تدوم لساعات طويلة. وحين يداهم الحرّاس المهجع وبيدهم العصي ليتفقدوا أصوات السجناء كانوا يقولون لمن يقرأ بصوت منخفض: "أيها الحقير، يا ابن الزانية لِمَ صوتك خفيضٌ هكذا؟" ويقولون لمن لم ترتفع نبرة صوته: "يبدو أنك لم تصرخ أبداً" ويبدؤون بتعذيبه، لذا كان المعتقلون يتعرضون للتعذيب بشكل جماعي أو فردي سواء أقرأوا بشكلٍ جيد أم لا.

بعد الانتهاء من قراءة الكتاب يأخذون المعتقلين إلى فسحة التنفّس، بعد تقديم كل واحد منهم تقريراً وتعريفاً مختصراً عن نفسه، وهناك يتمُّ تقسيمهم إلى مجموعات مؤلفة من شخصين أو أربعة في كل صف. ومع إيعاز: "انتبه...استعد" يبدأ المعتقلون بالمشية العسكرية بصدرٍ بارز بمصاحبة النشيد الوطني التركي لساعات، وبعد الانتهاء يمدِّدونهَم أرضاً، و يجبرونهم على الزحف ويكومونهم فوق بعضهم البعض، كان تعذيب المعتقلين ينشط خلال دقائق قصيرة معدودة، إمَّا بضربهم على أقدامهم أو أيديهم حوالي 40 ضربةٍ بالعصي.

يُعيدونَهُم إلى مهاجعهم بعد ممارسة أبشع أصناف التعذيب عليهم، وبعد نصف ساعة من استراحة تناول الغداء، كانت تُتَّبَع الإجراءات نفسها بحقهم. كان المعتقلون العائدون إلى المهجع يخضعون للتفقّد والتفتيش إلى حين موعد التفقّد

الليلي، و بعد تناول العشاء والانتهاء من تلاوة الدعاء والتفقّد، كان لابد أن ينتهي اليومُ بالضَّربِ أيضاً.

كان المعتقلون ينهونَ يومهم بإرهاقٍ شديدٍ، بعد الوقوف على الأرجل لمدة 12 ساعة. لقد كان يومهم يمضي من خلال تعلم المشية العسكرية المنتظمة والتدريب والتعذيب الوحشي. وبعد الساعة السابعة مساءً، يتمدَّدُ المعتقلون فوق أسرّتهم دون الإيتاء بأية حركة أو حتى قضاء حوائجهم.

في كل مهجعٍ، المعتقلون يجبرون على المناوبة كمجموعات مؤلفة من اثنين على الأقل وخمسة على الأكثر، وذلك حسبَ مساحة المهجع وكان الحرَّاسُ في كل ليلة يتفقدون مراقبي المهاجع، وإن لم يكُ المناوب ملتزماً بمناوبته أو لم يقم بالمشية العسكرية أو يتلفت يمنةً أو يسرة، أو لم يقدّم تقريره بصوتٍ عال عند فتح كوّة الباب يكون التعذيب الوحشيّ في انتظاره.

الحياة اليومية في السجن كانت تتضمن اجراءات إلزامية كالذهاب إلى المستشفى، والاستحمام، و الذهاب للقاء المحامين وكانت هذه الإجراءات تعذيباً في حدّ ذاتها ضمن سجن آمد العسكري، كان طبيب المستوصف يقول صراحة: "أنا طبيب بيطري"، في الحقيقة هو لم يكُ كذلك، بل لأنه كان ينظر إلى المعتقلين كحيوانات. كان المعتقل يتعرض للضرب في طريق الذهاب والإياب إلى المشفى، فيما يتم تعذيب من لا يذهب إلى المشفى ثلاث مرَّاتٍ أو أكثرَ في اليوم.

كان يتم معاقبة من يأخذونه إلى المشفى بأشدِّ العقوبات، وإن مكثَ هناك يضعونه في حُجرَة ويجعلونه ينام في وضعية الاستعداد، ويتم إيقاظه بين الفينة والأخرى، دون أن يسمحوا له بقضاء حاجته.

قد يقاوم الإنسان أساليب التعذيب في سجن آمد لسنواتٍ عدَّة، لكن من كان يقاوم التعذيب في المشفى مدَّة شهر واحد يُنظَر إليه كبطلٍ عظيم.

التفتيش دائماً كان يتم في الأيام التي توزّع فيها معونات السجن، فيتعمَّدُ الحرّاس إحداثَ الفوضى عبر رميهم للأطعمة والألبسة وأغطية الأسرَّة وخلطها، ويحرقون شعرَ الأماكن الحساسة للمعتقلين بالولّاعات.

الذهابُ إلى الحمّام كانت رحلةَ عذابٍ أخرى، حيث لم يسمح للمعتقلين إلا بالاستحمام بشكلٍ جماعي وحين أخذهم إلى الحمام يُعرّونهم ويجبرونهم على ترديد النشيد الوطني التركي والمشية العسكرية، ويرشّون عليهم الماء البارد، ويضربون أجسادهم العارية بالعصي. وحين جلبهم إلى الممر، يأمروهم بالتمدّدِ على الأرض والزحف على بطونهم وظهورهم إلى أن يصلوا للمهجع، وبذلك تكون أجسادهم قد اتسخت مرة أُخرى وتنتهي رحلة الاستحمّام.

الحياة اليومية للسجن كانت زاخرةً بالمئات من أساليب التعذيب المنهج، حيثُ كل لحظة من الحياةِ مليئة بأشكال مختلفة ومتنوعة من التعذيب.

فالذهاب إلى المحكمةِ عذاب، و الذهاب إلى المستشفى أسوء من ذلك، كما أنَّ البقاء في المهجع لم يكُ أفضل حالاً من زيارة تلك الأماكن، لقد كان من الصعب

المفاضلة بين الذهاب إلى فسحة التنفس والبقاء في الحجرة، فخارجُ الحجرةِ وداخلها عذاب حارق. كانت أجساد معتقلي سجن آمد تُكوى بكل طرق التعذيب تلك.

بعد أن فدى كل من مظلوم دوغان في 21 آذار عام 1982، وفرهاد كورتاي ورفاقه في 17 أيار من العام نفسه بأرواحهم، غدوا منارةً لاولئك القابعين في ظلمة سجن آمد، وعندما استشعر أسعد أوكتاي يلدران حركة النور التي مزَّقت عتمة السجن، باشر بزيادة حدَّة الضغط على المعتقلين، رغم ذلك وبتاريخ الـ 14 تموز من عام 1982 بُوشِرَ الإضراب الأكبر المسمى صيام الموت والذي استشهد على إثره كمال بير، ومحمد خيري دُرمُش، وعاكف يلماز، وعلي جيجك .

صيام الموت ذاك وحَّد المساجين وجعلهم كقبضةٍ فولاذيةٍ واحدة تهوي بكل قوتها على وجه الظلم القذر، ففي الأول من أيلول عام 1983 انهار الظلم على إثره كتنينٍ بسبع رؤوس يلفظ أنفاسه الأخيرة، و شرع المعتقلون جنباً إلى جنبٍ يهنئون بعضهم بعضاً بقدوم العيد "النصر".

إن الملحمة التي كتبتها مقاومة سجن آمد العسكري غدت سببَ انتفاضة شعبٍ للمضيِّ قُدُماً نحو الحرية، وكانت الشرارة التي أوقدت أول شعلةِ كفاح.

الفصل الأول

مرَّةً أخرى، تعالت أصوات الصرخات البشرية عبر ممرات السجن، لقد كانت تلك أصواتُ المعتقلين الذين يتم جلبهم من المهاجع.

المعتقلون الوافدون من المهجع /9/ تم جلبهم إلى المهجع /37/، وهم كل من فرهاد كورتاي ومجموعة من معتقلي حزب العمال الكردستاني، تم جلبهم إلى ممر الطابق الأول، وعندما وصل السجناء إلى هناك قام السجّانون بالهجوم عليهم وانهالوا عليهم بالضرب المبرح والعشوائي، وبعد أن أذاقوا السجناء كافة أنواع التعذيب زجوا بهم في الزنزانات الانفرادية وهم في حالة شبه فقدانٍ للوعي.

كان فرهاد ومجموعة أخرى من المعتقلين يقبعون في الطابق الأول، في الزنزانة رقم /7/.أما الباقون في المهجع /37/، فقد كانوا يسألون المعتقلين الجدد الذين كانوا يأتون إلى الحُجرَة نفسها عن رفاقهم المقاومين في ذلك الممر. هذه الأحداث باتت طبيعيَّةً داخل سجن آمد، فكل من كان يصر على المقاومة يُزَجُّ في الزنزانات المنفردة.

عندما أشارت الروزنامة إلى تاريخ 25 شباط من عام 1981، كانت قد بدأت إدارة السجن بالتوجه نحو تغييراتٍ جديدة. تركَ مدير الأمن الداخلي السابق، الضابط مولود أكويونلو، المعروف باسم كستابو وظيفته، وتم تعيين النقيب أسعد أوكتاي بديلاً عنه، وبمجيئه كانت فرقة التعذيب الجديدة قد استلمت زمام الأمور.

نقاط المقاومة المحورية كانت تتركَّز في المهجعين الـ /37/ و الـ/35/، و لم تستغرق التغييرات التي حصلت في إدارة السجن وقتاً طويلاً لتترك أثرها في كل جوانب حياة السجناء، ومع بداية عام 1981 كان المعتقلون يقاومون الوحشيَّة والبطش والضغوط الممارَسة بحقهم.

رغم أن فرهاد كان شاباً متحمساً وودوداً ومتكلماً بارعاً، إلا أنه ولمدة أسبوعٍ كامل التزم الصمت وانقطعت صلته بمحيطه، ولم يك بمقدور أحد أن يفهم حالته تلك، حتى أصدقائه القدامى المقرَّبون منه حينما كانوا يسألونه عن حاله، فإما كان يلتزم الصمت أو يجيبهم بتململٍ وبرود: أنا بخير، ماذا عنكم؟ إجابته تلك لم تكُ لتقنعَ أحداً , لا السائلين عن حاله ولا أصدقائه القدامى و كانوا يدركون إنه ليس على ما يرام . شخصية فرهاد المرحة والودودة التي جعلت جميع من حوله متمسكين بحيواتهم ,تلك الشخصية كانت قد اختفت وحلت محلها شخصية منغلقة على ذاتها

باتت الحياة كبحرٍ هائج وأضحت المقاومة سباحةً ماراثونيةً خطرة؛ ولم يكُ معلوماً لأحدٍ مصير ذاك الماراثون، فكلُّ مقاومةٍ تبدأ من داخل الإنسان، تستمدُّ شعلتها من نار قلبه؛ لتنتشر في باقي بدنه، من أطراف أصابع قدميه وصولاً إلى شعر رأسه، فإن خبَت نار المقاومة داخل قلب الإنسان يصبح أسير ذاته، ذابلاً ومنعزلاً.

في أوائل شهر آذار العام 1981 بدأ مركب فرهاد المقاوم بالتصدُّع، ولن نعلم أبداً فيما إن كان قد حاول إصلاح ذاك الصدع أم لا، وما كان رفاقه ليصدِّقوا

استسلامه لو لم يسمعوه بآذانهم وهو يقول: "لقد استسلمتُ وسأنفِّذ الأوامر!" قالها فرهاد بهدوءٍ، وهكذا تم اقتياده إلى الطابق الرابع.

داخل ذلك السجن، كانت الحواس الخمسة للسجناء تعمل بنسبٍ تضاعف عمل تلك التي لدى البشر العاديين بعشرات المرات، كما أنَّ مقولة: الخبر السيء ينتشر بسرعة، تثبت واقعيتها.

كان فرهاد ذو شخصية محبوبة و مؤثرة و كان مقدّراً من قبل الجميع, لكن حتى جدران و حواجز السجن لم تستطع منع انتشار خبر "استسلامه" في المهجع /37/ خلال فترة وجيزة, رغم ذلك، قسم من رفاقه الذين كانوا قد اتخذوا قرار المقاومة معاً لم يتركوه وحيداً رغم استسلامه، وأكملوا رسالته.

تزامن استسلام فرهاد مع إلقاء أسعد أوكتاي خطابه الشهير إبَّان استلامه لإدارة السجن، والذي كان قد أثَّر إلى حَدٍّ ما على السجناء، من خلال تهديداته وحديثه الذي كان يفوح منه رائحة التعذيب، لذا استسلمَ عدد آخر من السجناء أيضاً؛ وهنا باتت الحياة والمقاومة في حالة مواجهةٍ لا منتهية، كما المدّ والجزر، وأصبحتا مليئتين بالتناقضات في كافة التفاصيل، في الجيئة والذهاب، السقوط والنهوض، الضحك والبكاء. أثناء استسلام فرهاد واقتياده برفقة مجموعة من المعتقلين، كان السجّانون يقتادون مظلوم مع بعض رفاقه من الزنزانات إلى المهجع الـ /37/، و مع مرور الأيام شرعت الحياة تضيق أكثر فأكثر على المقاومين، ومع إظهار الجلادين لحقيقتهم السادية القذرة وتكشيرهم عن أنيابهم، باتت أدوات التعذيب مألوفةً لديهم أيضاً.

كان السجين آمد الذي يقبع في الطابق الثاني، ضمن الحُجرَة رقم /10/، يصارع شبح استسلامٍ بات ينخر جسده مثل الدود منذ أيام، ولم يكُ قادراً على مواجهة هذا الشبح الهائل الذي لم ينفك عن العبث بجروحه. لقد كان آمد غارقاً في حالة مساءلةٍ ذاتيةٍ في داخله، كان يختلق لنفسه أعذاراً تبرر استسلامه، فكان تارةً يجد نفسه محقّاً في ذلك وتارةً أخرى ينتابه شعورٌ بالعار الشديد لدرجة أنّه كان يتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه. كان آمد يحاول جاهداً أن يبرر استسلام فرهاد، فقد كان يعتقد أن المكوث في تلك الزنزانات المنفردة المليئة بالغائط والقاذورات والتي كانت تثير جنون كل من يقبع داخلها، سبباً وجيهاً لاستسلام بعض السجناء، كان يقول في قرارة نفسه: "هل يجوز أن يقاوم المرء بهذا الشكل؟ هل يجوز اتخاذ هكذا قرار؟"، "مؤكَّدٌ بأن ذلك المدعو يلدرم ميركيت قد أصدر هذا القرار". آمد كان قد أخبر رفاقه مرَّاتٍ عدَّة بأن ما يقومون به أمرٌ خاطئ، لكنه لم يستطع أن يقنع أحداً بكلامه ذاك، وأخيراً قام آمد بتجميع كل حججه وذرائعه واستجمع كل طاقته وقوته، وفي لحظةِ ضغطٍ على زناد لسانه ومثل الطلقة التي الخارجة من فوهة البندقية قال: "سأستسلم وأنفذّ القرارات"، ورغم محاولات رفاقه الحثيثة بالتراجع عن قراره الخاطئ إلا أن الأوان قد فات، فالسهم أُطلق من النبال ولا رجعة عن قرار آمد.

أخرج آمد كل ما في جيبه من نقود وطلب من رفاقه المقاومين أخذها بينما كانت الدموع تنهمر بغزارةٍ من عينيه، ووعدهم لحظة خروجه من الزنزانة بألا يلحق الضرر بهم أو بكرامتهم أو بالحزب.

كان آمد يترنح ذات اليسار أثناء سيره، لقد كانت تلك طبيعته، ولكن هذه المرة بالذات، و أثناء عبوره عبر الزنزانات، مال بمشيته بشكلٍ كبير، كان مطأطئ الرأس ولم ينظر لأحد، بعد أن كان قد رفض عرض رفاقه لأخذ المال أو صور أطفاله أثناء ذهابه، حينها قال: "اولئك الأطفال لم يعودوا ملكي، إنَّهم لكم"، وبدأ يهمس محدِّقاً في صورة طفليه قائلاً: "أعدكما بأني لن أسمح أن يطلقوا على والدكم لقب خائن!"، وقد سمع رفاقه كلماته تلك، ولكن اسم آمد كان قد دوِّنَ في سجلِّ سفينة المستسلمين، وأصبح أسيرَ نفسه أكثر فأكثر، ولكنّ الاستفادة الوحيدة لآمد كانت أنّ السجانين المشرفين على تعذيب المعتقلين المستسلمين ليسوا من المحترفين، وقد كان هذا الأمر يعزّي آمد الذي وكأنّما كان يقول في قرارة نفسه: "يجب أن يكون نصيب المستسلمين من التعذيب أكثر من هذا".

كان المهجع رقم /35/ و/37/ متقابلين، وكان أسعد أوكتاي يقول للسجناء: "إن المهجع رقم /35/ خاضع للعزل الكلّي، فكل من يدخله لن يخرج منه مطلقاً، وسيمضي بقية حياته هناك، فإن كان هناك من بينكم من لن يلتزم بأوامري فليقل ذلك هاهنا، فاولئك القابعون في المهجع الـ /35/ ممن خالفوا التعليمات سوف لن يعودوا إلى مهاجعهم السابقة". كان أغلب معتقلي حزب العمال الكردستاني من الكوادر القادة مسجونين في المهجع الـ /35/، بعد أن جلبوا كمال بير أيضاً من المهجع /37/ إلى المهجع /35/، وبعد فترة بدأ الإضراب عن الطعام حتى الموت وكان بقيادة كمال بير وخيري دُرمُش، وبفضل ذلك الإضراب خفّت حدّة الضغط والتعذيب على المعتقلين المقاومين، لكن في

المقابل أذاق السجّانون نزلاء المهجع الـ /37/ كافة أنواع التعذيب وأوسعوهم ضرباً من رؤوسهم وحتى أخماص أقدامهم، مستخدمين الخراطيم والهراوات الخشبية والمعدنية.

كان الألم الذي تسببه ضربات الخيزرانة لا يمكن وصفه أبداً، "فثمة أشياء لا يمكن التعبير عنها بالكلمات بل لا بدَّ من معايشتها"؛ تماماً كذلك الألم الذي تسببه تلك الخيزرانة، وحده من ذاق ألمها يعي ذلك.

كان للخراطيم والهراوات والخيزرانة "الجميلة" أثراً كبيراً، حيث لم تبقِ من مجموعة ألازغ المؤلفة من 75 شخصاً سوى أقل من خمسة معتقلين مقاومين. ميرفان، الذي كان أحد المعتقلين المقاومين، خرج وقالها علناً: "يا رفاقي، لم يعد ثمَّة حاجة إلى أن تتستّروا عليّ وتخبئوني في المراحيض وتدّعوا مرَضي"، لم يعد بمقدوري تحمّل كل هذا الضرب الذي جرّدني من إيماني، لم يعد بمقدوري المقاومة، سأنفّذ الأوامر"، "امنحوني بعض المال سأخرج في وقت قريب من هذه الزنزانة". علي جيجك، صديق طفولته وشبابه، والذي كان يعرفه جيداً، ويدرك بأنّه في حال اتّخذ ميرفان قرار الانسحاب والاستسلام فلا أحد يستطيع أن يثنيه عن قراره، وقف علي وأعطى بعض المال لصديقه القديم؛ لم يك أحدٌ ينظر إلى ميرفان بانتقاص أو يقول له أي شيء. كان ميرفان شابًّاً رشيقاً ذو قامةٍ طويلة، رفع رأسه وأبرز صدره كالعادة متوجِّهاً إلى الطابق الرابع، وأثناء خروجه، قال في قرارة نفسه: "أنا أخاف من الضرب، هذه حقيقتي، ولا أقوى على التحمُّل لفترة أطول، فإذاً لم الخجل والحرج والخنوع؟"

كان يتم نقل السجناء المستسلمين إلى الطابق الرابع، ولأن أعدادهم تتزايد يوماً إثرَ الآخر، كانت إدارة السجن تخطط لنقلهم إلى المهاجع؛ فبعد حالات الاستسلام والفرز الأخيرة، ارتفعت وتيرةُ التعذيب قليلاً، حيث كان السجّانون يتّبعون التكتيك ذاته غالباً، فكلما ازداد عدد المستسلمين، ازدادت معه شهيتهم للتعذيب، فكانوا يقولون لأنفسهم: إذا زدنا جرعة التعذيب فسيزيد على إثر ذلك أعداد المستسلمين، هذا التكتيك كان ينجح حيناً ويفشل أحياناً أخرى، فالسجّانون ينخر فيهم التعب أثناء التعذيب أكثر من المقاومين، لذا كانوا يستريحون بين الفينة والأخرى؛ ويضربون المعتقلين بوحشية وبوتيرة متصاعدة.

تم نقل كافة المعتقلين المقاومين من المهجع الـ /37/ إلى الطابق الأول، وبما أن المساحة الممتدة من الزنزانة رقم /3/ وحتى ردهة الاستراحة في الطابق الأرضي كانت قد امتلأت بالبراز و القاذورات، لذلك قاموا بحشر المعتقلين المقاومين كما يتم حشر الأسماك في علب السردين في الزنزانة رقم /7/. في تلك اللحظة سُمع صوت أسعد، المعذّب السادي، والذي كان المعتقلون يلقّبونه **بالدجّال**، كان متوجهاً بكلامه لنزلاء الطابق الرابع: " اجمعوا أغراضكم سأنقلكم إلى المهجع، هيا يا أولادي أسرعوا"، لكنّ المقاومين كانوا مدركين لتبعات ذلك الكلام المعسول، ربما كان من بين المستسلمين، من كان يدرك هذا الأمر، ولكن كلّ نزلاء الطابق الرابع كانوا مجبرين للامتثال لأوامر أسعد؛ فهم قد سلّموا رقابهم للعدو مسبقاً.

كان أسعد يمتلك زمام الأمور والسلطة المطلقة، لذا فإنَّ المستسلمون مُلزمين على الرضوخ، هذه القواعد الصارمة كان من الممكن كسرها ولكن بشرطٍ وحيد ألا و هو

تحمُّل التَبِعات، فهو أمرٌ يعتبر مجازفةً خطيرة، وهذا ما يعنيه المثل القائل: "لطالما لم يقصّر العبد في خدمة سيّده، فلن يحمل السيّد السّوط في يده"، لكن من دون شك في اللحظة التي يتقاعس فيها العبد عن خدمة سيّده ستنهال عليه ضربات السُّوط. بات الطابق الرابع يمثّل جرحاً أسودَ بالنسبة للمعتقلين المقاومين في المهجع الـ/37/ وكانوا ينظرون إليه كطفلٍ غير شرعي.

أثناء اقتيادهم إلى المهجع الـ/33/ بدا سجناء الطابق الرابع كقافلةٍ رُسِمَ مسارها على أيدي إدارة السّجن، لقد كانوا مثل المسبحة ذات التسعة وتسعين خرزة، وفي اللحظة الّتي وطأت فيها أقدامهم أرض المهجع الـ /33/ كانوا قد ثبّتوا أسمائهم في سجلِّ العار.

بعض المستسلمين في الطابق الرابع كانوا من نزلاء المهجع الـ /37/ قبل أن يستسلموا, ولكن حتّى عندما كانوا موجودين في ذلك المهجع كانوا صامتين ومنغلقين على أنفسهم، رغم ذلك، وعندما أمر أسعد بإفراغ الطابق الرابع بصوته الكريه، كان لذلك تأثيره العميق في نفوس المعتقلين المقاومين المتبقين هناك، وأحسّوا بأنّ جزءاً من جسدهم قد تم اقتطاعه وأخذه بعيداً، ففي النهاية هؤلاء الأصدقاء كانوا رفاق دربٍ، لقد كانوا مثل حملانٍ وديعةٍ تصارع بلا حيلةٍ فكّي ذئبٍ مفترسٍ. لقد كان الشعور بالعجر وعدم القدرة على فعل شيءٍ تجاه أصدقائهم يثير الألم والأسف لدى المعتقلين المقاومين، ولكن، ما الّذي يستطيعون فعله حيال ذلك؟ لم يكُ بمقدورهم فعل أي شيءٍ سوى الاستمرار في المقاومة.

كانوا يشعرون بالأسى تجاه استسلام أصدقائهم وتجاه إبعادهم، لكن كان لابدّ من أن ينجلي الخطّ الأسود من الأبيض في معيار المقاومين، كان جلُّ تركيز المقاومين المتبقّين ينصبُّ على أنفسهم وعلى الاستمرار بالمقاومة، دون الالتفات إلى التفكير بمن تم نقلهم؛ لقد كان هذا وحده طريق الخلاص لكل واحدٍ منهم، كان المقاومون المتبقون ينظرون بعين الريبة والشك لبعضهم البعض، لكن لا مكان للتفكير السلبي في صفوف المقاومة، فالمقاوم لا بدَّ وأن يتحلّى دائماً بالتفاؤل والتفكير الإيجابي.

في البداية أخذوا معتقلي الطابق الرابع ومن ثمَّ بعدهم مجموعة [1] ألازغ، وبقي المقاومون هناك وحدهم، وكلما كانت أعدادهم تقلّ كانوا يتمسّكون ويحتضنون بعضهم البعض أكثر، لقد كانوا أقوياء، فرفاقهم من المقاومين المناضلين في أحضان الموت يفعلون كل ما بوسعهم لرسم طريق الخلاص، وبقدر ما كان المقاومون يستشعرون القوة في أنفسهم، كانوا يشعرون بالألم والأسى تجاه اولئك المستسلمين، كانت الأمنية الوحيدة للمعتقلين المقاومين، حين كانت وتيرة التعذيب تشتد، هي أن ترتفع رايات المقاومة أكثر فأكثر. أمّا السّجناء المستسلمون؛ (خرزات المسبحة الـ 99)، فقد كانت آلافُ الأفكار تجول في رؤوسهم، وعند نقلهم من الطابق الرابع، كان البعض منهم يتلفّتُون ويلقونَ بنظراتهم على المهجع /35/، فيما كان البعض الآخر يمضي ملتفتاً ذات اليمين وذات الشمال بنظراتٍ خاويةٍ؛ بعضهم لم يكُ لديه أي شيءٍ، والبعض الآخر يحمل أغراضه الّتي بدت وكأنّها خرقٌ بالية.

---

[1] ألازغ: مدينة في شرق الأناضول (المترجمة).

كان فرهاد ونجمي آخر الخارجين من الطابق الرابع، كانا في حالةٍ من التشتّت الفكري وكأنّهما كانا لا يعلمان لِمَ أو إلى أين هم ذاهبون، لكنّ تنبيه أحد الحرّاس أعاد لهما الوعي، بدا الجميع وكأنّهم يسبحون في الفراغ عند دخولهم المهجع رقم /33/، لقد باتوا مجبرين مرَّة أخرى على الاستماع لترّهات أسعد اللّعين وأخيراً نصائح رقيب السّجن.

كان تحمّل روائح قاذورات المهجع الـ /33/ ورائحة أسرّة النوم العفنة أهون على المساجين من الاستماع لكلام الرقيب. انكبّ المعتقلون على أرض المهجع منهَكين وكأنهم عائدون من القتال في معاركَ استمرّت لألف عام، الجميع كان ساكناً بلا حراك ولم يقم أحدٌ منهم بحجز مكانه في المهجع حسبما تمّ الإيعاز إليهم سابقاً، المهجع رقم /33/ كان مجرّد عليّةٍ ولكن بسبب ظروف ذلك اليوم وازدياد عدد المعتقلين، فقد تمت الاستفادة من كل مساحةٍ أو فراغٍ متوفّرٍ في مبنى السّجن وأُطلق عليه مهجعاً. فكما كان المستسلمون كأطفال غير شرعيين كان مهجعهم أيضاً مجرَّد مستودع.

عند دخول ما يسمى المهجع رقم /33/ وبعد أن يتمّ فتح الباب الحديدي فإنّ أوّل ما يصادفه المرء هو سخّانا ماءٍ كبيرَين، موضوعَين على الجهة اليمنى قبالة الباب يشبهان ناقلتَي وقود، يفصل بينهما عمودٌ اسمنتيٌّ كبير وقضبان حديديّة تربط قاعدتَي السخّانَين, كانت قاعدتا السّخانَين تشبه الزنزانات لحدٍ بعيد، ولأنّ المعتقلين كانوا قد قضوا أشهراً في زنزاناتهم؛ أطلقوا لقب الزنزانة عليها أيضاً، قد يكونوا أطلقوا هذه التسمية عليها كي لا ينسوا الزنزانات ورفاقهم المقاومين داخلها، وهذا بدوره كان يجلب لهم السرور، لكن لم يكُ معظم

السجناء يحبّذون الجلوس تحت قاعدة السخّان الأول بسبب قربه من باب المهجع الذي كان يؤرّق سكينتهم حين يتم فتحه.

قبالة السخّانَين، وعلى الجانب الأيسر مباشرةً، كان ثمَّة جدارٌ كبير تم إنشاؤه وكان يقسِم المهجع لنصفين، والمساحة الممتدّة من ذلك الجدار إلى موقع سخّانَي المياه كانت قد سميّت بالمطبخ، ثمة ثلاثة مراحيض خلف ذلك الجدار، وكان واضحاً أنّها بُنيَت مؤخراً، كانت بلا أبواب لذلك علّق المعتقلون بطّانيّاتٍ عليها، ووضعوا أسرّةً مصنوعةً من ألواحٍ سميكة ذات طابقين قبالتها بشكلٍ متناسق، وكان ثمة أسرّة ذات ثلاثة طوابق أيضاً في الطرف المقابل بسبب ميلان سقف المهجع، لذلك فإنَّ الأسرَّة ذات الطابقين كانت في الجهة اليسرى، وثمة ستّة أسرّةٍ منها تطلّ على الخارج من خلال شبّاك، كان المعتقلون ينظرون من خلالها ويفكّرون لساعاتٍ وساعات، فيما كانوا يفكّرون يا تُرى؟ لقد كان كلّ واحد منهم وكأنما قد تحرّر من الزنزانة وبات حبيس زنزانة نفسه، لكنّ الإنسان الّذي لا يستطيع كسر قيود نفسه والتحرّر من سجنه الدّاخلي لن يستطيع بناء أيّ تواصلٍ مع الآخرين.

موقف السجناء هذا والحالة النفسية الّتي آلوا إليها كانت بمثابة صدمةٍ أحدثتها خطوتهم الأخيرة حين شرعوا بخطوِ أولى خطواتهم تجاه الثورة، فهذه الثورة رسمت شكلاً وصورة ًجديدة للإنسان الكردي وخلقت لديه شخصيَّةً متميّزة، ولكن اولئك المستسلمون لم يُحافظوا على تلك الشّخصية ودُفعوا إلى بيئةٍ مُحاطةٍ بأفكارٍ مضى عليها الزمن. وهذا كان بمثابة انكسارٍ كبير بالنسبة لمعتنقي فكر حزب العمال الكردستاني، في الحقيقة فإنّ كل من كان على درايةٍ ومعرفةٍ

بهذا الفكر كان سيُظهر ذلك في كافة مناحي حياته؛ أمّا مدّعوا اعتناق الحركة الثوريّة فقد تآلفوا مع طبيعة حياة المستسلمين.

كسر فرهاد ذلك الصمت المطبق، وقال بحزن: "يا رفاق، طالما أتينا إلى هنا دعونا نقوم بترتيب أماكننا"، تحرّك المعتقلون بعد أن سمعوا كلام فرهاد ذاك، لكن لم يكُ هذا التحرك مصحوباً بتعاونٍ ونشاطٍ جماعي، كان العمل الجماعي مقتصراً على اولئك الذين يعرفون بعضهم البعض خارج السجن، واولئك القريبين من بعضهم البعض داخل السّجن، وتجلّى ذلك عبرَ ترتيب الأسرّة وتوضيب الحاجيّات. وقد استطاعوا خلال وقتٍ قصير أن يرتّبوا الأفرشة المبلولة ذات الرائحة الكريهة ووضعها على الأسرّة.

قد يكون يوم 9 آذار من عام 1981 تاريخاً لا يحمل أيّ معنى لكثيرٍ من النّاس، إلا أنَّه كان يوماً لن ينساه كل من كان في المهجع /33/ وسيبقى يتذكّره كما يتذكّر اسمه، عندما كانت الشمس على وشك الأُفول والغياب لم يكُ أحدٌ منهم على درايةٍ بأيّ شيء، لقد كان معتقلوا المهجع الـ /33/ مقبلين على حياةٍ جديدة.

مع اقتراب وقت العشاء، جاءهم أسعد أوكتاي، الضيف غير المرغوب به إلى المهجع، قال لهم: "سوف تبقون في هذا المهجع من الآن فصاعداً، وبالمقابل لا أريد منكم سوى أن تقفوا باستعداد حين دخولي، وأن ترددوا نشيد الاستقلال التركي مرة واحدة في اليوم، كذلك أريد منكم أن تتلقّوا التّدريب مدة ربع ساعة أثناء فترة التنفّس، وبعدها سيمنحكم جنودي وقتاً للاستراحة، وأنا سألبّي كل

احتياجاتكم، وسنعيش بسرور سويَّةً، وقد رأيتم بأمّ أعينكم أن المقاومة لا جدوى منها، والآن فلتذهبوا إلى أسرّتكم ولتأخذوا قسطاً من الراحة"، بعد ذلك اتجه صوب الباب ليعودَ مرَّةً أخرى مستدركاً: "أيّها الشّبان سأقول لكم هذا أيضاً قبل أن أنسى، بعد أن تنتهوا من تناول كلّ وجبةٍ عليكم تلاوة الدّعاء بعدها، والشيء الآخر، لقد أوصيت لكم ببعض أقراص العجين باللّحم السّاخنة، ستصل قريباً كُلوها قبل أن تبرد"، قال ذلك ومن ثمَّ اختفى متسلِّلاً كالأفعى.

في تلك الليلة، كان جلّ ما فعله المعتقلون هو تلاوة الدّعاء بشكلٍ جماعي، إذ لم يأكل أحدٌ الطعام الّذي تمّ جلبه لهم بعربةٍ مخصّصة لنقل الطّعام؛ في الحقيقة كانوا جياعاً بيد أنَّهم لم يكونوا في وضعٍ يسمح لهم بالأكل، فيما بعد وصلت أقراص العجين باللّحم الّتي أوصى بها النقيب، كانت موضوعةً في كيسٍ كبير وتمّ وضعه في المهجع وكان يبدو وكأنّه جثّة. في البدء لم يرغب أحد الاقتراب منها، كان أكثر من تجرّأ على الدنو منها شخصٌ يدعى شعبان، لقد كان متصالحاً مع نفسه و مدفوعاً بتعليماتٍ معدته فحسب، قام شعبان بجرّ الكيس إلى داخل المهجع وشرع يثمّن سعر أقراص اللّحم بصوت عال؛ فقط من كان يملك المال كان قادراً على الحصول عليها، ومن لم يمتلك المال لم يكن قادراً على شرائها، وكان بعضٌ منهم يملك المال إلّا أنهم لم يأخذوها أو أنهم لم يرغبوا بأخذها، لكن حين بدأت تتكشفّ المعالم الأولى لتلك المعيشة المبنيّة على أساس الفرديّة، أدرك بعض المعتقلين مبكّراً مدى البشاعة التي سيؤول إليها استسلامهم.

لم تكُ مظاهر الفرديّة تلك موجودة عندما كان المعتقلون في الزنزانات، لقد أحزن هذا الوضعُ بعضهم و زلزل كيانهم؛ في الحقيقة فإنّ تلك المظاهر السيّئة تركت أثراً عميقاً في نفس كلّ ذي فكرٍ وإدراك.

لم تكُ تلك المجموعة، المؤلفة من 99 معتقلاً، كلهم من معتقلي حزب العمال الكردستاني، فخمسة منهم كانوا من الـ (KUK)[2] وستة من الـ (بارتيزان) وثمانية من (حزب كاوا) وواحدٌ من (حزب رزكاري)... هؤلاء لم ينضموا بشكلٍ فعلي إلى المقاومة وجيءَ بهم إلى المهجع الـ/33/، فمثلاً البعض من معتقلي (KUK) أرادوا قطع أسلاك السّيارة التي كانت تقلّهم إلى المحكمة، لكنهم اعتُقلوا واقتيدوا إلى المهجع الـ/33/.

في الليلةِ ذاتها، حدث شيءٌ آخر مهم، فلقد تم تعيين مسؤول جديد للمهجع ومساعدٍ له ومسؤولٍ للمطعم، لقد أرادت إدارة السّجن أن يكون كل شيءٍ تحت سيطرتها، وبهذا أصبح الشخصان اللذان كانا يحاكَمان في قضية (البارتيزان) قد تم تعيينهما كمسؤولٍ ومساعٍد، وكذلك تم تكليفهما بإدارة أعمال المطعم، لكن ورغم ما فُرض عليهما إلا أن هذين الرفيقين لم يقوما بالوشاية أو التجسّس لصالح إدارة السّجن.

انسحب المعتقلون كُلٌّ إلى سريره وتمدَّدوا، بعضهم غطّ في نومه، فيما حاول البعض الآخر أن ينام، وقسمٌ منهم كان يفكّر في مستقبله ويتساءل عن طبيعة المخاطر التي ستواجهه، و قسمٌ آخر كان لا يزال يفكّر في رفاقه المقاومين

---

[2] Kürdistan Ulusal Kurtuluşçuları، حزب "التحرر الوطني الكردستاني". (المترجمة).

القابعين في الزنزانات، مستذكرين لحظات المقاومة و كأنّها ماثلة أمام أعينهم، فرحلةُ المجهول بالنّسبة لاولئك المعتقلين كانت قد بدأت...

الفصل الثاني

إن قلنا بأنّ فرهاد كان أكثر من يفكّر في تلك الليلة فلن نكون مخطئين في ذلك، كان مستلقياً على سريره في الزّاوية السفليّة من المهجع، في تلك الأثناء دنا منه عدنان يلماز، الذي كان مشغول التفكير مثله ويتملّكه الفضول لمعرفة ما يشغل بال فرهاد، فسأله: "بم تفكّر يا أخي؟". انقطعت سلسلة أفكار فرهاد على إثر سؤال عدنان، فردّ قائلاً: " فيما قد أكون أفكّر؟ تعال اجلس"، جلس عدنان وبدآ الحدي،, كان يبدو أن عدنان لا يمتلك الجرأة على البوح بما يدور في خلده بشكل صريح، فبدأ حديثه المبطّن بالقول:" إنّ طريقة توزيع أقراص العجين باللّحم هذا المساء أثارت في نفسي الدّهشة والحزن في آنٍ معاً"، واستطرد: " أهكذا ما كانت ستؤول إليه أحوالنا؟"، وهنا ردّ عليه فرهاد: " لقد لفت الأمر انتباهي أيضاً ولكنّنا سنتحمّل فترةً من الزّمن، و بعد أن نتحسّس الوضع بشكل جيد، سنعثر على حلٍّ بالتأكيد, ولكن لدينا الآن أمورٌ أكثر أهمية للاهتمام بها، فبدايةً يتوجّب علينا إدراك الوضع الّذي آلت إليه مجموعتنا، هذا هو الأمر الأكثر أهميّة برأيي".

حينها قال عدنان: " إنّ العدد الأكبر من مجموعتنا هم من القروِّيين، لذلك فإنَّ القلّة القليلة فقط قادرة على إدراك الوضع الذّي نحن فيه، انظر كيف أنهم قد تناسوا كل شيء والتفت كلٌّ منهم لنفسه بمجرّد أن جلبوا للمهجع بعض أقراص اللّحم بالعجين؛ أعتقد بأنّ هذه الحادثة قد كشفت الستار عن الحالة الحقيقيّة للمجموعة".

أدرك فرهاد بأنّ كلامه قد أثّر بشدّة في نفس عدنان وشغل تفكيره أكثر فأكثر، وبعد أن تنهّد ردَّ على عدنان: " دعك من هذا وذاك، فنحن أيضاً ركّابٌ على هذه السفينة، ألم نفعل الشّيء ذاته، أوَ لَم نترك رفاقنا يقاومون بمفدرهم في الزنزانات خلفنا؟ أوَ لسنا أيضاً مستسلمين؟ هل نختلف الآن عن بقيّة الناس؟، أنمتلك الحق لنقول لأحدٍ افعل هذا ولا تفعل ذاك؟"، طأطأ عدنان رأسه دون أن يجيب، وشرع يسرح بأفكاره، وفي النهاية عوض أن يُساهم في أيّ حل يُذكر زاد على فرهاد قائلاً: " لا أعرف ماذا أقول يا أخي، فأنت تُدركُ الأمور أكثر منّي".

رغم كل شيء، استمرّ المعتقلون في ترتيب أمورهم في مهجعهم الجديد. كان يعيب المهجع الكائن في العليّة نقص المياه وندرتها، فقد كان يقدَّم لهم القليل فقط من أجل أعمال التنظيف، بعض المعتقلين باتوا يعيشون حياتهم بشكل طبيعي، وبينما كان هؤلاء يقومون بأعمالهم الاعتيادية دون اكتراث، كان البعض الآخر لايزال تائهاً في دوامة محاسبة نفسٍ ذاتيّةٍ، قسمٌ آخر منهم كان منهمكاً ودائم الانشغال وكأنّهم يريدون فقط نسيان وتجاوز ذلك الوضع المؤلم، لكنّ بعض المعتقلين الّذين لم يتقبّلوا هذا الوضع كانوا يتقاذفون الانتقادات بقسوةٍ فيما بينهم. في الحقيقة فإن كل تلك الانتقادات كانت جزءاً من مناقشة الوضع القائم، وكان ذلك الجزء معضلةً يوميّة لاولئك المدركين للوضع واللذين لم يرغبوا بالابتعاد عن قيم المقاومين،مُذ وطئت أقدامهم أرض المهجع.

كان ميرفان جالساً في إحدى زوايا المهجع يحتسي الشاي مدخّناً سيجارته، حين رأى آمد بأنَّ ميرفان جالسٌ لوحده توجّه إليه وجلس إلىجانبه، ملأ

ميرفان كوباً من الشاي لـ آمد ومرّر إليه سيجارةً أيضاً. في البداية تبادلا أطراف الحديث باستمتاع، ولكن آمد الّذي كان قد استملكه الانزعاج، ودَّ أن يشارك أفكاره مع صديقٍ يثِق به ويتحدث إليه، لذلك توجّه بحديثه لميرفان قائلاً: " أنا مضطَّربٌ للغاية، ما رأيك في وضعنا الحالي؟ كيف تقيّم الأحداث الأخيرة التي وقعت في مهجعنا؟". سارع ميرفان الّذي كان يُعرف بصراحته للإجابة على تساؤلات آمد: "الوضع واضحٌ جداً، فنحن استسلمنا وأتينا إلى هذا المهجع لنحتسي الشاي في الوقت الذي يقاوم فيه رفاقنا؛ ليس بمقدوري قول شيءٍ آخر، فأنت ترى كل شيء بأمِ عينك".

في هذه الأثناء أتى كشه، الذي كان أكبرهم سنّاً وأكثرهم مرحاً، وأخذ كوب الشّاي الذي كان يحتسيه آمد أثناء انشغاله بالحديث مع ميرفان، واحتساه خلسةً دون أن ينتبه إليه أحد، مدّ آمد الّذي كان لا يزال غارقاً في أفكاره يده ليتناول كوب الشّاي فاكتشف عندئذٍ أن الكوب فارغٌ! أمّا كشه فلقد كان كطفلٍ مشاكسٍ ينظر إلى آمد من بعيد ويضحك دون توقف. في ذلك الوقت جاء كلّ من محمود زنكين وأشرف آنياك وانضمّا للجلوس معهم، وهكذا بات النقاشُ غنيَّاً، حينذاك أفصح آمد لرفاقه عمّا كان يدور في خِلده بكل صراحةٍ: " أنا أرى بصدقٍ أن وضعنا يماثلُ كأن تتخلّى عن رفاقك على خطوط جبهة الحرب عالقين بين فكّي العدو، أي أنّنا خنَّا رفاقنا ومبادئنا". وأضاف ميرفان: "في هذه الحالة، لن يعفو عنّا لا حزبنا ولا شعبنا"، عندها أقبَل فرهاد أيضاً وبدأ يتابع النّقاش الدّائر بين المجموعة، وشرع كشه بممازحة ميرفان مرة أخر: " أيّها الشّاب اللّطيف، لقد تكلمتَ كثيراً، فلتعطني كوب الشّاي ذاك"، فردّ عليه ميرفان:

"يا كشه لقد ألحقت بي الضرر مرّةً أخرى، كم مرَةً حذّرتك ألا تفعل هذا، لقد بتُّ الآن مجبراً على توزيع الشاي الخاص بي على الجّميع"، فقال فرهاد لـ كشه: "تعال لتجلس معنا أيضاً، لِم تتجوّل هكذا؟"، لم يخالف كشه كلام فرهاد وجلس بجانبه، انخرط عندها أشرف بالحديث: "أيّها الرّفاق أرأيتم كيف أنّ بعض التّصرفات غير اللائقة طفت على السّطح أثناء قدوم الشاي؟ قد يكون السبب أنّنا لا نمتلك روحاً ثوريّةً، فلو كنّا نمتلكها بالفعل لكنّا الآن مستمرين في مقاومتنا مع رفاقنا في الزنزانات، لكن رغم ذلك نحن ما نزال نمتلك الشّخصيّة والأخلاق الّتي مُنحنا إياها من قبل الحزب على مدار السّنين؛ و أنا متيقِّنٌ أنّنا لم نخسرها كلها، فحتّى لو تركنا صفوف المقاومة لسببٍ أو لآخر إلّا أنه ليس بالضرورة أن نصبح لئيمين لهذه الدرجة؛ فعلى الأقل يتوجّب علينا احترام رفاقنا المقاومين، فهم يبقون لأيّامٍ ولأشهرٍ بدون طعام أو ماء، إنّني أمقُتُ نفسي في كلِّ مرَّةٍ أرى فيها مثل هذه المواقف".

عقَّب فرهاد على حديث أشرف سائلاً: "ما هي تلك المواقف التي تسبّب لك كل هذا الإحراج؟"، عندها قال محمد: "ألم ترَ يا أخي ما صاحبَ قدوم الشاي من أحداثٍ قبل قليل؟ وكأنّ الشّاي وأقراص اللّحم بالعجين هما كلّ ما يهمّ بعض الأشخاص هنا، فبمجرّد أن يُفتح الباب تراهم وكأنّهم يتراقصون من شدّة فرحتهم، هم لا يتأثّرون بأيّ شكلٍ من الأشكال بالوضع الّذي نحن فيه، في الحقيقة، كما أسلف أشرف يجب أن نخجل من أنفسنا". ردّ عليه فرهاد: "من هم اولئك الذين تتكلّمون عنهم؟ إنّ معظمهم أنصارنا من القرويّين والمتعاطفين معنا وهم هنا بسببنا نحن، لا يجب عليكم أن تفكّروا بهم بهذه الطّريقة،

انظروا لي رأيٌ مختلف تماماً، فهم معنا منذ فترةٍ طويلة وقد تحمّلوا الكثير من المصاعب والآلام وقاوموا إلى جانبنا حتى آلت بهم الأمور إلى هذا الحد، دعوكم منهم ولنلتفت إلى أنفسنا؛ فإن كانوا هم الخطائين فنحن إذاَ المذنبون".

كلّ مَن كان ينصت إلى ذلك النّقاش ويتابعه طأطأ رأسه خجلاً، قال فرهاد ممازحاً كشه: "وأنت، ما رأيك يا مدير مالية حلوان!؟"، بضحكته المعهودة، تضايق كشه فأحمّر وأصفّر ومن ثم قال: "ماذا يتوجَّبُ عليّ أن أقول؟ لقد تركنا رفاقنا هناك وأتينا إلى هنا؛ إذاً فلحزبنا وشعبنا كل الحقّ فيما سيقولونه عنّا"، ربتَ فرهاد على كتفه بودٍّ قائلاً:"لا تحزن، فهذي الأيام ستمضي لا محالة". لقد تخطّى ذلك النّقاش أطر الأحاديث الاعتياديّة، فكلّ من كان في المهجع ممّن أرادوا الحفاظ على جوهرهم الثّوري، كانوا يطرقون السّمع إلى ذلك النقاش، لقد كانوا ينجذبون إلى بعضهم الآخرَ كالمغناطيس، لذلك فقد اجتمعوا بمجرّد أن سنحت لهم الفرصة. كان نجمي أونر قد انضمّ أيضاً للحديث وأراد أن يشاركهم بأفكاره التي رأى أنّها قد تكون حلولاً للمشاكل التي طفت على السّطح خلال النقاش: "حسب رأيي، وكشرطٍ أوّل، فإنّ ما قد يخرجنا من هذه الحالة التي نعيشها هو المواظبة على أسلوب الحياة الّذي عهدناه لسنواتٍ كما هو"، ومن ثمَّ التفت إلى فرهاد وآمد وميرفان: " لقد استمعت إلى نقاشكما بالصدفة إلّا أنّني لم أفهمه بالكامل، هل تستطيعان إيضاحه للرفاق أيضاً؟ ردّ فرهاد: ماذا عليَّ أن أقول؟ من الأفضل لآمد أن يقوم بذلك. آمد الّذي لم يستطع أن يعبّر عما يدور في نفسه لميرفان سابقاً قال: "برأيي، لقد ارتكبنا خيانةً، لأننا لسنا أناساً عاديّين، لقد زرع فينا الحزب منذ سنين روح المقاومة لا الاستسلام، إلا إنّنا لم نكُ أهلاً

لهذا الحزب، فلا الشّعب ولا الحزب سيعفوان عنّا لما وصلنا إليه من حال". التفت فرهاد إثر ذلك إلى رفاقه قائلاً: "هل توافقون آمد في ما قاله؟". قال محمود: "ما يقوله آمد صحيح"، وافقَه أشرف قائلاً: "وأنا أظنّ ذلك أيضاً". فقال فرهاد: "يا رفاق، قبل كل شيء وضّحوا مفهومَي الخيانة والاستسلام"، ثم ساد صمتٌ عميقٌ المكانَ قبل أن يكسره صوت الحارس الحاد الذي صرخ:" استعدّوا للخروج إلى السّاحة للتنفّس" فاندفع المعتقلون الذين لم يخرجوا منذ أشهر إلى الهواء الطلق كالأمواج نحو ساحة التنفّس، وكأنّهم يريدون احتضان الشمس والهواء العليل. وكما في كلّ مرّةٍ، خرج المعتقلون إلى السّاحة وبدأوا يتمشّون على شكل مجموعاتٍ مكوَّنة من شخصين أو ثلاثة، كانوا يظنّون أنهم سيتجولون بحريّةٍ مطلقة كون أنّهم مستسلمون. لكن فرحتهم تلك لم تدُم طويلاً، حيث تدخَّل الجنودُ على الفور: "هذا مرفوض، من غير المقبول أن تتصرفوا كما تشاؤون، بدايةً يجب أن تتلقّوا التدريب لمدّة خمسة عشرة دقيقة وبعد ذلك بمقدوركم أن تستريحوا". في تلك الأثناء جاء الضّابط المسؤول عن حرّاس السّجن برفقة بقيّة الحرّاس وقال: "أولاً، فلتنظِّموا أنفسكم في صفوفٍ من أربعة أشخاص، ولتبدأوا المشي"، بعد أن نفّذ المعتقلون ذلك، أوعز الضابط: "استرح... استعد... تابع المسير بانتظام"، وبما أن المعتقلين لم يكونوا معتادين على مثل هذه الأوامر فإنّهم لم يستطيعوا تنفيذها من المرّة الأولى، هذا ما دفع الضابط بإعطاء الأمر لحرّاسه لتنفيذ ذلك وقال للمعتقلين انظروا إليهم، وبعد هذا العرض طلب من المعتقلين أن يفعلوا الشيء نفسه، إلا أن المعتقلين نفّذوا ذلك بشكل غير منتظم؛ فلقد كان هذا تدريبهم الأول.

حطّم ذلك النوع من التّدريب ما تبقّى لدى المعتقلين من معنويّات، وكان كولومبو عصمت أوّل من عبّر عن استيائه حيث قال بصوت مرتفع: "بينما رفاقنا ها هناك مضربون عن الطعام حتى الموت نتدرّب نحن هنا مثل جنودٍ أتراك!"، وبعد مدّة قصيرة منحهم الحارس استراحةً، فبدأ المعتقلون بالمشي في ساحة التّنفس جيئةً وذهاباً بنفس طريقتهم الأولى، كان أحد المعتقلين يتحدّث مع معتقلي المهجع المقابل، دون أن يكترث للحارس، فمن ناحيةٍ كان ينقل لهم أخبارهم ومن ناحيةٍ أخرى يستفسرُ عن أحوالهم.

بعد قضاء قرابة ساعةٍ في باحة التنفّس أُعيدوا إلى مهاجعهم، وبعد أن تناول المعتقلون العشاء وانسحبوا إلى أسرّتهم بدأوا بالحديث فيما بينهم على شكل مجموعاتٍ صغيرة. قال فرهاد لعدنان الّذي كان يجلس بجانبه: "اجمع الرفاق الذين كنا نتناقش سويَّةً قبل خروجنا إلى باحة التنفّس، سنكمل نقاشنا"، جمع عدنان رفاقه حول سرير فرهاد.

قال لهم فرهاد: "أيها الرّفاق، السّؤال الذي طرحته قبل خروجنا إلى باحة التنفّس لم يتم الإجابة عنه، لذا سنبدأ بما كنا نناقشه مرّةً أخرى، وليجاوب محمود عن هذا السؤال". فقال ميرفان: "نحن ضيوفك، أفلا تتكرّم علينا بسيجارة؟". ردّ فرهاد: "نعم، أنت محقٌّ في هذه النقطة، بما أنَّكم ضيوفي فسأقوم بواجبي على أكمل وجه، وقال لعدنان: "فلتنادي إكرام وكرصور وأفه أيضاً؛ السجائر موجودة". وحين أراد عدنان أن يذهب، استدرك فرهاد: "انظروا، أتذكّر الجميع وأنسى أبناء مدينتي. يا عدنان لا تنسى أن تدعو كل من بوروكرات وهسبك أيضا". بينما كان المدعوّون يجتمعون رويداً رويداً شرع

فرهاد بتوزيع السّجائر وتهيئة مكان الاجتماع، وبعد أن جلس كلّ واحدٍ منهم في مكانه، بادرَ فرهاد: "هيا يا محمود نحن في انتظارك"، بدأ محمود في الحديث: "يا رفاق، لا أجد ضرورةً للحديث بإسهاب، لذا سأحاول أن أعبّر عما أفكّر به بشكلٍ جوهري، إذ يجب علينا أن نكون واقعيين عند تقييم الحالة الّتي نحن فيها، فجوهر ما علّمنا إيّاه الحزب هو ألّا نتخلى عن مبادئنا الثوريّة تحت أيّ ظرفٍ كان، ففي الوقت الذي يقاوم فيه رفاقنا تركنا صفوفهم وجئنا إلى هنا، ولا ينبغي لأحد أن يبحث عن أيّة مبرّراتٍ لحالتنا الموضوعيّة هذه، وحسب اعتقادي، ثمة طريقةٌ واحدة كي يتقبلّنا الحزب والشعب مرةّ أخرى بين صفوفه، وهي العودة في أسرع وقتٍ إلى صفوف المقاومين، مع أنّني أعتقد أن هذا أيضاً لن يبرّأ ساحتنا، لكن، وكما يعلم الجميع، فهنالك مجال واسع ضمن أروقة السّجن للعمل النّضالي الذي قد يجعلنا مقبولين مرّة أخرى، لذا اقترح أن نقوم بالتّحضيرات لنلتحق بركب المقاومة من جديد".

بعد حديث محمود المثير قال نجمي: "أنا أوافق على ما قاله الرفيق محمود تماماً، ولكن علينا الأخذ بعين الاعتبار الحالة النفسّية للمجموعة، أي إعادة ترتيب صفوف جيشٍ منهزم ومتبعثر وإشراكه مرّة أخرى في الحرب، قد يبدو ذلك صعباً للغاية في البداية، ولكنّه ليس مستحيلاً، لذا فإنَّ الشيء الأكثر إلحاحاً هو تأسيس الحياة الكومينالية، بهدف جمع كل أولئك الراغبين في الحفاظ على جوهرهم وشخصيّتهم الثّورية على أساسها".

قال آمد: "في الحقيقة، أنا أيضاً أوافق نجمي تماماً فيما قاله، بل أستطيع أن أقول أنّنا تأخرنا في تحقيق ذلك". قال عدنان: "يا رفاق، منذ اللّحظة التي

وطأت فيها أقدامنا هذا المهجع وحين كنّا نخرج إلى باحة التنفّس كان فرهاد يتطرّق لهذه الأمور بشكل غير مباشر، حتى آمد يعلم هذا، أي أنّنا ومنذ اللّحظات الأولى التي خطت فيها أرجلنا هذه الحياة القذرة شرعنا بالبحث عن سبل العودة، وأنا على ثقةٍ تامّة بأنّ كلّ واحد منّا كان لديه التّفكير ذاته، إلّا أنّ أحداً لم يستطع وضع هذه الأفكار حيّز التّنفيذ، كما أنّني أتّفق مع كلّ ما قيل، وأودُّ أن أضيف على اقتراح نجمي ما يلي: "نحن من نمتلك القدرة على قيادة المجموعة. فإن لم نكُ على قدر هذه المسؤوليّة ولم نعمل وفقها، أي إن لم نستطع تنظيم المقاومة وانسحبنا وبقينا صامتين حيال ذلك، حينها لن تُلامَ المجموعة، بل سنلامُ نحن، إن أفسحتم لي المجال أريد أن أتحدث قليلاً عن تأسيس الكومينات". قال فرهاد: "يا رفاق إن ما تقولونه صحيحٌ في الأساس، وأوافقكم في ذلك، ولكن إن لاحظتم أنّ محمود قد قال أنّه يجب أن نقيّم حالتنا بشكل واقعي، في الحقيقة إن أردنا أن نقوم بذلك علينا أن نطرح المفاهيم التي تدور في رأسنا بشكل واضح وصريح؛ وإن لم يتحقّق ذلك سيكون عملنا غير ذي جدوى، بعبارةٍ أخرى، لن تقودنا بعض ردود الأفعال العاطفية والانفعالية إلى أي مكانٍ دون فهم الحالة التي نحن فيها. ثمَّ أن أحداً منكم لم يُجِب على سؤالي الذي طرحته قبل قليل، إن لاحظتم، أن كلّكم قد تطرَّقتم إلى جانب واحد ألا وهو أنّنا قد قمنا بفعل الخيانة، وأن الحزب والشّعب لن يعفوان عنّا؛ هذا صحيح ولكنّه جوابٌ غير وافٍ، لذلك سأجيب بنفسي عن سؤالي، الاستسلام والخيانة مفهومان مختلفان، فإن كنّا قد خنّا حسب تعبيركم فلا معنى إذاً لجلوسنا ونقاشنا لموضوع العودة إلى صفوف المقاومة مرّةً أخرى؛ لأنّه لا يجوز أصلاً مناقشة موضوع الخيانة، فهو جرمٌ يخضع لأقصى أنواع العقوبات.

الاستسلام هو الخطوة الأولى نحو الخيانة؛ وهذا يتجلّى بوضوحٍ في شعار الحزب (الاستسلام يحوّل المقاومة إلى خيانة)!"

أردف فرهاد قائلاً: "هنا أريد أن أوضّح بأنّ مفهومَي الاستسلام والخيانة هما مفهومان مختلفان وكلاهما يخضع لتراتبّية زمنيّة معيّنة، لذا علينا أن نضع المفاهيم في سياقها الصّحيح ونقيّمها ونفهمها، ما نعيشه في الواقع هو حالة استسلام، وعلى الجميع أن يدرك هذا الشّيء بشكلٍ واضح, فلربّما إن استطعنا أن نستجمع قوانا من جديد وننظّم أنفسنا للتخلّص من بيئة الاستسلام هذه عندها سيكون بمقدورنا كسر قيود الاستسلام والوصول إلى هويتنا المقاومة. بالتأكيد، فإنّ الخطوة الخاطئة الّتي قمنا بها ستخضع للتقييم والمراجعة من قبل رفاقنا، وأنا على ثقةٍ تامّة، إن عدنا إلى صفوف المقاومة فسنخفّف من أعباء ما نعيشه اليوم وكذلك سنغيّر نظرة رفاقنا السلبيّة تجاهنا. فإذا استمرّينا في كوننا مستسلمين وبات ذلك نمط حياةٍ نعتاد عليه، عندها بالتّأكيد سننزلق إلى مستنقع الخيانة، وبلا شك سيغدو وضعنا صعباً كما أسلف نجمي. إنّ ما نعيشه الآن يشبه لحدٍّ كبير شتات وانهزام قسمٍ من جيشٍ في أرض المعركة، لذلك فإنّ مهمّة إعادة تجميع هذا القسم المنهزم من جديد وإشراكه في المعركة يقع على عاتقنا، ويبدو أن مهمتنا صعبة للغاية، إذ لا نستطيع أن نخاطب المجموعة بشكلٍ مباشر ونقول لهم هيّا فلنعد مرّةً أخرى إلى صفوف المقاومة الّتي تركناها بالأمس. بدايةً ما يجب علينا فعله هو كما قلتم: أن نؤسّس الكومينات، وأقترح عليكم أن تبدأوا بذلك منذ هذه اللّحظة، وأنا أنتظر اقتراحاتكم وأفكاركم بهذا الصّدد".

سأل آلك: "هل سيكون العمل على تأسيس الكومين علنياً أم سريًّاً؟"، ردَّ أشرف: "برأيي من الأفضل أن يكون علنيّاً، فإن كان سريّا قد يتسبب ذلك بعدم انضمام بعض الشّرفاء المتعاطفين معنا ". فقال بوروكرات: "علينا ألّا نُغفل الظروف الّتي نعيشها، إن لاحظتم كيف تطرّق الرّقيب يوم أمس إلى موضوع الكومين، بعبارةٍ أخرى إن اكتشفت إدارة السّجن إن ثمّة حياةً مبنيّة على أساس الكومينات فذلك قد يكون سبباً في تشتيتنا". فيما قال إكرام: "يتوجّب علينا أن نأخذ ما قاله بوروكرات بعين الاعتبار".

سأل عدنان الآخرين عن رأيهم: "ما هي اقتراحاتكم؟". قال كرَصور: "ألن يكون من الأفضل أن نعتمد أسلوباً تنظيميّاً تعاونيّاً عن طريق جمع أبناء المنطقة الواحدة مع بعضهم البعض؟". قال بوروكرات: "ما قاله كرَصور صحيح، فإن اجتمع أبناء كلّ منطقة معاً أثناء تناول الطعام فإنّ الأمر لن يلفت انتباه إدارة السّجن"، تحدّث محمود: "يا رفاق، إنّ ما اقترحتموه من أسلوبٍ لا يناسب وضعنا، فتلك التجمّعات غالباً ما يتمّ اكتشافها بسهولة، قد يناسب هذا النّمط معتقلي العدالة"، قال آمد: "في الحقيقة ما يقوله محمود صحيح، إذ يتوجّب علينا عند تأسيس حياة كومينالية ثوريّةٍ بحتةٍ ألا توجد تجمّعات على أسسٍ مناطقية، أي أن تكون هذه الحياة أداة يمكنها أن تقربنا من بعضنا البعض وتحمي على الأقلّ قيمنا الثورية". قال ميرفان: " إن لم أسئ الفهم، فإنّ رفاقنا قد أوضحوا جوانب الحالة التي نعيشها، وتطرّقوا إلى المقاومة مرّةً أخرى، وأنّه لا يمكن الاعتماد على غير الحياة الكومināليّة أساساً لهذه المقاومة، وبناءً على ذلك، يجب أن يكون تأسيس الكومين علنيّاً حتّى يتسنّى لنا معرفة من سينضم

إليه ومن سيرفض الانضمام، فهذا هو الأسلوب الوحيد للمقاومة، سواء بالدّعم أو المشاركة الفعليّة المباشرة".

قال فرهاد: "حسبما فهمته من حديثكم، فإنّه ثمة اتجاهان، الأوّل يدعم التّنظيم على أساسٍ تعاوني، فيما الثاني يقترح التّنظيم على أساس نمط الكومين الثّوري الّذي نعايشه منذ سنوات، فإن أخذنا بالرّأي الأول سنكون بعيدين عن جوهر الهدف الّذي صُمّم لأجله. لكن إن تطوّر ذلك فيما بعد إلى نمط الكومين الثوري فلن تكون ثمّة أيّة مشكلة. أنا شخصيّاً أؤيّد فكرة تشكيل كومين بشكلٍ علنيٍّ، والسّبب وراء ذلك هو أنّنا جميعنا متفقون على الشروع بالمقاومة مجدَّداً منذ البداية".

تابعَ فرهاد: "لذلك، من الضّروريّ تأسيس كومين مفتوح وحياة ثورية علنيّة لخدمة ذلك الهدف، مع استبيان موقف مجموعتنا الذي سندرك من خلاله مدى دعمهم لنا، و هكذا سيتوضّح لنا مدى قوّتنا ومدى دعم جمهورنا لنا، إنَّ اقتراح كرَصور جيّد من حيث النهج، لذلك سيتمّ تأسيس الكومينات وفق خصوصيّة كلّ منطقة، لكنّ ذلك لن يخالف شروط الكومين الثوري بأيّ شيء، فلنحدّد إذاً مجموعاتنا منذ هذه اللّحظة، أعتقد أنّه سينضم إلى كوميننا ما بين 60-65 شخص، ونستطيع بذلك أن ننظّم كل 6-7 أشخاص في مجموعةٍ واحدة ضمن الكومين، وسيكون ثمّة مسؤولٌ عن كلّ مجموعة، وسيتمّ تحويل الأموال التي يتلقاها كافّة أعضاء المجموعات من ذويهم إلى المركز، وسيعمل المركز على توزيع هذا المال على المجموعات، كما سيخصّص مبلغ ثابت خاصّ لدعم المرضى، وسيتمّ توزيع المجموعات كالآتي: المجموعة الأولى سيشرف

عليها آمد، الثّانية هسبك، الثّالثة ميرفان، الرّابعة أشرف، الخامسة محمود، السّادسة نجمي، والسّابعة أفه وآلِك.

وأنت يا كرَصور فسيكون عليك الاهتمام ببعض الوطنيّين من شعبنا، ولتتمّ معاملتهم بشكلٍ أفضل منّا، سيّما في أمور توزيع الشّاي والسّجائر وبعض الأمور المماثلة، فقد يزيد عدد المنضمّين لمجموعاتنا إن لم نتبنّى الانضباط الثوريّ الصّارم، خصوصاً بسبب الوضع الّذي بتنا عليه مؤخّراً".

كان ميرفان بلا سجائر، وهذا ما حثّه إلى ممازحة فرهاد: "لقد جمعتنا هنا منذ الصّباح ولم تعطنا سوى سيجارة واحدة فقط، أهكذا تكرمون ضيوفكم في مسقط رأسك؟ فلتضع بعض علب السّجائر هنا لندخّنها". ردَّ فرهاد على هجوم ميرفان ممازحاً إيّاه: "في مسقط رأسي نكرّم ضيوفنا بعد ضربهم وتعذيبهم". فقال مروان: "يا لكرمكم يا أخي! لقد أدمعت عيناي من شدّة التأثّر"، وبعد أن أدخل فرهاد الفرحة إلى قلوب رفاقه وضع علبة سجائر من نوع Maltepe أمامهم، بعد أن أخرج منها سيجارة ومرّرها لميرفان.

أمّا بحري، الّذي كان ضيفاً بكلّ معنى الكلمة في هذا النقاش، إذ كان يكتفي بالاستماع من سريرٍ قريب في البداية، التفت إلى عدنان قائلاً: " إنّ حياة الكومين الّتي أعرفها هي نمط حياة الثوريّين والشيوعيّين، لكنّ ما نعايشه هنا لا يليق لا بالمقاومين ولا حتّى بالوطنيّين".

تدخّل أشرف قائلاً: "إنّ ما تقوله لا ينمّ إلا عن غطرسةٍ، أترى أنّنا لا ندرك ما نفعله؟ سنعرف قريباً ضمن هذه الظروف من سينضم إلى الكومين ومن سوف لن ينضمّ، كما أنّه وخلال مدّةٍ وجيزة تبيّن لنا أنّ البعض هنا يُؤثِرُ الحياة الفرديّة".

في الحقيقة كان بحري قد أفصح عن نواياه وعمّا يدور في رأسه عبر ما قاله، ولكنّ جواب أشرف حوّله إلى صَنَمٍ أخرس.

وفقاً لتصنيفات الدّولة، كان بحري يتحدَّر من أسرةٍ متوسّطة، ولأنّه ترعرع في منطقة النّضال الثّوري كان قد اضطرّ إلى الانخراط في صفوف المقاومين، إلّا أنّه لم ينوي يوماً أن يصبح ثائراً أو بروليتاريّاً على الأقل، وحين واجهته المصاعب سعى جاهداً للبحث عن حججٍ مختلفةٍ لقطع علاقته مع حركة النّضال الثّوري، سيّما بعد أن تبيّن ما حلّ بابن منطقته محمّد، فكان الأمر بمثابة ذريعةٍ وفرصةٍ لقطع علاقته مع الحركة، لذا كان صعباً عليه التعايش مع الحياة الكوميناليّة والثّوريّة.

هكذا عقد المعتقلون في المهجع /33/ اجتماعهم الجدّي الأوّل، وهذا ما شكّل متراساً متيناً لاولئك الّذين أرادوا الحفاظ على جوهرهم الثّوري، وخطوةً أولى للاقتراب نحو رفاقهم الّذين يقبعون في الزّنزانات ويتحمّلون شتّى أنواع التعذيب والظّلم، كان ذلك بمثابة ارتباطٍ روحيٍّ برفاقهم المقاومين الأوائل الذّين كانوا يرقدون على أسرّة الموت، و َنفُّسَ الصّعداء لاولئك الّذين كانوا يبكون دماً ليل نهار، ودواءً شافياً لعذابات آمد ورفاقه ممّن أرادوا أن يحموا قيمهم رغم كلّ شيء.

لم يكن المعتقلون يطمحون لأكثر من ذلك، فلقد اغرورقت عيونهم وطارت قلوبهم من شدّة الفرح بعد اتّخاذ ذلك القرار. إنّ الحيّاة صعبةٌ بلا شك، والحياة في سجن آمد أكثر صعوبةً وقسوة، فمسيرة البقاء والصّمود فيه يكادُ يشبه التّوازن المستحيل للاعب جمبازٍ يسير على حبلٍ رفيعٍ مطلٍّ على ويلات الجّحيم، وأن تبقى مبتسماً في مكانٍ تجتمع فيه كافّة صنوف التّعذيب والتّرهيب والعنف المفرط، وأن تبني في الوقت ذاته جسوراً حجارتها من دمٍ وروحٍ وقيم، فذلك يتطلّب أن تبذل في سبيله الغالي والنّفيس.

إنّه لمن السّهولة بمكان أن تكون إنساناً عاديّاً بالعموم، ولكن ذلك يتطلّب المهارة داخل جدران سجن آمد، خصوصاً إن أردت أن تضفي على إنسانيّتك صبغة النّضال والثورة، وذلك هو الأساس، ففي اليوم الّذي سوف تؤتي الثّورة أُكلَها وتنطلق فيه الاحتفالات في كلّ مكان سيقوم الجّميع بملء صدورهم وبفرحةٍ لا متناهيةٍ.

الأيَّامُ مرَّت ثقيلةً، وأضحت اللّيالي وكأّنها سجنٌ داخل سجنٍ آخر، لم يكُن ذلك بسبب الجّوع أو العطش أو حالة البؤس الّتي يعيشها المعتقلون، بل بسبب عدم مقدرتهم على فعل أيّ شيء، لقد كانت براعم الحياة تتفتّح هناك بشكلٍ أو بآخر، كشَه بدوره كان ينشر الحيويّة من خلال نظراته، ورغم أنّه لم يعد كسابق عهده إلّا أنّه كان يشرح لآمد سبب سعادته قائلاً: "لقد نمت مرتاح البال اليوم".

في صبيحة ذلك اليوم وبعد تناول الفطور شرع المعتقلون بالقيام بعملهم و نقاشاتهم بشكل دؤوب، وتحدّث كُلّ واحد منهم إلى معارفه حسب الخطّة الموضوعة، وبالفعل كما أوضح فرهاد، فلقد انضمّ 63 شخصاً إلى الكومين وتمّ توزيعهم على مجموعات، وخلال فترة وجيزة وصلت الأموال إلى مسؤولي الكومين وتم توزيعها على المجموعات. في تلك الأثناء قال فرهاد: "فلتجدوا إكرام ولتأتوني به". فقام كشه بالبحث عنه وجاء به إليه، قال فرهاد مخاطباً إكرام: "قم بإعداد قائمة احتياجات المطبخ في أسرع وقت ممكن، و قبل أن أنسى دوِّن جميع مستلزمات المرضى وكبار السنّ أيضاً؛ فمن الآن وصاعداً ستهتم أنت بهذه المهمة"، ردَّ إكرام قائلاً: " أنت تعلم أن إدارة السّجن قد كلّفت أعضاء من (البارتيزانيين) للقيام بهذا العمل، فهل من الصواب أن يبقوا مكلّفين بها رغم أنّنا نحن نمثّل الأغلبيّة في المهجع و ليسوا هم؟"، فردّ فرهاد: "أعلم ذلك، قم أنت بإعداد اللّوائح الّتي طلبتها منك واعطها إيّاهم، فالعمل لا يقتصر على المطبخ فحسب، بل يشمل المهجع أيضاً، سوف نتسلّم مسؤولية المطبخ والمهجع في أقرب وقتٍ ممكن، لننتظر بعض الوقت، كما تعلمون فإنّ أولئك الذّين أخذوا على عاتقهم الاهتمام بأمور المطبخ والمهجع ليسوا على علاقة تنظيميّة مع البارتيزانيين، لذا سوف نتحدّث إليهم بشكل مباشر في هذا الخصوص".

بدأ المعتقلون الذين كانوا حبيسي حالة جَلد الذّات لما اقترفوه يتحرّرون مِمّا كان يعذّب أرواحهم مع مرور الأيّام، ومن خلال النشاطات التي قاموا بها استطاعوا ترتيب أوضاع المجموعة، ورغم أنّها لم تكن حياةً كومينياليةً مثاليّةً إلّا أنّها

كانت الأفضل في الظّروف القائمة، لقد شعر أفراد المجموعة بالتّغيير خلال فترةٍ وجيزةٍ من تأسيس الكومين، وانعكس ذلك من خلال الحياة اليوميّة الّتي باتت أكثر انضباطاً مع تحديد لوائح مهام التّنظيف والحراسة. إنّ الانتصار المتمثّل باستعادة الحياة الثّوريّة من جديد لم يكن أبداً بالإنجاز البسيط.

لم تكن الحالة المادّية لمعظم المنضمّين إلى الكومين جيّدة، لذا كان من المؤكّد أن يواجهوا بعض الصّعاب على هذا الصّعيد، حيث أن كلّ المعتقلين الّذين كانت حالتهم المادّية ميسورة لم ينضموا إلى الكومين، وفي الحقيقة، قال بعضهم لفرهاد بكل وضوح: "ليس بمقدورنا الانضمام إلى الكومين الذي أسّستموه، ولكنّنا نرغب في مساعدتكم ونحن خارجه". وبالفعل تم استلام المساعدات من اولئك الّذين بقوا خارج الكومين، فلقد كان لموقف فرهاد ونهجه المعتدل تأثيراً واضحاً عليهم، فهو لم يكن يتقبّل أيّ موقفٍ عدائيٍّ أو حزبيٍّ خصوصاً تجاههم، ولطالما كان يقول لرفاقه ناصحاً إيّاهم: "يجب أن يكون تعاملنا وأسلوبنا جيّداً مع الآخرين كي يتقبّلونا ويتقبّلوا أفكارنا".

لم تكن أوضاع معتقلي الأحزاب السّياسية الأخرى من غير المنضمّين لحزب العمّال الكردستاني أو للبارتيزانيّين جيّدة، وأفضل ما كان يقال عنهم أنّهم يمثّلون "قريةً يحكمها الكثير من الملوك"، حيث أنّهم و–رغم قلّة عددهم– إلّا أنّهم لم يأسّسوا لأيّة حياةٍ منظّمة.

البارتيزانييون أيضاً كانوا يشتكون من أوضاعهم المادّيّة الصّعبة، لذا طلب فرهاد من رفاقه أن يعتبروا البارتيزانيين كجزءٍ من الكومين وأن يتمّ توزيع المال عليهم

كما توزّع على باقي المجموعات، وقد وافق الجّميع على طلبه، وعلى إثر ذلك تمّ مدّ يد العون لهم، ورغم أنّهم بقوا خارج صفوف الكومين إلّا أنهم باتوا مشاركين أكثر في الحياة القائمة داخل المهجع.

قال فرهاد لرفاقه: "لقد ناقشت مع كلّ المجموعات التي بقيت خارج الكومين فكرة الانضمام للحياة الثّورية الّتي أسّسناها، لكن مع الآسف كان الجواب الّذي تلقّيته منهم سلبيّاً، فلقد برّروا موقفهم قائلين: " إن اكتشفت إدارة السّجن موضوع الكومين فإنّنا سنخسر حتّى هذه الظّروف الّتي نعيشها الآن والّتي تعتبر أفضل من باقي المهاجع". لم يستطع اولئك الأشخاص بناء علاقة صحيحة معنا أو حتّى فيما بينهم في ظروفٍ أفضل من الّتي نعيشها، فكيف لهم أن ينضمّوا إلى الكومين في ظلِّ هذه الظّروف الصّعبة؟ هذا واضح جداً، لن ينضموا إلينا، لكن يجب أن نتحمّل مسؤولياتنا الثّوريّة الّتي تقع على عاتقنا دائماً، ونحن قمنا بواجبنا ذاك تجاههم، فلنضع كلّ هذا جانباً الآن، لأنَّ وجهات نظرنا مختلفة عنهم تماماً في الكثير من القضايا، وعلى وجه الخصوص أذكر أعضاء الـ (KUK)، في الحقيقة هم يمتلكون أفكاراً غريبةً، يرون أنّ المقاومة في هذه المرحلة بمثابة انتحار، وبسبب أفكارهم ومعتقداتهم تلك فإنّهم لم ينضموا إلى أية مقاومة داخل السجن، أما أعضاء الـ (كاوائيين) فهم يدّعون بسخفٍ أنّ المقاومة فعل صحيح، ولكن ليس من الضّروري أن يقاوم الجميع، ويضربون بمحمود -أحد أعضائهم- الّذي لايزال يقاوم في الزنزانات مثالاً لادّعائهم ذاك".

"أمّا البارتيزانييون ورغم اختلافهم عمّن سبق ذكرهم، إلّا أنّهم يتعاملون بنفاقٍ في ما يخصّ المقاومة، فهم يدّعون بأنّهم ليسوا ضدّها وأنّهم يقفون إلى جانبها كحركة كما وقفوا مع مقاومة 1981. إن مواقف ووجهات نظر هؤلاء معروفةٌ لنا منذ البداية. ما أريد قوله هنا، أنّهم يُظهرون أنفسهم كمقاومين، لكن في الحقيقة إنَّهم يفعلون كلّ شيءٍ لئلّا يقاوموا، لكن وعلى الصّعيد الشّخصي فإنّ بعض أعضائهم يرون أنّ المقاومة القائمة في السّجن عملٌ صحيحٌ ويحترمون ذلك، لكن هذا لا يغيّر شيئاً من سياستهم العامة، رغم كل ذلك فإنّه يجب علينا أن نبقى في حالة من التّواصل والتّعاون مع الآخرين داخل المهجع، نحن مضطرّون لفعل ذلك في هذه المرحلة، ولا أعتقد أنَّه سيصيبنا أيّ ضررٍ منهم".

ارتاحت سريرة فرهاد بعد أن شرح لرفاقه حقيقة الوجه الآخر للمهجع.

كان خالو صاحب الجسد المشوق والعينين الكبيرتين، الأكثر هدوءً ضمن معتقلي المهجع /33/، وكان المعتقلون ينظرون إليه كناسكٍ متعبّد، حيث أنّه كان يُبعث الأمل والطمأنينة في قلوب أكثر اليائسين بمجرد النّظر إليه، لقد كان منارةً للنّقاء والصّدق، فهو لم يكسر قلب أحدٍ قط طيلة تلك الأشهر، ولم يتسبّب بأيّة مشكلةٍ في ظلّ تلك الظّروف الصّعبة والقاسية.

كان خالو ينحدر من قرى سهول قزل تبه، تعرّف على الثوار أمام إحدى المضافات حيث كان يعمل بعد أن تبادل معهم أطراف الحديث، وهم بدورهم هيّأوا له أفضل مكان بينهم، كان الثوار بالنسبة إليه أغلى ما في الوجود، فلقد تعلّم معنى الحياة لأول مرّة على أيديهم، وبات عالمه الصّغير فجأةً أفقاً لا

منتهياً، إلّا أنّ ظروف الثّورة المضادّة التي عصفت بالبلاد والسجون مؤخّرا انعكست على خالو أيضاً.

تلك العاصفة أحنَت ظهره قليلاً لأنّه كان قد اختار موقف الشجعان إبّانها، فهو لم يستطع استيعاب مدى التّوحش الّذي قد يصل إليه الإنسان، رغم ظنَّه بمعرفة عدوّه جيّداً، فمنذ صغره كان دائم السؤال لأمّه: "أين أبي يا أمّاه، متى سيعود؟". أمّا أمُّه فقد كانت تُشغل ابنها بأجوبةٍ مختلفةٍ من قبيل: "يا بنيّ، والدك في مكان بعيد، قد يكون الآن داخل كمين على إحدى سفوح جبال جنوب كردستان، ربما يفكّر بك وبإخوتك في فترة استراحة المساء، سيعود يوماً ما يا بنيّ، بالتّأكيد سيعود".

عاد والد خالو بالفعل، لكن دون أن يتمكّن من رؤية ابنه وتقبيله، فلقد تمّ اعتقاله من قبل الجّنود الأتراك قبل أن يتسنّى له فعل ذلك، شعر خالو بألمٍ عظيمٍ داخل جوف قلبه الصّغير إثر سماعه النَّبأ.

قالت له أمه ذات يوم: "لقد شنقوا والدك يا بني، لن يعود أبداً، لم يعد لانتظارنا أيّ معنى، فلقد كبرتَ الآن ولا فائدة تُرجى من إخفاء الأمر عنك، لكن جلّ ما أتمنّاه هو أن تحمل سلاح والدك يومَاً ما".

كان خالو يصغي إلى كلمات أمّه تلك بتمعّن وكأنّه يستمع إلى تهويدةٍ لن ينساها، لقد كبر خالو مع آلامه و غضبه، وكان جزءٌ من ذلك الغضب يحفزّ حسَّ الوطنّية داخله, فيما جزءٌ آخرٌ يغذّي تعاطفه مع الثوار، لكن السّبب الرّئيسي الّذي دفعه للانضمام إلى صفوف الثّوار هو أسلوب فرهاد الجميل في

الكلام وطريقة تعامله اللّبقة مع الآخرين، كان خالو يسرد قصّة تعرفه على الثّوار بلا كللٍ أو مللٍ بهذه الكلمات: "أنا عاشق لوطني وشعبي، فحينما كان أحدهم يتحدّث عن الكرد أو يذكرهم في كلامه كان يقشعرّ بدني، وكان الإيمان يتملّكني من أعلى رأسي وحتّى أخمص قدمي. بعد عام 1978 كان أعضاء الـ (DDKD[3]) يتردّدون على قريتنا، ولم أكن أفهم كثيراً ما كانوا يقولونه، لقد كانوا بالنّسبة إليّ شبّاناً كرداً، وكنت أكنُّ لهم محبّةً كبيرة، ودائماً تقاسمتُ معهم رغيف الخبز، وبعدها بدأ فرهاد ورفاقه يتردّدون أيضاً على قريتنا، كنت أعاملهم بالطّريقة ذاتها، لم أتعامل مع أحد على أساس توجّهاته الحزبيّة مطلقاً، وفي يومٍ من الأيّام التقى فرهاد ورفاقه مع أعضاء الـ (DDKD) وبدأوا بخوض نقاشٍ طويلٍ، وكان كلّ سكان القرية يُصغون إليهم بحماسة ومحبّة، استطاع فرهاد حينها أن يُسكتهم جميعاً لوحده، ونال بذلك إعجابنا وودّنا جميعاً، وبات على قريتنا الاختيار بين الفريقين فقرّر الجّميع الانضمام إلى حزب فرهاد".

في هذه الأثناء لم يتمالك أحد المعتقلين نفسه فقال: "خالو، أقلت حزب فرهاد، ألم تكن تعرف اسم حزبهم آنذاك؟". ضحك خالو قائلاً: "حينها لم نكن نعرف اسم الحزب، كانوا يقولون لهم (Şeyh Barut)[4]". لينبري معتقل آخر بالقول: "خالو، وماذا تعني (Şeyh Barut)؟ نحن نسمعها منك لأوّل

---

[3] (Devrimci Demokrat Kürt Derneği)، الرابطة الكردية الثّورية الديمقراطية

[4] "شيخ بارود"، تسمية كانت تطلق على حزب العمال الكردستاني في منطقة ماردين بداية ظهوره.

مرّة". قهقه خالو وردّ قائلاً: "يا ابن أخي، أنت لا تعرف أنّ في ماردين كان الأنسب أن يقال عنهم (Şeyh Barut) بدلاً من (أبوجي)، دعوني أوضح لكم، كان حزب فرهاد حازماً للغاية، وكان أعضائه يعاقبون المخبرين والعملاء والخونة بالسلاح، إذ كان يتمّ تصفية كل من كان يثبت تورطّهم على الفور، لذلك أطلق أعضاء الـ (PDK[5]) القدامى هذا الاسم عليهم، ونحن أيضاً كنّا قد سمعنا بهم لكنَّنا لم نرَهم البتَّة، فقد كانوا يقولون أن الأبوجيّين يعملون تحت الأرض، وأحياناً كنت أقول مدفوعاً بسذاجتي، حسناً، ولكن ألا يخرجون إلى السطح البتّة؟ وعندما تعرّفت إلى فرهاد فهمت كلّ شيء آنذاك، وتعرفّت منه لأولّ مرّة على طريق خلاصنا".

كان المهجع قد بدأ باستعادة أجوائه القديمة، فمن جهة كان فرهاد ورفاقه يلعبون الشّطرنج، ومن جهة أخرى كان كشه وكولومبو عصمت الظّريفين يطلقان العنان لنكاتهم المبهجة، وبذلك كانت معنويّات المعتقلين ترتفع أكثر، والحدث الأبرز والأكثر إثارةً للبهجة والحماس هي مباراة الشّطرنج الّتي تجمع بين فرهاد وميرفان؛ لقد كان لعب الشطرنج ممنوعاً في السّجن ولكنّ طبيعة الإنسان تتمرّد دائماً على كلّ ما هو ممنوع، وبسبب عدم توفّر حجارة اللعبة، كان السّجناء يصنعونها من العجين، وقام ميرفان الشغّوف باللّعبة مثل فرهاد بصنع طقم أحجار كامل من فتات الخبز، لقد كان يتحتّم عليهم صنع الحجارة واللّعب بها وإخفائها في الوقت نفسه، فإن تمّ ضبط اللّعبة من قبل الحرّاس فسوف يصادرونها ويعاقبون كلّ من في المهجع بالضّرب المبرح، لكن رغم ذلك كانت

---

[5] PDK: حزب الديمقراطي الكردستاني

لعبة الشّطرنج تتحوّل إلى دوري ضمن المهجع، فالبعض كان يشجّع فرهاد والبعض الآخر يشجّع ميرفان، وكلّ طرف منهم يتمنّى فوز من يشجعّه، كما أنّ النّقاشات المتعة لم تكن تغيب عن أجواء اللّعبة أبداً، بالإضافة إلى النّكات اللّاذعة التي كان يطلقها فرهاد تجاه ميرفان ومشجّعيه والّتي تُضفي المرح على المهجع كله.

كانت نكات فرهاد تتزامن مع نقله لحجارته ضمن اللّعبة، فكان يضع الحجر ويقول: "دعنا نرى نقلتك التّالية يا ميرفان، إن بقيت تلعب بأسلوب الأباتشي هذا فسوف تخسر وزيرك، والقلعة والفيل أيضاً، لا يتوجّب عليك الدّفع بكلّ قوّاتك إلى المقدّمة، عليك أن تدرس نقلاتك بشكلٍ جيدٍ إن كنت تريد الفوز". كان ميرفان يفكّر في اللّعبة من جهة، ومن جهةٍ أخرى يحاول أن يفهم كلمات فرهاد تلك، إلّا أنّه لم يستطع حماية نفسه سواءً من تهكّمات فرهاد أو من هجماته المباغتة في اللعبة قائلاً: "ماذا عليّ أن أفعل، أنا ألعب بأسلوبٍ اندفاعي، وأهاجم بكامل جيشي". فردّ عليه فرهاد: "لا، لا يمكنك أن تتبنّى هذا الأسلوب في الحرب والقتال، فإن دخلت ساحة المعركة بهذا الاندفاع الطّائش فسوف يدمّرك العدو بسهولة، ها قد خسرت وزيرك الآن يا صاحب الأسلوب الاندفاعي!".

كان على ميرفان إمّا تقبّل خسارة الوزير والمضيّ قدماً في اللّعب أو تقبّل الهزيمة والانسحاب، لكنّه عنيد وسيواصل اللّعب، عندها قال: "سأقاوم حتى النهاية"، وكأنّه كان يعني بذلك أنه يقبل بالاستسلام مرة أخرى.

مباريات الشّطرنج كانت تنتهي دوماً على هذا النَّحو الحماسيّ، وكان أغلب السجناء يتقنون اللّعبة بشكل جيد، لكنّ الحياة مختلفة للغاية في مكانٍ آخر من السّجن، فلقد تم نقل معتقلي المهجع /37/ إلى المهجع /35/ وبات الآن كل المقاومين متواجدين في المهجع /35/، وكان إضراب الموت قد قطع شوطاً كبيراً آنذاك، فالمقاومون كانوا مستمرين في مواجهة كافة الصعاب وتذليلها، يبلّون شفاههم من قطرات الماء الساقطة عبر شقوق السقف، ويسدّون جوعهم بحبّة رز واحدة.

لقد حوّلهم بطش العدوّ إلى مجرّد هياكل عظميّة، فهم لم يقابلوا ذويَّهُم لأشهرٍ عديدةٍ، وكان حتّى القمل الّذي يعشّش في أجسادهم الهزيلة منزعجاً من شحّ الدّماء في عروقهم. وكلّما استمرّت مقاومتهم استمر معها تخفيف إدارة السّجن الضّغط على المستسلمين، سواء أكانوا من اولئك الّذين لم يقاوموا البتّة أو ممن قاوموا ومن ثمّ استسلموا، فالأمر سيّان بالنسبة لإدارة السجن لأنهم يعتبرون كلّ من ينفذ الأوامر مستسلماً وكل من يخالفها رافضاً لها.

كان أسعد أوكتاي يزيد الضّغط على المعتقلين المقاومين بشكلٍ دائمٍ، ولا يوفّر أيّ جهدٍ لسحقهم، لكنّه كان ينظر إلى المستسلمين على أنّهم صنفان، فصنفٌ منهم واجه تلك الوحشيّة بكلّ ما امتلك من قوّة إلّا أنّها لم تكن كافيةً للاستمرار في المقاومة، أمّا الصّنف الآخر فلم يقاوم البتّة، وكان المنتمون لهذا الصّنف الأخير دائمو التّرويج لنظريّة الاستسلام، وكأنهم من أسّسوا تلك النّظرية، وبجانب أنّهم لم يقاوموا يوماً، فقد كانوا يكيلون التّهم المختلفة للمقاومين، وحينما كانوا يُصفعون من قبل العدوّ، يصبّون جام غضبهم على المعتقلين

المقاومين قائلين: "لولا وجود هؤلاء الأبوجيّين لما وقعت أحداث 12 أيلول ولا كنّا تعرضنا للضّرب بهذا الشّكل، هؤلاء المغامرون المتخلّفون الجهلة هم سبب ما نعانيه، فهل تجوز المقاومة في مثل هذه الظروف؟ هذا انتحارٌ بلا شك، إن كانوا يريدون الانتحار فلا بأس هذا شأنهم؛ ولكنّنا نحن من يدفع ثمن أفعالهم المجنونة".

اقترب موعد البدء بقضيّة معتقلي حزب العمّال الكردستاني، وكان من المتوقّع وصول ملفّات الادّعاء في وقتٍ قريبٍ، وكانت أعداد المتّهمين كبيرةً، وبدون شك فالتحضيرات لمثل هذه القضايا تأخذ وقتاً طويلاً.

وصلت ملفّات الادّعاء أخيراً، فحملها الحارس متوجّهاً بها نحو المهجع /33/، فتح الشّباك الحديديّ الصّغير على الباب قائلاً: " لقد جلبت لكم الكتب، سارعوا لتحملوها عني لقد تألّمت ذراعاي من حملها؛ يالها من كتبٍ ثقيلةٍ، كيف ستقرؤونها؟" إلّا أنّ المعتقلين لم يعيروها أيّ اهتمام في البداية، ولكن عندما نظروا إلى ما هو مكتوب على أغلفتها (ملف قضّية حزب العمّال الكردستاني) أدركوا عندها أنّها ليست كتباً، بل هي ملفات الادّعاء الخاصة بهم. تلاقط السّجناء تلك الدعاوى الّتي تمّ رميها إلى داخل المهجع بسرعةٍ حتّى قبل أن تصل الأرض، وشرع كلّ منهم يقلّبها ويخلطها بفضولٍ بغية قراءة القسم المتعلّق به.

بعد أن أشبع المعتقلون فضولهم ولهفتهم عادوا إلى هدوئهم بعد أن طلب منهم عدنان ذلك، وباشر بعدها بقراءة افتتاحية القسم الأول من ملف الادّعاء

المحتوي على تأسيس الحزب وأهدافه وعمله واستراتيجيّة حلفاء الثّورة الكردستانيّة، فيما تضمَّنَ القسم الأخير ملابسات وأوضاع المعتقلين الشّخصيّة، ونظراً لأنّ المعلومات الّتي وردت في القسم الأول لم تكن معروفةً لدى المعتقلين، ولم تكن الملفّات تتضمّن أيّةَ مواد أخرى، لذلك جذبت تلك المعلومات انتباههم كثيراً وقرؤوها مرَّاتٍ عدَّة. كان بعض المعتقلين يتمعّنون ملفاتهم بذهول، يقرؤونها وكأنّها وثائق مهمّة وليست مجرد ملفات ادّعاء، بينما كان المعتقلون يعيشون فرحتهم تلك كانت الروزنامة تشير إلى تاريخ 5 نيسان من العام 1981.

بعد توزيع ملفات الادّعاء بفترةٍ فُتح باب المهجع، ومع إيعاز الحارس"انتباه" وقف جميع المعتقلين، دخل الضّابطُ المهجعَ قائلاً: "كيف حالكم يا شباب؟ ليأتي الجّميع إلى هنا ثمّة ما أخبركم به". اجتمع المعتقلون في قسم المطبخ منتظرين ماسيقوله لهم الضّابط بفضولٍ كبيرٍ، كان الضّابط يحمل في يده رزمةً من الأوراق ويسير جيئةً وذهاباً، وحين رأى أنّ الجّميع جاهزٌ للاستماع إليه وقف أمامهم قائلاً: "أنا أعلم أنه قد مضى على وجودكم هنا وقتٌ طويل، لقد وصلت ملفات الادّعاء الخاصّة بكم والّتي تمّ تجهيزها وإعطائها لكم بمساعدتي، وخلال وقتٍ قريبٍ سأقوم بإرسالكم إلى المحكمة، وإن عدتم إلى رشدكم ولم تستمعوا إلى ترّهات الآخرين، فستلتقون بذويّكم في أقرب وقتٍ، ثقوا بي وصدّقوني، أنا أعلم أن الكثير منكم غير مذنب، و أعلم أيضاً أنّكم خُدعتم؛ فالمذنبون ليسوا هنا، لا تقلقوا بشأنهم كثيراً، سأذيقهم الويل بكلّ أشكاله، ومن ثم استدار إلى الحارس: "يا بنيّ اجلب لي طاولةً"، أحضر الحارس الطاولة

فوضع الضّابط فوقها رزمة الأوراق الّتي كانت بين يديه قائلاً: "ستوقّعون على هذه الأوراق بناءً على استلامكم لملفّات الادّعاء"، باشر المعتقلون بالتّوقيع واحداً تلو الآخر، وحين همَّ الضّابط بالخروج استدرك قائلاً: "سأكرّر ما قلته لكم سابقاً، عودوا إلى رشدكم، ثمّة من ينتظركم في الخارج، ولا تصغوا إلى ما يقوله الآخرون، قولوا كلّ شيءٍ بوضوحٍ أمام المحكمة؛ سيكون هذا لصالحكم". ومن ثمَّ غادر المهجع.

عاد المعتقلون إلى أسرَّتهم، وانسحب كلّ منهم إلى سريره، منهم من كان يحدّق في ملف ادّعاءه، والبعض الآخر يفكّر بما قاله الضّابط. قضى المعتقلون ذلك اليوم ببعض التردّد والحزن، وفي الصّباح الباكر فتح الحارس باب المهجع قائلاً: "يا مسؤول المهجع، فليتجهز آمد للذهاب إلى المحكمة"، وبمجرّد سماع فرهاد لذلك هرع إلى آمد قائلاً له: "قم بنقل أخبارنا إلى معتقلي المهجع /35/ الذين سيتمّ إرسالهم إلى المحكمة واستفسر عن أحوالهم بالتّأكيد".

صاح الحارس: "فليأتي من سيذهب إلى المحكمة بسرعة"، خرج آمد من المهجع للذّهاب إلى المحكمة، أمّا الباقون قاموا بإدخال طعامهم إلى الدّاخل.

كان الجّميع يترقبّ عودة آمد بلهفةٍ، وعندما عاد بالفعل بعد فترة الغداء، التفّ رفاقه حوله، وبدأوا ينهالون عليه بالأسئلة، الواحدة تلو الأخرى دون أن يتيحوا له فرصةً لتناول طعامه، فقال آمد: "تمهّلوا قليلاً، طالما لن تسمحوا لي بالأكل، اعطوني سيجارة حتّى أروي لكم"، فأعطوه سيجارةً وبدأ بالحديث: "سأروي لكم كلّ شيءٍ بالتّفصيل، منذ لحظة خروجي من هنا وحتّى عودتي"،

مازحه أشرف: "إن لم تفعل ذلك سنستعيد منك السّيجارة". جلس آمد واجتمع رفاقه من حوله بلهفة وبدأ الحديث: "خرجت من باب المهجع وحين هممت بالنزول إلى الأسفل أوقفني الحارس وفتّشني، ومن ثمّ أخذني إلى المكان المخصّص للزّيارات، حيث تمّ جمع العديد من معتقلي المهاجع الأخرى، كان من بينهم الرّفيق المقاوم عادل، ثم قاموا بفصل المستسلمين عنهم لنجتمع مرّة أخرى في السّيارة, وقد تمّ تنبيهنا من الحراس مراراً بعدم وجوب التحدّث إلى عادل، ولكن سرعان ما انشغلوا بأحاديثهم و نسوا أمرنا، فانتهزت تلك الفرصة واقتربت من عادل، وسألت عن أحوالهم بشكل مفصّل، علمت منه أنّه في اليوم الّذي اقتادونا فيه إلى هذا المهجع قاموا بنقل مجموعة ألازغ إلى المهجع /34/ الّذي يقع قِبالة المستوصف، وكان من بينهم فقط شخصان من المقاومين، أمّا البقية استسلموا جميعاً، قاطعه أشرف: "هم لم يقاوموا في الأساس حتى نقول أنهم استسلموا"، وقال عدنان: "هذا ما حدث بالضّبط في المهجع /37/، لكنّنا نعلم أيضاً ما حدث في المهجع /35/".

ردّ آمد: "تمهّلوا يا رفاق فها أنا ذا أخبركم بما جرى، لم يقاوم اولئك الذين كانوا في المهجع /37/، ولكن بعض من كان في المهجع /35/ استمرّ في المقاومة، لكنّهم استسلموا أيضاً فيما بعد، وكما أسلفت فقد بقي منهم شخصٌ أو اثنان مستمرّين بالمقاومة". سأله فرهاد: "من هم اولئك الّذين لا يزالون يقاومون؟". ردَّ آمد: "أذكر اسم أحدهم فقط، حسبما أعتقد يدعى خالد، أما الآخر فلا يحضرني اسمه، باختصار هذا هو وضع مجموعة ألازغ، فبعد أن أتوا

بنا إلى هنا تمّ نقل المقاومين إلى الطّابق الأوّل وبدأوا بتعذيبهم والضّغط عليهم بشكلٍ وحشيٍّ".

قال نجمي: "لقد تخلّينا نحن الـ99 عن رفاقنا المقاومين، فماذا تنتظر إذاً من العدوّ سوى أن يقوم بتعذيبهم والتّنكيل بهم بأبشع الأساليب؛ الذّنب ذنبنا ونحن نتحمّل المسؤوليّة في ذلك". ردَّ فرهاد: " كفّوا عن هذه التّعليقات الجّانبيّة يا رفاق، فليكمل آمد كلامه وبعدها فلتقولوا ما تشاؤون". أكمل آمد: "لكن رغم كلّ صنوف التّعذيب والضّغط تلك لم يستسلم أحد منهم، وبسبب عدم مقدرة العدوّ على الحصول على مبتغاه فقد قاموا بنقلهم إلى المهجع /35/ في شهر آذار إذ تمّ تجميع كافّة المقاومين هناك، فالمجموعة الأولى التّي دخلت الإضراب عن الطّعام حتّى الموت دخلت يومها الخامس والثّلاثين، وبدأت مجموعةٌ أخرى بالإضراب عن الطّعام، أمّا بقيّة الرّفاق المتواجدين في الطّابق الرّابع فلا يزالون مستمرّين بالمقاومة رغم التّعذيب والجّوع والعطش وشتّى أنواع المصاعب، وحسبما قال عادل فإنّ عدد المقاومين يبلغ حوالي 150 شخصاً، وهذا العدد يتغيّر أحياناً، إذ أنّ بعض المستسلمين يعودون لصفوف المقاومة بين الفينة والأخرى، فمثلاً قام (الختيار) بالاستسلام مرّتين ليعود للانضمام مرّة أخرى إلى صفوف المقاومين. أمّا بالنّسبة للطّعام فإنّ إدارة السّجن لا تقوم بإرسال أيّ طعام للمقاومين، بينما يحصل المستسلمون المتواجدون في الطّابق الثّالث على كلّ شيءٍ، وحين يقومون بشراء حاجيّاتهم من البوفيه، يقوم بعضهم أحياناً بمدّ يد العون للمقاومين من خلال تمرير بعض السّجائر والطّعام لهم. باختصار هذا كلّ ما أتذكره فيما يخصّ رفاقنا المقاومين، أمّا بالنّسبة لنا، فهم يرغبون

بعودتنا مرّة أخرى إلى صفوفهم، كما تعلمون فقد أثّر تخلّينا عنهم على معنويّاتهم وهم ينتقدوننا بسبب ذلك"، قال محمود: "و هل كنت تظنّ أنّهم سيقلّدوننا النّياشين لما فعلناه؟!".

قال فرهاد لـ آمد: "هل كان ثمّة أحدٌ من الأحزاب السّياسية الأخرى هناك، أقصد من خارج حركتنا، وهل استطعت أن تتحدّث إليهم؟"، رد آمد: "نعم يا أخي، فلقد كان هناك بعض أعضاء (حزب طريق الحرّية) و الـ(DDKD)، و لقد حاولت التّحدّث إليهم إلّا أنّهم لم ينبسوا ببنت شفة، حتّى أنّ أحدهم قال: "الحديث ممنوعٌ هنا، فإن شعر الحرّاس بذلك لن نكون بأمان، فلا تتحدّث إليّ"، وهذا كلّ ما حصل اليوم باختصار ولا شيء من الممكن أن أضيفه".

سأل كشه: "لِم تمّ استدعائك إلى المحكمة؟"، ردّ آمد "لقد استدعاني المدّعي العام لأخذ إفادتي بخصوص حادثةٍ وقعت في مدينة آمد عام 1980".

بعد انتهاء آمد من حديثه تفرّق الجمع من حوله، وبينما كان يتناول عشاءه تجمّع المعتقلون في مجموعاتٍ وانهمكوا في نقاشاتٍ متعلّقةٍ بالمقاومة ومستقبلها، وضع المستسلمين ومصيرهم، والسّياسات المتّبعة من قبل إدارة السّجن والدّسائس الّتي تدّبرها ضدّ المقاومة. كان فرهاد يرغب في مناقشة هذه المواضيع مع رفاقه منذ فترة، و بعد أن أضاف آمد تلك المعلومات الّتي جاء بها من أروقة المحكمة اتّسعت دائرة النّقاش أكثر.

قال فرهاد: "المستوى الّذي وصلت إليه المقاومة اليوم، جعلتنا نعقد آمالاً كبيرةً على صيام الموت، في الحقيقة لاتزال المقاومة الحقيقيّة مستمرّةً, وهذه الأجواء المريحة الّتي تهيّئها لنا إدارة السّجن كمستسلمين ما هي إلا نتيجة المقاومة الشّرسة الّتي يبديها رفاقنا المقاومين وصيام الموت الّذي بدأوه، وموضوع استسلامنا الّذي تطرّق إليه كلٌّ من محمود ونجمي سابقاً، فهو بلا شك قد زاد الضّغط على رفاقنا المقاومين، لكنّ هذا الأمر ليس حاسماً، فقد يكون استسلامنا قد أضعف معنوياتهم بطريقةٍ أو بأخرى، ولكن السّياسات التي تتّبعها إدارة السّجن لها عميق الأثر عليهم، في الحقيقة، ومع حلول يوم 12 أيلول، وبغية توجيه ضرباتٍ قاسيةٍ للحركات الثّورية الكبيرة، قامت الإدارة بمحاولة وأد النّضال داخل نفوس المعتقلين، وعلاوةً على ذلك فإن اقتراب موعد فتح الدعاوي بحقّنا يزيد توضيح خطورة الموقف، لذلك فإنّ هذه الإدارة سوف تلجأ لاتّباع كافّة الطّرق والوسائل المختلفة ضدّ رفاقنا المقاومين بغية تحقيق الأهداف التي وضعتها نصب أعينها، ففي البداية سيعملون جاهدين على إجبارنا على الاستسلام الواحد تلو الآخر، والهدف الأساسيّ وراء ذلك هو محو شخصيّاتنا ووضعنا في موقف من الّذنب والخيانة أمام شعبنا وحزبنا".

ظنّ معتقلوا المهجع الـ/33/ أنّهم سوف يقضون يومهم ذاك كما بقيّة الأيّام، ولكن في ليلة الـ 13 من نيسان لعام 1981، وتحديداً عندما أشارت السّاعة إلى الثّانية عشر فتح الحارس باب المهجع ونادى بصوته الحاد: "اصمتوا جميعاً، واستمعوا إلى قرار استدعاء المحكمة، فمن سأتلو اسمه الآن، عليه أن

يصطفّ في هذا الجانب: فرهاد كورتاي، آمد، عدنان و علي، هؤلاء [6]مجموعة مدينة آمد، والآن سأقرأ أسماء مجموعة مدينة رها[7] (أورفا): ميرفان، أشرف وكشه... تليها مجموعة ماردين: هسبك، فرات وياسين، والمجموعة الأخيرة هي مجموعة مدينة سيرت ومدينة باتمان، انتبهوا أنا أحذّركم جميعاً من الاختلاط بالآخرين فأنتم جميعاً أبوجيّون" وغادرَ بعدها، ثم عاد مرّة أخرى ونادى عبر كوّة الباب: "فليرتدي الجّميع ثيابه ويتجهّز للرحيل، سأعود لاصطحابكم بعد قليل".

قال عدنان: "أخي فرهاد، هل من المعقول أن تتمّ محاكمتنا في مثل هذه السّاعة من الليّل؟ أعتقد أنّه ثمّة شيئاً آخر، من المؤكّد أنّهم سيأخذوننا إلى مكانٍ آخر"، هكذا عبّر عدنان عمّا يدور في خلده. قال فرهاد: "لا أعتقد ذلك، فهذه محاكمتنا الأولى، و بما أنّهم سيخرجوننا من هنا بهذا الشّكل الجماعيّ فهذا يعني بأنّ عملهم سيكون صعباً للغاية، إذ أن عدد المتّهمين في القضيّة الرئيسيّة يبلغ حوالي /500/ شخص، كما أن إدارة السّجن تفتقر نوعاً ما إلى الخبرة في هذا المجال، أعتقد أنّ هذا هو سبب جمعنا في مثل هذه السّاعة، وقد يكون السّبب هو ما قلتَه أنت". بعد قضية المحاكمة تلك، عمّ الاضّطراب في المهجع، فالبعض كانوا فرحين لأنّهم سوف يقابلون رفاقهم هناك وآخرون كانوا حزانى لأنّ ليس لديهم أصدقاء ليقابلوهم في المحكمة.

---

[6] مجموعة مدينة آمد/ دياربكر
[7] مدينة رها/ أورفا

استمرّ الاضّطراب العاطفيّ حتّى السّاعة الثّانية بعد منتصف اللّيل، لتتوجّه عيون الجّميع إلى باب المهجع عندما فُتح فجأةً ونادى الحارس: "انتباه!"، كان ضيفهم هو النّقيب أسعد أوكتاي، اصطف الجّميع في أماكنهم منتظرين، توجّه النقيب إليهم وخاطبهم بقسوةٍ ووضوحٍ شديدين: "اصغوا إليَّ جيداً، هذا هو المكان الّذي ستعودون إليه لاحقاً بعد المحاكمة، لذلك عليكم أن تُدلوا بإفاداتكم على هذا الأساس، وإن صدر منكم أيّ تصرّفٍ خاطئٍ فلن أكون مسؤولاً عن تبعاته!" قال ذلك بغضبٍ وغادر المهجع.

أمر الملازم الّذي كان يرافق أسعد أوكتاي الرقيبَ بإحضار المصوّر، وبعد ذلك بفترةٍ وجيزةٍ حضر المصوّر إلى المهجع، فنادى الملازم بصوتٍ عالٍ: "فلتتنحّى مجموعة آمد جانباً، وليصطفّ كلّ من أقرأ اسمه بجانب الحائط"، تمّ التقاط صور المصطفّين بجانب الحائط على عجالةٍ وبشكلٍ متسلسلٍ، وحوالي السّاعة الثّالثة فجراً تمّ إخراج المجموعات الّتي تُليت أسماؤها من ِقبل أحد موظفي السّجن؛ كانت مجموعة آمد أوّل مجموعةٍ تخرج من المهجع وتمّ أخذ باقي المجموعات بعدهم، كان العدد الإجمالي لمعتقلي المهجع 33 ممن كانوا سيحاكمون في قضية حزب العمال الكردستاني 42 شخصاً.

كان الممرّ الّذي يفصل بين المهاجع كبيراً للغاية، لدرجة أنّ المعتقلين كانوا يطلقون عليها اسم (مالطا)، وللوهلة الأولى لا يمكن للمرء أن ينظر إليه كممرٍّ فهو يشبه لحدٍّ بعيدٍ مخزناً ضخماً أو مقبرة.

كان يتمّ فصل السّجناء بحسب المهاجع ، ولكن بسبب اكتظاظ المكان، تمّ إعادة فرزهم على شكل مجموعاتٍ بناءً على ملفات ادّعاء كلّ مجموعةٍ، كان المعتقلون المستسلمون يتّبعون أوامر وتوجيهات الحرّاس، وكان الإيعاز الأوّل لهم بأن يديروا وجوههم باتّجاه الحائط وعدم الالتفات يمنةً أو يُسرة وعدم التحدّث إلى أحدٍ، فرغم تواجد مئات الأشخاص في ذلك المكان إلّا أنّ الصّمت المطبق كان سيّد المشهد، ولولا أصوات المعتقلين المقاومين لبقي ذلك الصّمت أزليّاً بلا نهاية.

كان المقاومون الّذين رفضوا الانصياع للأوامر وبعض المستسلمين من الّذين لا تزال نار المقاومة ملتهبةً داخل أفئدتهم متعلقين ببعضهم البعض كتعلّق الأمّ بطفلها، وتعلّق العاشق بمعشوقه، وفي لحظة لقائهم تبادلوا نظرات التّرحيب والودّ فيما بينهم وكان هذا كافياً لملأ نفوسهم بالفرحة والحماسة العارمة.

وُضعت الأصفاد في معاصم المعتقلين وتم إخضاعهم للتّفتيش النّهائيّ، كانت عيونهم متّجهة صوب مهجع المقاومة، المهجع /35/، فلقد قضى البعض منهم سنواتٍ طويلةٍ بصحبتهم والبعض رافقهم منذ الطفولة، لقد كان ُينظَر إليهم كأبطال أسطوريّين، لقد كان المعتقلون مستعدّين لدفع الغالي والنّفيس في سبيل التّحدث إلى اولئك المقاومين أو احتضانهم لمرة واحدة فقط. وبينما كانوا مسترسلين في عوالم خيالاتهم وأحلامهم، عادوا فجأةً إلى واقعهم الحقيقي مع سماع صوت الدّجال أسعد أوكتاي الّذي قال: "لقد حان موعد محاكمتكم، اذهبوا وارجعوا وتصرفوا حسب ما أوصيتكم به، سيرافقكم جنودنا إلى هناك، لا تقوموا بارتكاب أيّة أخطاء، لأنّكم في النّهاية ستعودون مرة أخرى إلى هذا

المكان". ومن ثمّ التفت إلى الملازم وأمره بجلب السّلاسل والذي بدوره طلب تجهيزها وجلبها من رقيب السّجن، وبعد أن تمّ تجميع المعتقلين الّذين ُصفّدَت معاصمهم مسبقاً على شكل مجموعاتٍ مؤلّفةٍ من عشرين شخصاً في صفٍّ واحدٍ، تمّ ربطهم بالسّلاسل، حيث ربطوا رأس السّلسلة الحديديّة بأصفاد المعتقل الواقف في مقدّمة الصّف مروراً بأصفاد بقيّة المعتقلين، لينتهي بها المطاف معلّقةً بأصفاد المعتقل الواقف في نهاية الصّف، وبعد الانتهاء من ذلك، قال النّقيب: "خذوا مجموعة آمد أوّلاً وضعوهم في العربة الأولى والثّانية، وضعوا مجموعة رها في العربة الثّالثة والرّابعة، ومجموعة ماردين في العربة الخامسة والسّادسة، وأخيراً ضعوا مجموعة سيرت–باطمان في السّيارة السّابعة والثّامنة".

كانت العربات المخصّصة لنقل السّجناء إلى المحكمة تشبه إلى درجةٍ كبيرة سيّارات نقل الموتى، فهي مغلقة بالكامل من كافّة جوانبها، وكلّ واحدةٍ منها تتّسع لخمس عشر شخاً فقط، إلا أنّهم قاموا بحشرها بما يزيد عن أربعين معتقلاً وحوالي عشرة حرّاس، كان ثمة في كل عربة شبّاكٌ صغيرٌ مخصّص للتّهوية بالكاد يتّسع لرأس شخص واحد، وكان الحرّاس يقفون أمامها دوماً، وحين يتمّ إغلاق باب العربة يغرق المعتقلون في عَرقهم شيئاً فشيئاً، ويصابون بالدّوار بسبب انعدام الهواء والماء، وكان الحرّاس يتأثّرون بتلك الأجواء الخانقة أيضاً، لذا كانوا يتهافتون على تلك الفتحة بغية التّنفس، والحرّاس عادةً كانوا ينبّهون المعتقلين منذ الصّباح الباكر بعدم التّكلّم داخل العربات، وكان ثمّة من يأخذ تلك التّهديدات على محمل الجدّ بينما آخرون لم يكترثوا لها البتّة، وبسبب انشغال الحرّاس بالحصول على الهواء، لم يكونوا يعيرون انتباهاً

للمعتقلين سواء تكلّموا أم لا، لذلك بدأ معظم المعتقلين بالتّحدثّ إلى بعضهم البعض، كانت تحضيرات الرّحلة إلى المحكمة قد بدأت منذ السّاعة الثّانية عشر بعد منتصف اللّيل، وكانت قد انطلقت عند السّادسة صباحاً، لقد كانت بمثابة رحلة نملةٍ عرجاءَ تسافر إلى بغداد.

عند الوصول إلى المحكمة أخيراً، وحينما قاموا بإخراج المعتقلين من العربات بدى المشهد وكأنّه في أحد أسواق النّخاسة، إذ كان يتم رمي المعتقلين المقيّدين بالسّلاسل والأصفاد من العربات كما تُرمى أكياس البطاطا، كانت ذقون البعض منهم ترتطم بشدّة بظهور من يقف في الصفّ أمامهم.

كان بناء المحكمة قد أُنشأ حديثاً، وتمّ تجهيز مقاعد خاصّة للسّجناء في قاعة المحكمة، النّوافذ كانت مسيّجةً ومقسّمةً بقضبان حديديّة كشبابيك السجن، و شكَّل الحرّاس والجّنود حائطاً بشريّاً أمام تلك النّوافذ، وقد تمّ فصل القسم المخصّص للمعتقلين بقضبان حديديّة إضافيّة، فيما هيئة المحكمة كانت تتربّع في الجّهة المقابلة، وعلى اليمين يقف المحامون، وفي الجّهة اليسرى ثمَّة بعض الصّحفيّين، أمّا الجزء الخلفيّ للقاعة فقد خُصِّصَ للحضور، وعلى مبعدة مترين من الصفّ الأوّل المخصّص للمعتقلين كان ثمّة ميكروفون قابل للإطالة والتقصير، وإلى جانبه مباشرةً ثمة طاولةٌ صغيرةٌ وضع عليها نموذج للتّعريف عن الهويّة.

بعد إيعاز أحد الملازمين العاملين في المحكمة تمّ نزع الأصفاد والسّلاسل عن المعتقلين، وبعدها أُمر المعتقلون بالاستماع إلى تفقّد الأسماء والإفصاح عن أسمائهم بصوتٍ عالٍ في حال تمّ ذكرها، وبعد الانتهاء من هذا الإجراء أجلسوا كلّ

خمسة أشخاص في أماكن تتّسع لثلاثة أشخاص على أقصى تقدير. جلس المعتقلون بحسب النّظام المعتمد في المحكمة، اليدان على الركبتين، القدمان متلاصقتان، الرّأس مرفوعةٌ والنّظرُ مثبَّتٌ نحو الأمام.

اصطفّ المعتقلون في صفّ واحد كحبّات المسبحة، وكانت آخر المجموعات الّتي تمّ جلبها إلى قاعة المحكمة هم من معتقلي المهجع /35/، وفي حين كان المعتقلون المستسلمون ينفذّون أوامر المحكمة بحذافيرها، كان المقاومون لا يمتثلون لها بل ويقاومونها، لذا كان الحرّاس يتدخّلون ويقومون بضربهم ضرباً مبرحاً. كانت هيئة المحكمة تحضر إلى القاعة في العاشرة صباحاً، وكان أعضاؤها يلبسون الزيّ والرّتب والأوسمة العسكريّة بغية فرض هيبتهم ومن ثمّ يجلسون في الأماكن المخصّصة لهم.

ملأت الحماسةُ قلوب المعتقلين الذين بقوا في المهاجع بمجرّد أن علموا بأنّ رفاقهم قد عادوا من المحكمة، فالتفّوا من حولهم قائلين: "لِمَ تأخّرتم؟ لقد شعرنا وكأننا أيتام في غيابكم"، قال نجمي: "توقفوا يا رفاق، دعوهم يقضوا حوائجهم ويتناولون طعامهم أوّلاً وبعدها نجتمع ليخبرونا عن التطوّرات الأخيرة"، عندها قام المعتقلون بتحضير الطّعام لرفاقهم العائدين من المحكمة، وبعد أن فرغوا من تناول طعامهم انتقلوا إلى القسم الآخر من المهجع.

استفسر محمود: "أخبرونا عن كلّ ما حدث منذ البداية، هل استطعتم التحدّث إلى معتقلي المهجع /35/؟ هل المقاومة مستمرة، وهل جلبوا أحداً من المضربين عن الطّعام حتّى الموت؟". قال فرهاد: "تمهّل قليلاً يا رفيقي، دعونا نأخذ

قسطاً من الراحة وندخّن سيجارتنا أوّلاً، وبعدها سنتحدّث". ومن ثم جلبوا لهم الشاي أيضاً.

قال أشرف: "بعد شرب هذا الشّاي سأحدّثكم لمّدة ساعةٍ كاملةٍ"، لكنّ صبر مَن بقوا في المهجع كان قد نفذ، قال فرهاد: "يا رفاق، لا يجوز أن نتكلّم بهذا الشّكل العشوائيّ، الأفضل أن نقوم بذلك بشكلٍ منتظم، فمثلاً بالنّسبة لك يا أشرف، وبما أنّك مستعدّ للتكلّم لمدّة ساعةٍ كاملةٍ، فلتخبرهم أنت عن الفترة الممتدّة منذ خروجنا من هنا وحتّى وصول أعضاء هيئة المحكمة، وبعد ذلك سأعطي حقّ الكلام في المواضيع الأخرى لرفاقٍ آخرين ممّن يودّون التّحدث؛ بذلك نُرضي فضول الجّميع في الحصول على المزيد من المعلومات والتّفاصيل".

باشر أشرف بالحديث بينما يشرب الشاي ويدخّن سيجارته، وكان الجميع يستمع إليه بلهفة وحماسة. قال فرهاد لكشه: " في غضون ذلك، ستقوم أنت بالإجابة عن الأسئلة التي سيطرحها الرفاق."، رد كشه: "والله لن أستطيع قول شيءٍ البتَّة، فأنا على وشك قضاء حاجتي في سروالي" عندها ضحك الجميع بأعلى أصواتهم.

عند الانتهاء من الحديث، أخذ أشرف نفَسَاً عميقاً قائلاً: "أين الشّاي؟ لقد شربتموه كلّه بينما كنت أتحدّث، ذلك لا يجوز أبداً، لو عَلِمتُ أنّكم ستفعلون هذا لما تكلّمت". قال ميرفان: "لقد شربتُ الشّاي كلّه عقاباً لك لأنّك لم تتحدّث بشكلٍ جيّدٍ". قال فرهاد: "حسناً يا ميرفان، لقد أوقعتَ نفسكَ في هذه الحفرة بقدميك، هيّا فلتخبرهم أنت عن الأحداث الّتي جرت أثناء المحاكمات، ولكن

من الآن فصاعداً يتوجّب على الرّفيق الّذي سيتحدَّث أن يخبرنا بأدقّ التّفاصيل عن كافّة محادثاته مع أيّ شخصٍ التقاه أثناء رحلة الذّهاب والعودة وخصوصاً إن كان قد تحدّث مع أحد مقاومي المهجع /35/".

كان ميرفان قد أوقع نفسه في مأزقٍ مرة أخرى لأنه عادة ما يشعر بالضيق ويتلون وجهه ويتصبب عرقاً في كافة أنحاء جسده عندما يتحدث أمام جمهور من الناس، صمت لبرهة في البداية، فقال فرهاد: "هيا يا ميرفان، كل الرفاق بانتظارك".

قال ميرفان: "حسناً، سأتحدث، ولكن امنحوني بعض الوقت". بعدها باشر بالحديث: "أنا لن أخبركم عن الأحداث الّتي دارت في المحكمة، لكنّني سأخبركم بتفاصيل محادثاتي مع الآخرين، لذا فليتولّى شخصٌ آخر أمر الحديث عن مجريات المحاكمات"، قال ذلك واستهلّ حديثه: "عندما انطلقنا من السّجن، جلست إلى جوار الرّفيق (رفيق)، من المهجع /35/. في البداية لم أتحدّث إليه، تبادلنا التحيّة فحسب، كنت واثقاً بأنّه سيتحدّث إليّ، وأخيراً سألني قائلاً: "كيف حالك؟"، فقلت له: "حالتنا كما تراها بعينيك"، ثمّ بدأ يخبرني عن أوضاعهم: "المقاومة مستمرّة، فبعد أن شرعت المجموعة الأولى بإضراب صيام الموت انضمت إليها المجموعة الثّانية أيضاً، ولقد قرّرنا عدم التّجاوب مع أسئلة التّحقق من الهويّات والحضور داخل أروقة المحكمة." وأردف أيضاً: "النّقيب يتحدّث بشكلٍ مستمرٍّ إلى المقاومين المضربين، وعدد المقاومين يبلغ /150/ شخصاً". بعد ذلك سأل عن أحوالنا، وحينما أخبرني بأن الرّفاق حزينون للغاية بسبب خروجنا من صفوف المقاومة، وأنّهم لم يفقدوا

أملهم فينا بعد، أخبرته عن أوضاعنا في المهجع. هذا كلّ ما بحوزتي لأقوله لكم يا رفاق".

طلب فرهاد من آمد أن يتحدّث بإيجازٍ عن التطوّرات الّتي حدثت في المحكمة. فقال آمد: "على ما أظنّ، حضرت هيئة المحكمة إلى القاعة في السّاعة العاشرة صباحاً، وكان ثمّة حشدٌ كبيرٌ من النّاس حاضرين أيضاً، كان بإمكاني التعرّف على العديد منهم، ولكن لم تُسنح لي فرصة الالتفات إلى الخلف، وكان مصوّروا القنوات التّلفزيونيّة قد حضروا أيضاً، ويلتقطون لنا صوراً بين الفينة والأخرى، كان الصحفيون موجودين على يسارنا، ومعظمهم من الأجانب، أمّا على يميننا فقد كان يتواجد مجموعةٌ من المحامين. بعد أن افتتحت هيئة المحكمة الجّلسة بدأوا بتدقيق الهويّات الشّخصية حسب التّسلسل الأبجديّ". كان ذلك الإجراء يتم بسلاسة إلى أن وصل الدّور إلى فيدات آلاتاش، من المهجع /35/ الذّي رفض الإفصاح عن معلومات هويّته قائلاً: "هناك اضّطهادٌ وتعذيبٌ ممنهج داخل السّجن، ورفاقنا مُضربون عن الطّعام حتى يتمّ رفع هذه الإجراءات"، إلّا أنّ قاضي الجّلسة، أمر الله كايا قال:" هذا ليس من شأننا، تحدّثوا إلى إدارة السّجن بهذا الخصوص" وعندما أراد فيدات أن يكمل كلامه منعه القاضي قائلاً: "أَجلِسوه في مكانه". أمّا نحن المستسلمون فقد استمرّينا بتثبيت معلومات بطاقاتنا الشّخصية، في حين رفض جميع المقاومين فعل ذلك. باختصار هذا ما حدث في المحكمة".

كانت إجراءات نقل المعتقلين إلى المحكمة تُتّبع بنفس الطّريقة في الأيّام التي تَلَت، حيث كان يتمّ تجهيز المعتقلين في كلّ صباحٍ بغية نقلهم إلى المحكمة،

وأثناء المحاكمات وبالتّحديد في جلسات الاستماع الأوّلية، رفض المعتقلون المقاومون إجراء تعريف البطاقات الشّخصية رغم الضّرب الّذي تعرّضوا له، وكانت المحكمة وإدارة السجن في حيرةٍ من أمرهما حيال اولئك المقاومين، فلقد كانت قاعة المحكمة مكتظّةً بالسجناء والمعتقلين ولابدّ من إيجاد حل لتلك المعضلة، وفي اليوم الثالث لتأكيد تعريف البطاقات الشّخصية أتوا بالمقاومين المضربين عن الطّعام أيضاً إلى قاعة المحكمة.

بدا المعتقلون المضربون عن الطعام حتّى الموت وكأنّهم خرجوا لتوهم من قبورهم حينما جاؤوا بهم إلى قاعة المحكمة، استند خيري والمعتقلون الآخرون إلى القضبان الحديديّة أثناء تعريف المحكمة لبطاقاتهم، وقبل أن يتمّ فحص هويّة خيري قال لهم بإيجاز: "نحن مجموعةٌ من معتقلي حزب العمّال الكردستاني، كنّا قد دخلنا في إضراب صيام الموت منذ بداية شهر نيسان تنديداً بالتّعذيب والقمع الوحشيّ الّذي نتعرض له في السّجن، وبناءً على الوعود الّتي قُطعت لنا أنهينا ذلك الإضراب و ألغينا قرارنا بعدم الكشف عن هوياتنا؟"

استمرت المحاكمات على هذا الشّكل، و بسبب الأعداد الكبيرة للأشخاص المدّعى عليهم، فلقد أدخلوا المعتقلين إلى قاعة المحكمة على شكل مجموعاتٍ، وعند قراءة ملف الادّعاء جلبوا بمجموعة آمد أوّلاً، وكانت هذه المجموعة تتضّمن كل من خيري، مظلوم والكثير من الرّفاق القادة، وأكثر ما كان يثير فضول معتقلي المهجع /33/ هم المعتقلون في مهجع مظلوم ورفاقه، إذ كانوا يتعرّفون عن طريقهم عمّا يحدث في المحاكمات وفي السّجن أيضاً.

في أحد الأيام، وبينما كان الحرّاس يفكُّون قيود المعتقلين العائدين من المحكمة إلى السّجن ويوزعونهم على المهاجع بعد قراءة أسمائهم، تبيّن أن مجموعة آمد كانت من بين العائدين أيضاً، فرح المعتقلون المتبقّون في المهجع بعودتهم كثيراً، ولمّا دخل رفاقهم إلى المهجع صاح أشرف بصوتٍ عالٍ: "لماذا تأخّرتم هكذا؟ لقد قَتَلَنا الانتظار". فقال فرهاد: "لا تستعجل، سوف نخبركم بكلّ شيءٍ، فقط امنحونا بعض الوقت لنستريح قليلاً". أدرك الجميع حينها أنّ مزاج فرهاد كان معكّراً، فقال محمود: "يا أخي، من الواضح أنّ وضعك ليس على ما يرام، يتوجّب علينا الاعتياد على سماع الأخبار السّيئة بقدر ما نريد أن نسمع الأخبار المفرحة". فقال فرهاد: "لا، ليس هناك شيءٌ خطير، ولكنّ الشّخص الذي أعطى معلوماتٍ لرفاقنا في ذلك اليوم كان مخطئاً، فلقد تمّ إنهاء الإضراب عن الطّعام حتّى الموت بناءً على وعدٍ من النّقيب؛ أي أنّه تمّ إنهاء الإضراب نتيجة اتّفاقٍ معّينٍ، فعندما اشتدّت وتيرة التّعذيب على مجموعة آمد استسلم جميعهم باستثناء أربعة رفاقٍ، هم كلٌّ من مظلوم، عاكف، سادات وآفارش".

قال نجمي: "هل يعني ذلك أنّهم قد خدعوا رفاقنا؟" ردَّ فرهاد: "يمكننا قول ذلك"، قال أشرف: "لا أعتقد ذلك، فمن المؤكّد أنّهم يفكّرون بشيءٍ ما". قال آمد: "لا أعلم، ولكنّ الوعد الذي قطعته إدارة السّجن لم يتمّ تطبيقه على أرض الواقع، انظروا، فهم يقدّمون الوعود من جهةٍ، ويستمرّون بتعذيب مجموعة آمد من جهةٍ أخرى". قال نجمي: "إن كان ما قاله أشرف صحيحاً لما استسلمت مجموعة آمد، أي أنّ الرّفاق القادرين على المقاومة لايزالون يقاومون، أمّا من

استسلم فقد فعل ذلك نتيجة التّعذيب والقمع الوحشيّ، ليسَ ثمَّة تفسيرٌ آخر حسبَ رأيي".

قال آمد: "ما يقوله نجمي صحيح، الآن سأخبركم بما أعرفه عن استسلام مجموعة آمد، ففي محاكمة يوم أمس أراد الرّفاق أن يرفعوا عريضةً بخصوص التّعذيب الوحشيّ والضّغوط الّتي يتعرّضون لها في السّجن إلى الرّأي العام، ووقّع تلك العريضة كلٌّ من الرّفيق مظلوم وحوالي عشرة رفاقٍ آخرين، وقدّموها إلى هيئة المحكمة، وبعد عودتهم إلى السجن تمّ نقل أفراد مجموعة آمد إلى المهجع /37/ ومُورِسَ بحقّهم أبشع أنواع التّنكيل والتّرهيب؛ وعلى إثر ذلك استسلم جميع أفراد المجموعة باستثناء الرّفاق الأربعة الّذين تم ذكرهم آنفاً".

قال فرهاد: "أعتقد أنّكم لم تفهموا جيّداً سياسة إدارة السّجن بعد، فهي تعتبر أن اتّباع كلّ الطّرق والوسائل مباحةٌ ومشروعةٌ بغية الوصول إلى مبتغاها، فإن لم تكن لديك المقدرة على تفادي تلك الوعود فإنّك ستقع في شرّ كذبها وزيفها، وحال مجموعة آمد لا يزال ماثلاً أمام أعيننا، تمعّنوا جيّداً في مدى غرابة الأمر، فالعدوّ يقطع لنا الوعود السّخية من جهة، ومن جهةٍ أخرى يريد أن يقطّعنا إلى أشلاء ومن ثم ابتلاعنا، وهو لن يتراجع عن هذا الهدف أبداً، ففي مثل هذا المكان لا يمكننا الوثوق أبداً بأيّة وعود، إنَّ خطأنا الرئيسيّ الّذي ارتكبناه هو عدم مشاركتنا لاحتجاج رفاقنا في رفض تقديم البطاقات الشّخصية وتثبيتها، على الأقل ما كان يتوجّب علينا ترك رفاقنا لوحدهم حين أبدوا موقفهم ذاك في المحكمة؛ لكنّنا فعلنا ذلك". تسبّبت كلمات فرهاد تلك في إحباط جميع من كان في المهجع لحدٍّ ما، فعلى الرّغم من أنّهم كانوا قد

استسلموا بشكلٍ فعليّ للعدوّ إلّا أنّ قلوبهم كانت لا تزال تنبض لأجل المقاومة والمقاومين، وحينما كانت تَرِد أخبارٌ سيّئةٌ عن المقاومة يشعرون بالحزن والسّوء، فهم ومُذ وطأت أقدامهم أرض المهجع الـ33 قرّروا فعل كلّ ما بوسعهم للعودة إلى صفوف المقاومة مرّةً أخرى، وبدون شك فلقد كانوا مدركين تماماً صعوبة ما هم مُقدمون عليه، ولكن، أوَلَم تكن جلُّ آمالهم معقودةً على الإضراب عن الطّعام حتّى الموت؟ لكن في المحصّلة، حتّى ذلك الإضراب لم ينهِ التّعذيبَ والتّرهيب، تلك الوسيلة التي انعقدت عليها آمالهم باتت بلا أيِّ تأثير، وبات المعتقلون ينظرون إلى موضوع الإضراب بعين الرّيبة. عندما أحسّ فرهاد بأنّ اليأس بدأ يتسلّل بين رفاقه رأى أنّه من الضّروريّ التحدّث إليهم.

قال فرهاد: "يا رفاق، أتفّهم حالتكم جيّداً وأشاطركم حزنكم هذا، ولكن يتوجّب علينا أن نجيد التعامل مع أوضاعٍ من هذا النوع، فطريق المقاومة طويلٌ وشاقٌّ، لذلك فإن التّعثّر والنّهوض، الانتكاس والانتصار هي أمورٌ لا بدّ من مواجهتها، علينا ألّا ننسى أن اولئك الذّين ننظر إليهم كأبطال، هم أيضاً بشرٌ مثلنا تماماً، إنّ رفاقنا المقاومون أيضاً يمتلكون نقاط ضعفٍ ومن الطبيعي أن يخطئوا، إن بقينا ننظر إليهم كأشخاص خارقين، فقد يخيب أملنا ونكون مخطئين، رغم كلّ شيءٍ فإنّ مقاومتنا مستمرّة، وهذا هو أمرٌ أكثر أهميّةً، أن تبقى راية المقاومة مرفرفةً، بغضّ النّظر عمّن يرفعها، و هي ترفرف الآن فوق أسوار هذا السّجن. أمّا بالنّسبة لموضوع الإضراب، فصحيح أنّنا جميعاً كنّا قد عقدنا عليه الآمال، ولكن رغم توقفه ورغم أنّه لم يتم الإيفاء بالوعود التي قُطعت بغية إيقافه، إلّا أنّ كلّ ذلك لا يقلّل من أهميّته إطلاقاً، دعونا لا ننسى بأنّ

الإضراب حتّى الموت كان تجربةً كبيرةً بالنّسبة إلينا جميعاً، ومن المؤكّد أنّنا تعلّمنا من تلك التجربة دروساً مهمّةً ستؤتي ثمارها في القريب العاجل."

كانت هيئة المحكمة بالتّعاون مع جلّاديها يعملون بسرعةٍ وكأنّ ثمّة من يطاردهم، و كأنّهم يقولون فيما بينهم:" هيّا بسرعة، فلننتهي من أمر هؤلاء قبل فوات الأوان"، كانوا في عجلةٍ من أمرهم وكأنّهم يحاولون إطفاء حريقٍ مستعرٍ شبّ في ممتلكاتهم؛ يهاجمون المعتقلين من كافة الجّهات بوحشيّةٍ كأنّهم في غزوةٍ للنّهب والسّلب متّبعين كافّة الوسائل المتاحة، ومارسوا عليهم مختلف أساليب التّضليل والمراوغة، لكنّ المعتقلين قاوموا الجّوع والعطش والتّعذيب بكلّ حزمٍ وإيمانٍ، ورغم أنّهم كانوا أشبه بهياكل عظمية إلّا أنَّهم كانوا شامخين كالرماح.

جاء دور المحاكمة هذه المرّة على مجموعة رها (أورفا)، وقد تزامنت محاكمتهم مع جلسات تعذيبهم، البلاء الواقع عليهم كان كبيراً، إذ اعتبر العدوُّ المقاومينَ لقمةً كبيرةً لا بدّ من تفتيتها كي يسهل ابتلاعها، وبعد أشهرٍ من المقاومة خارت قواهم ولم يعد بمقدورهم الاستمرار، وبدأوا يستسلمون في جماعاتٍ بعد أن كانت حالات فردية، وبذلك استسلمت مجموعة رها أيضاً إلى جانب مجموعة آمد.

يعتبر شهر أيّار أحد أجمل أشهر الرّبيع، ففيه تكتسي الأرياف والحقول بحلّةٍ خضراء باهية، وتتفتّح فيه الأزهار بكلّ ألوانها وأشكالها الزّاهية، وتعزف العصافير فيه أروع سيمفونياتها وكأنّها تحتفل بقدوم مهرجانها السّنوي؛ كلّ

تلك الألوان والأصوات تبشّر بقدوم الرّبيع، ولكن إن كنت معتقلاً في سجن آمد وقابعاً في إحدى زنازينها فلن تشعر بقدومه أبداً، ولن تسمع تلك الأغاني الّتي تطلقها العصافير في كلّ مكان؛ فبدل أن تحطّ على رأسك الفراشات، تهوي مكانها الهراوات والعصيّ، فتسيل دماؤك وكأنّها ورودٌ حمراءَ قانية.

نفَّذ العدو هجومه الأخير، فاستسلم على إثره معتقلوا الطّابق الرّابع أيضاً، وبذلك تكون المقاومة قد انتهت، ولم تعد راياتها ترفرف فوق أسوار السجن، فحلّ بذلك نعيق البوم محلّ زقزقة العصافير، أمّا دجال سجن آمد، صاحب المواقف الأكثر ساديةً وتطرّفاً، أسعد أوكتاي، كان وكأنّ لسان حاله يقول: "اليوم، ها هنا لا تستطيع حتّى ذبابةٌ واحدةٌ أن تقاوم في حضوري".

كان الدّجال يُعدُّ العُدّة لإلزام بعض المستسلمين على أداء القسَم تحت راية الهلال والنّجمة، أي تحت العلم التّركي، وكان ذلك سيكون بمثابة تصريحٍ رسميٍّ بالاستسلام، لم يفكّر المقاومون يوماً في الاستسلام طواعيةً، فرغم انتهاء المقاومة بشكلها العمليّ إلّا أنّ نارها لا تزال تتّقد متوهِّجَةً داخل وجدانهم، لكن في الواقع كان قد تمّ خلق بيئةٍ للاستسلام داخل أسوار السّجن وتمّ فرض ذلك على الجّميع، فيوم الـ 26 من أيّار لم يكن تاريخاً ملعوناً بسبب استسلام المعتقلين فحسب، بل لأنّه أرّخ أيضاً لأولى خطوات انكسارهم وانهزامهم.

فُتِحَ باب المهجع ليدخل الملازم المسؤول عن المبنى برفقة الرّقباء والحرّاس وهمَّ في مخاطبة المعتقلين: "من الآن فصاعداً سوف تتلقّون تدريباتٍ منتظمةٍ أثناء فترات التنفّس، وستردّدون النّشيد الوطنيّ التّركي حسب إيعاز الجّندي المُشرف

عليكم، ويتوجّب عليكم أن تنفّذوا المشية العسكريّة أثناء الزّيارات في الذّهاب والإياب، وكلَّما تمَّ فتح كوَّة باب المهجع، ونُوديَ على اسم معتقلٍ ما، يتوجّب عليه أن يتقدّم ويعطي تقريراً مفصّلاً لما سيُسأل عنه، إضافةً إلى ذلك يتوجّب عليكم القيام بنوبات الحراسةٍ بشكلٍ منتظمٍ، علاوةً على أنَّكم مجبرون جميعاً على حفظ نشيد الاستقلال، وكلّ من لا يحفظه في وقتٍ قصيرٍ سيُعاقب عقاباً شديداً. هل فهمتم ما قلته لكم؟". لم ينبَس المعتقلون ببنت شفة. ومن ثم خرج الملازم ومَن معه من المهجع.

قال أشرف: "لقد كان استمرار المقاومة هو السّبب الوحيد لعدم ضغط إدارة السّجن علينا حتَّى اليوم، وكان هذا جليّاً بالفعل". أضاف ميرفان: "لم يمضِ بعدُ على انتهاء المقاومة سوى أسبوع أو عشرة أيام كحدٍّ أقصى، من الواضح أنّهم قد خطّطوا لكلّ شيءٍ مسبقاً".

قال فرهاد: "يا رفاق، لقد قلنا ذلك منذ البداية، في حال انتهاء المقاومة سوف يتوجّهون إلينا، وسيفرضون علينا بعض إجراءاتهم، وكنّا نتوقع أن يقوموا بفرض أشياءَ أكثر من الّتي طلبوها منّا اليوم، ففي اليوم الذي عاد فيه ميرفان من المحكمة، وأبلغَنا بانتهاء المقاومة، لاحظنا هذا التغيّر المفاجئ في سلوك العدو، لقد كنا متّفقين على أنّهم لن يضغطوا علينا لطالما بقيت المقاومة مستمرّةً. وكان لا بدّ لنا أن نهيّأ أنفسنا ونعمل ونتحضّر للظّروف الصّعبة التي ستمرّ علينا، وها قد بدأت المرحلة الصّعبة بالفعل، ولكن بالرّغم من انتهاء المقاومة الفعليّة هنا ودخول الجّميع في بيئة وجوّ الاستسلام، إلا أنَّه ثمّة جبهةٌ مختلفةٌ للمقاومة قد فُتِحَت بالفعل، ألا وهي جبهة المقاومة الفكريّة، فالمستسلمون

الفعليّون حين يتوجّهون إلى قاعة المحكمة لايقولون بأنّهم امتهنوا العمل الثّوري، أو أنّهم أعضاءٌ في حزب العمّال الكردستاني، بل ويتنكرون لكلّ فعلٍ أو تفكيرٍ ثوريٍّ حتّى في مرحلة التّحقيقات الأوّليّة أو أثناء تعريف بطاقاتهم الشّخصية، ولكن، هل كان هذا موقف رفاقنا؟ نحن مستسلمون وهذه حقيقة، لكنّنا مستمرون في الدفاع عن حزبنا أمام هيئة المحكمة، ومثال ذلك رفيقنا كشه هذا الذي قال أمام أعضاء المحكمة بأنّه من مؤيّدي حزب العمّال الكردستاني، وهذا ما فعله ميرفان، لذا علينا بدايةً أن نفهم بيئة الاستسلام الّتي نعيش أجواءها هنا، والّتي باتت أمراً واقعاً الآن، ولكنّنا مسترمون في المقاومة فكراً وعقيدة. ما أريد قوله هنا، أنّه يتوجب علينا الامتثال لطلبات العدو لحدٍّ ما داخل أسوار السّجن، ولكن حين نخطو خارج جدرانه علينا أن نباشر بنضالنا وتمسّكنا بقيمنا الثّورية، العالم لم يشهد نضالاً على هذا النَّحو من قبل، و هذا ما يميّزنا عن غيرنا".

كان كشه ذو الـ 38–39 عاماً، شابّاً قرويّاً ظريفاً، وكان أمّياً، وبالرّغم من أنّه كان يتعلَّم القراءة و الكتابة في السّجن، إلّا أنّه لم يكن يرغب بالتّعلم. كان كشه أباً لخمسة أطفال، ومتعلّقا بالثّوار لحدٍّ كبيرٍ، ويعتبر أعضاء الحزب أفراد عائلته، ويحبّ كلّ واحدٍ منهم كحبّه لأخيه، ولم يشعر بالحاجة يوماً لإخفاء حبّه حتّى في ظروف الاستسلام هذه، وتجلّى ذلك واضحاً من خلال موقفه الأخير أمام المحكمة، فعلى إثر ذلك الموقف بات كلّ من في المهجع ينظر إليه بمحبّةٍ واحترامٍ كبيرين. رفاقه في المهجع كانوا يمازحونه طالبين منه إعادة سرد ما حدث معه أخيراً أثناء محاكمته، فكان يقول: "كم مرّةً عليّ أن أكرّر ما

قلته، انفضّوا من حولي، اذهبوا إلى كاتبي (كيبار) ليخبركم بما حدث."، قال محمود: "نحن نعرف كاتبك، لكن فلتخبرنا أنت". فردَّ كشه: "بعد أن تمّ الاستماع لإفادة صديقي كيبار، نادى القاضي أمر الله عليّ وسألني: "لقد سرقت السّكر والعدس، فماذا تقول في ذلك؟"، قلت له لا أعرف شيئاً عن السّكر، لكنّنا لم نسرق العدس بل استولينا عليه. ثم سألني: "يقولون بأنك عضوٌ في حزب العمّال الكردستاني، فما قولك؟"، في البداية صمتتُ لبرهةٍ وفكّرت بما يجب عليّ قوله، فتساءلت في قرارة نفسي أيّهما أكثر وطأةٍ يا تُرى، عضوٌ من أعضاء الحزب أم أنّني مؤيدٌ لهم؟ وفجأةً تذكّرت رفيقي كيبار فأجبت بأنّني مؤيّد، لكن بعد أن قلت ذلك لم أستطع التملّص من أسئلته التّالية حيث سألني: "لِم تحبّهم، ولِم تؤيّدهم؟" لقد كنت خائفاً من التّفوه بكلامٍ خاطئٍ أمامه، فقرّرت أن أجيب بأنّني مؤيّد لهم لأنّني أحبّهم، وفي الحقيقة لو سألني سؤالاً آخر لكنت ناديت على كمال بير وقلت للقاضي هذا هو سكرتيري فلتسأله ما تريد، لكن لحسن حظّي أنهم تركوني لأذهب وأجلس في مكاني".

الفصل الثالث

قال لينين ذات مرة: "سنوات الهزيمة هي أصعب السنوات". فكل هزيمةٍ لا بد أن تترك بعض الآثار السلبية، الهزيمة في سجن آمد خلقت نوعاً من المساواة بين صفوف المعتقلين؛ لكنها كانت مساواةً سيئةً للغاية فلقد حوَّلت القادة إلى مجرد أشخاصٍ وطنيين، والمؤيدين لمجرد أشخاص عاديين، وهنا مكمن الخطورة، لقد كان الوضع يشبه التواجد على سفينةٍ تدور بلا نهايةٍ في قلب دوامةٍ كبرى، وباتت هذه الدوامة واقعاً جليًّاً أمام قادة الحركة، مما شكَّل ضربةً موجعةً وسبباً للتشتت في التفاصيل كلها، مما دفع الكوادر القيادية إلى محاولة تحويل قاعة المحاكمات إلى منصةٍ لصوت الثورة.

غدا البحث عن الحب والاحترام بين المعتقلين ضرباً من ضروب الخيال، فمشاعر الصداقة والود كانت ككتلة جليدٍ موضوعةٍ تحت أشعة الشمس وشرعت تذوب شيئاً فشيئاً ويوماً إثر الآخر، وانقلبت الحياة الثورية والبيئة الكومينالية رأساً على عقب، فلقد وجَّه لهم العدو ضربةً قاسيةً أثَّرت حتى على أعتى المعتقلين، وبدأت الشخصية البرجوازية التي بقيت لسنواتٍ تحت السيطرة، والإدارة الثورية تطفو على السطح من جديد، تلك الظروف ومسبباتها كانت تظهر دائماً عندما تتعرَّض الحركة للانتكاس أو التدهور، ولكن رغم كل ما سبق بقيت مجموعةٌ من المقاومين مصرِّين على المضيِّ قُدُماً في ساحة النضال الفكري، إذ كانوا يرون في ذلك سبيلاً للتنفيس عمَّا كان يدور في أذهانهم داخل أروقة المحاكمات على أقل تقدير، وهذا بدوره كان يشجع اولئك الذين ما زالت نار الثورة متقدةً داخل أفئدتهم على الحفاظ على تلك الشعلة وإبقائها حاضرة رغم

ضعفها وخُفوتها، لقد كان من بينهم من هو مستعدٌّ لحمل نار الثورة بين كفيه بغية عدم خبوها أو زوالها.

كان معتقلوا المهجع /33/ يترقبون سماع أخبار رفاقهم بلهفةٍ شديدةٍ كمثل زهور عباد الشمس التي تتوق لاحتضان أشعة الشمس لحظة شروقها، وكان البعض منهم مستمراً بالقيام ببعض النشاطات رغم الأجواء السائدة، وفرهاد كان من بين هؤلاء.

قال فرهاد لرفاقه ذات يوم: "يا رفاق لدي اقتراح. بما أن بنية مهجعنا مهيأة، فإننا نستطيع القيام بنشاطاتٍ تعليميةٍ إلى جانب حياتنا القائمة على أساس الكومين، فما رأيكم؟ ماذا ننتظر؟".

قال عدنان: "وهل تعتقد أن القيام بهذا العمل في ظل هذه الظروف أمرٌ صائب؟ ماذا سنفعل لو دخل علينا الحراس على حين غرّةٍ؟" قال نجمي: "أعتقد أن اقتراح الرفيق فرهاد صائب، ولكن ما ينقصنا هنا هي الكرّاسات". قال فرهاد: "ينبغي على كل رفيقٍ يمتلك المعرفة أن يشاركها مع رفاقه الآخرين بشكلٍ أو بآخر، بالإضافة إلى مناقشة القضايا اليومية". قال أشرف: "يا أخي، لدي اقتراح في هذا الصدد، فليتم تكليف بعض الرفاق لتعليم وتدريب أفراد مجموعات الكومين، ويتوجَّب أن تحدد أنت لهم أولاً الأُطر العامة للمواضيع بغية مناقشتها مع المجموعات التي سيتم تحديدها". قال فرهاد: "في السابق كنا نتبنَّى مقاربةً خاطئة فيما يخص موضوع التعليم والتدريب، يجب أن يشتمل التعليم على مواقف الحياة اليومية ويمتدَّ لباقي الأفكار النظرية الأكثر

شمولاً، بناءً على ذلك فإن التعليم والتدريب الذي سنقدمه لرفاقنا سيكون مبنياً على القضايا والشؤون اليومية، ومثل هذا النوع من التعليم لا يعتمد بالضرورة على توفر الكرّاسات، كما أرى أن اقتراح أشرف في هذا الخصوص بمكانه، إذ أنه من الأفضل تشكيل لجنة تشرف على هذا العمل لأهميته".

وافق معظم المعتقلين على اقتراح فرهاد. وبعد مدة تم تحديد شخصين من قبل فرهاد ليشرفا على التعليم والتدريب، عدنان وآلِك, و خلال وقت قصير باشرا القيام بأعمالهما التي تضمنت شرح مفاهيم الاستسلام، الخيانة، والمقاومة ومفاهيم المواقف الثورية في المحاكم, إضافةً إلى شرح سياسات إدارة السجن ومناقشة الأحداث العالمية الهامة.

في ذلك اليوم صرخ الحارس بصوتٍ عالٍ: "يا مسؤول المهجع، تعال إلى هنا بسرعة! هل تم تنفيذ الأوامر الصباحية؟" رد المسؤول: "إننا نحاول تنفيذها يا سيدي!".

قال الحارس: "يا ابن الزانية، ماذا تعني بأنكم تحاولون تنفيذها، ألا تتذكرون ما قلته لكم، لقد أمهلتكم ساعةً كاملةً لتنفيذ الأوامر". فردَّ المسؤول: "ماذا يمكنني أن أفعل يا سيدي، فمعظم هؤلاء قرويُّون، ولا يُجيدونَ القراءة والكتابة". عندها فتح الحرّاس الباب ودخلوا إلى المهجع.

قال أحدهم: "اصطفوا جميعاً، هيا بسرعة" ومن ثمَّ توجَّه لمسؤول المهجع قائلاً له "فلتقُم أنت بالقراءة".

فرد عليه: "ماذا أقرأ يا سيدي؟".

-"ستقرأ روايةً أيها السافل! ستقرأ نشيدنا، نشيد الاستقلال".

-"لكنني لم أحفظه بعد يا سيدي".

-"حسناً، فلتصطف جانباً، الآن سأعلمك كيف تحفظه!".

تدخَّل الرقيب:

-"ما اسمك أيها الوغد".

-"اسمي عصمت كولومبو يا سيدي".

-أيّ كولومبو أنت، هل لديك صلة قرابة مع الممثل كولومبو الذي يظهر على التلفاز؟".

-"لا يا سيدي، اسمي الحركي هو كولومبو".

-"حسنا، ما هي كنيتك؟".

-"كوركماز يا سيدي".

-"من الآن فصاعداً ستكون أنت مراسلي".

-"لكن رسائلك لا تصل إلى هنا فكيف أصبح مراسلك".

-" ليس هذا ما قصدته، بل ستنوب عني في المهجع، وعندما أدخل إلى هنا ستقف ورائي وتقدّم لي تقريراً مفصَّلاً عن وضع المهجع بشكل كامل".

فكّر كولومبو قليلاً ثمَّ قال:

-"لا يمكنني فعل ذلك".

ردَّ الرقيب:

-" ماذا تعني بأنك لا تستطيع؟ ستقوم بذلك أيها الوغد! سترى".

عندما أدرك الحرّاس بأن المعتقلين لم ينفّذوا الأوامر الصباحية، انهالوا بالضرب عليهم جميعاً ما عدا كولومبو.

استاء كولومبو بشدةٍ لحال رفاقه وهم يتعرضون للتعذيب، وبعد انتهاء ذلك العقاب قال نجمي لكولومبو: "لا تحزن يا رفيقي، فليس من الضروري أن يتم تعذيب الجميع، قد تتعرض أنت يوماً للضرب، بينما يتم اعفاءنا".

كان عصمت ينحدر من رها (أورفا)، قضاء بيريجيك، وكان والده يعمل في قيادة العربات التي تجرها الأحصنة، لم يتمكن والده من تعليم ابنه في المدارس ليصبح ذا شأنٍ يوماً ما، لذا لم يجد بدّاً سوى تعليمه مهنته التي يقتات منها. كانت قيادة العربة تتطلب الموهبة و المهارة، حسب رأي والده، ففي الأماكن المزدحمة بالعربات يتوجَّب التأكد من عدم إخافة الأحصنة وتوجيهها بمهارةٍ وحذر. لقد

تعلّم عصمت مهنة والده خلال وقتٍ قصير، في الحقيقة لم يكن ينظر إليها كمهنةٍ أساساً.

عصمت كان مصدر السعادة للمعتقلين، ويضحكهم أحياناً لدرجة البكاء، ورغم أنه كان سريع الغضب أيضاً، إلا أنه يعتذر ويعود لطبيعته خلال فترة وجيزة، لم يدم انزعاجهُ يوماً من أحد لمدة طويلة، إلا أنه كان ينزعج بشدة في حال تعرض أحد ما لقيمه الثورية التي يؤمن بها، وكان يقاطعه بشكلٍ نهائي، لقد كان ملاذ كل من حوله في أوقات التعذيب والضغوط والحياة الرتيبة ومصدراً للفرح في جلساتهم. بعد حادثة الضرب الأخيرة جلس رفاقه حوله كي يُدخلوا الفرحة إلى قلبه من خلال تحفيزه على الكلام.

قال له نجمي: "هيا يا عصمت أخبرنا كيف أصبحت ثائراً، سنستمع إليك!"

في البداية قال عصمت: "إنّي مشوَّش التفكير اليوم، فلتكفّوا عني".

قال أشرف: "لا تحمّل الأمور أكثر من طاقتها، كل ما هنالك أنه تم استبعادك من التعذيب اليوم، لا حاجة للقلق، ستتعرض للضرب في الأيام القليلة القادمة، والآن هيا أخبرنا كيف أصبحت ثائراً".

قال كولومبو: "الموضوع ليس متعلّقاً بالضرب أو التعذيب، ما يزعجني بالفعل هو طلب الرقيب بأن أكون وكيله في المهجع، فكل من يعرفني يعلم حق المعرفة أنه كل من يقطن في بيريجيك وصولاً لقائم مقامها كان يهابني، وكان الجميع

يقفُ أمامي احتراماً أثناء مروري بمكانٍ ما، قد لا تصدّقوني إن قلت لكم بأنني الشخص الذي شتت الـ (DDKD) في بريجيك.

قال نجمي: " لا زلت كما أنت يا عصمت، لا تُشغل بالك بالتفكير كثيراً بما حدث".

في الحقيقة كان عصمت على استعداد ورغبة لسرد قصته إلا أنه كان يُكابر في ذلك، ولولا تلك الحادثة لكان سرد لهم حتى لو لم يطلبوا منه ذلك. بعد أن تبدل مزاجه قليلاً شرع عصمت بسرد قصته: "كنت من أول الثوار في بريجيك، لكن نار الثورة خبت في داخلي فيما بعد".

"ولم حدث ذلك؟" سأله نجمي

ردَّ عصمت: "إنها قصة طويلة، لقد كان السبب قصة حب. المهم، سأتابع لكم سرد قصتي، لقد كنت مسؤولاً في حركة الـ (DDKD)، وفي يومٍ من الأيام جاء جن علي إلى بريجيك طالباً في إثري، تناقشنا سويَّةً في توب دَر (TÖB-DER) \\رابطة واتحاد جميع المعلمين\\. وبعد ذاك النقاش المطول قررت أن أصبح آبوجياً، وقمت أيضاً بالانفكاك عن أعضاء الـ(DDKD) الذين كانوا معي".

قال أشرف: "لِمَ قمت بالانفكاك عنهم، كان بإمكانك أن تجعل منهم آبوجيين أيضاً".

قال عصمت: "لم أكن أرغب أن يصبحوا أبوجيين بتأثير مني، لذا انفككت عنهم، فمن يريد أن يصبح آبوجياً يستطيع أن يبحث في ذلك ويقرِّر بنفسه".

قال نجمي: "فلتدع موضوع تركك للـ (DDKD) جانباً ولتحدثنا عن أحصنتك".

قال كولومبو: "كان لدي حصانان، وكلاهما يرفضان السير حين كنت أزيد حمولة العربة قليلاً، وفي يومٍ من الأيام كنا نسير فوق جسر وقد كانت العربةُ محمَّلةً بالحطب، وعندما بلغنا وسط الجسر رفض الحصانان التحرك، فترجّلت من العربة، وبدأت أربت على رأسيهما وتوسلت إليهما ولكن دون جدوى، لم يتحركا قيد أنملة، قلت في قرارة نفسي: لِمَ يرفضان المسير؟ إنهما يشبهان الحركات والتنظيمات الأخرى لحد كبير، فحين تزداد أحمالها ومسؤولياتها تقف ساكنة دون حراك ولا تخطو أي خطوة للأمام، بعدها توجهت إلى حصانيّ وأمسكت لجاميهما وقمت بضربهما بالسوط وبدأت أجرُّهم جراً، عندها أطلقت على أحدهما تسمية "الرجعي" والآخر "الانتهازي"، وقلت لهما حتى وإن متمَّا اليوم فإنكم سوف تقومان بهذه المهمة! وهكذا تعاملت معهما أخيراً، ومنذ ذلك اليوم وأنا أناديهما بالألقاب التي أطلقتها عليهما (الرجعي) و (الانتهازي)".

صاح الحارس: "تجهّزوا لكي تخرجوا إلى فسحة التنفّس!"، ومع سماع الإيعاز بدأ المعتقلون ينزلون من أسرّتهم، قاموا في البداية بالاصطفاف أمام الباب، ثم قال الحارس لمسؤول المهجع "يجب ألَّا يبقى أحد في المهجع"، كان على كل

معتقل الهرولة في المكان والعد لثلاثة ثم الانطلاق بسرعة إلى الفسحة، وبعد أن اصطف المعتقلون في صفوف مؤلفة من أربعة أشخاص قال الحارس: "فليتقدم طوال القامة إلى الصفوف الأمامية"، اصطفَّ الجميع حسب أطوالهم، وكان كل رتل مؤلفاً من عشرين شخصاً، واضطر الجميع بمن فيهم كبار السن والمرضى أن يقفوا في وضعية الاستعداد لساعات طويلة، من ثم قال الرقيب: "فلينفصل الصف الأول عن بقية الصفوف".

–رد المعتقلون: "أمرك سيدي!". فانفصل الصف الأول عن البقية ليشكِّلوا صفاً أمام الرقيب ووقفوا باستعداد.

–الرقيب: "أنت قائد الفرقة".

–ميرفان: "أنا يا سيدي؟".

–الرقيب: "نعم أنت أيها اللعين".

–رد ميرفان بلا تردد: "أمرك سيدي!".

–سأله الرقيب: "من أين أنت أيها اللعين؟".

–ميرفان: "أنا من رها(أورفا)، سيدي".

–الرقيب: "حين تقوم بتقديم تقريرك المرّة المقبلة، قم بذلك بالطريقة الصحيحة".

–ميرفان: "أمرك سيدي".

–أوعز الرقيب للعريف: "هيا لتري هؤلاء كيف تكون المشية العسكرية، وكيف يكون الدوران إلى الخلف".

كان العريف شديد الثقة بنفسه، وكأنه سيقوم باستعراض لم يسبقه إليه أحد، فأبرز صدره مع رفع ركبتيه متراً عن الأرض وبدأ بالمسير المنتظم لدورتين في ساحة التنفس.

–الرقيب: " هل رأيتم و تعلمتم، ستفعلون الشيء ذاته وبالطريقة نفسها"، وبعدها نادى كرصور قائلاً له: "تعال إلى هنا"، هرول كرصور إليه بسرعة وقف أمامه باستعداد وقدّم له التحية العسكرية بانتظام: "كرصور ماردين، أمرك سيدي!".

–الرقيب: "أيها السافل، لا تُقدِّم التحية العسكرية بهذا الشكل، اذهب وقف هناك، فليأتِ قائد الفرقة الأخرى" وعندما حضر قائد الفرقة الأخرى أمره بالوقوف إلى جانب كرصور.

حين جاء دور نجمي تقدم إلى الرقيب.

–نجمي: "نجمي أونر آمد (ديار بكر)، أمرك سيدي".

–الرقيب: "قم بالمشية العسكرية بانتظام أيها السافل، ما هذه المشية".

لم يقم أحد من قادة الفرق بالمشي أو تقديم التحية العسكرية بالطريقة التي طُلبت منهم، رغم أن ميرفان كان قائد فريق المدرسة خلال سنوات دراسته،

وقادراً أن يقدّم التحية العسكرية وأن يقوم بالمشية العسكرية أفضل من أي كوماندوس متمرس، لكن لسببٍ ما لم يرغب تنفيذ الأوامر في ذاك اليوم.

قال الحارس: "فليجتمع قادة الفرق أمامي، هيا مدوا أيديكم أيها الأوغاد!".

جلب الحارس عصا كانت مسنودةً خلف الباب وبدأ يضربهم بها في كل مكان من أجسادهم حتى خارت قواه، وكان النقيب يشاهد تلك الممارسات من خلف شبّاك مكتبه، وعندما لاحظ الحرّاس أن النقيب يراقبهم بدأوا بضرب جميع المعتقلين على حد سواء، لم يكترث الحراس لتعرّض المعتقلين لكسور العظام أو ندبات الجسد، كل ما كان يهمهم هو رضى النقيب وثنائه على ما يقومون به، وبينما كان الحراس منتشين بتعذيب المعتقلين بالعصي والهراوات والأيدي والأرجل، دخل النقيب ساحة التنفّس قائلاً للحرَّاس: "اوقفوا الضرب!".

عندها اصطف المعتقلون وهم في حالة من الخوف والهلع وبدأوا ينصتون بحذر إلى النقيب الذي التفت للحرّاس: "يا بني هل جلبتم حاجيَّات السجناء من المقصف".

–الحارس: "نعم سيدي".

–النقيب: "حسناً أيها السجناء، سأبقى أكنُّ لكم المحبة ما دمتم تنفذون الأوامر، وسأجعلكم تشعرون وكأنكم في منازلكم، كدت أن أنسى، هل ذهبتم إلى الحمامات؟".

–ردَّ المعتقلون بصوتٍ واحد: "لا يا سيدي".

–قال النقيب للحارس: "يا بني، فلتأخذوهم إلى الحمَّامات مباشرةً".

–الحارس: "أمرك سيدي" والتفت إلى المعتقلين آمِراً: " باتجاه المهجع... سِرْ!".

ثم قال لمسؤول المهجع: " فليتجهّز الجميع من أجل الاستحمام، انتظروني عند الباب ريثما أصعد إليكم؛ هيا فلتسرعوا".

لم يحصل المعتقلون على أيَّة مياهٍ ساخنة مُذ تمَّ نقلهم إلى المهجع /33/، حتى الماء البارد لأجل الشرب كان صعب المنال، كان القمل والقذارة تملأ أجسادهم، ورغم أنهم كانوا يدركون مسبقاً بأنهم سيتعرضون للضرب والإهانة أثناء رحلة الذهاب والإياب، إلا أنهم كانوا فرحين لأنهم سيستحمُّون أخيراً. وقف الحارس أمام باب المهجع قائلاً: "سأعدّ حتى ثلاثة لتتجهزوا للذهاب إلى الحمام، يجب ألَّا يبقى أحد في الداخل!"، حين بدأ المعتقلون بالخروج أوقفهم الحارس وأمرهم بتنظيم صفوفهم وترديد النشيد والدخول إلى الحمام بطريقة المشية العسكرية.

كان الحمام يتسع بالكاد لـ/20/ شخصاً فقط في الحالات العادية، إلا أنه تم حشر قرابة الـ /100/ معتقل فيه، وكان عليهم انتظار المياه الساخنة للاستحمام، بعد مضيّ دقيقتين اجتمع ما بين 30 إلى 35 حارساً خارج الحمام وداخله وهم يحملون العصي والهراوات وقالوا للمعتقلين: "هيا لتخرجوا بسرعة أيها الملاعين"، و بدأوا بعد ذلك بالتهجم عليهم بوحشيةٍ لا توصف.

كان المعتقلون يتلقّون الضرب من الحرّاس الواقفين أمام الباب أثناء محاولتهم الخروج، وعند التجائهم إلى داخل الحمام كان الحراس في الداخل يقومون بالمهمة، باتت أجساد المعتقلين التي بالكاد تبللت بالمياه الباردة هدفاً هذه المرة لعصي وهراوات الحراس الذين لم يكتفوا بذلك فحسب، بل قاموا بتجميع المعتقلين عند المدخل وهم عراة بالكامل وأجبروهم على المسير مع ترديد النشيد التركي، لم يكن المعتقلون قد خطوا 10 خطوات بعدُ حتى انهال عليهم الحرّاس بالعصي والهراوات ذات اليمين وذات اليسار مرَّةً أخرى، أمر الحراس المعتقلين بأن يتمددوا على الأرض ويزحفوا باتجاه المطعم جيئةً وذهاباً، نفَّذ المعتقلون الأوامر وهم يتعرضون لكافة أنواع الضرب والإهانة، ومع إيعاز الحرّاس: "مهجع.. قف!"، وقف جميع المعتقلين واصطفوا في نسقٍ واحد بانتظام.

بعد ذلك أمرهم الحرّاس بالعودة إلى المهجع. كان المعتقلون يحاولون التقاط ثيابهم من جهة وحماية أنفسهم من ضربات العصي والهراوات من جهة أخرى في رحلة العودة إلى المهجع.

قال عصمت: "في الحقيقة لقد كان استحماماً رائعاً!" بعدها توجه الجميع إلى جالونات المياه الكبيرة، أما المرضى وكبار السن فقد نقلهم رفاقهم إلى أسرّتهم، وتكفّلوا بإجراء المساجات لظهورهم وأرجلهم، ومداواة جروحهم بالمراهم.

في تلكَ الأثناء تشكلّت جلسة نقاشٍ بين المعتقلين بعد أن انسلوّا إلى أسرّتهم، وكان موضوع النقاش هو هجوم إدارة السجن الأخير عليهم.

لكل مكانٍ مزايا وعيوبٌ معينة، إلا أن ما كان يعيب المهجع /33/ هو أنه كان بمثابة عليّة، فالمياه غير متوفرة، ودور المياه تتوسط المهجع، و لأنها كانت حديثة البناء فلقد كانت دائمة الانسداد، أما ما كان يميز المهجع هو تواجده في الطابق العلوي, مايجعل مراقبتهم من قبل الحراس أمراً صعباً، فحين كان الحراس يفتحون كوّة الباب لم يكن بمقدورهم رؤية المهجع بشكل كامل، ولم يكن من السهل أيضاً مراقبتهم من الشبابيك بسبب علوِّها، كان المهجع واسعاً للغاية ويضم عدداً كبيرً من المعتقلين، وكان معتقلوا الحركات السياسية الأخرى لا يفتعلون مشاكل كبيرة داخل المهجع، كما أنه لم يتعاون أحد مع إدارة السجن لنقل أخبار المهجع لهم، الأمر الذي اعتُبر ميزةً إضافيةً لذلك المهجع.

كانت إدارة السجن تبتكر طرقاً وأساليب متجددة للتعامل مع المعتقلين في كل يوم، و أخيراً قاموا بفرض نهج حياة جديدة عليهم وحاولوا تطبيقه بحذافيره بكافة الوسائل والأساليب، فباتت حياة المعتقلين ساحة للتعذيب في كافة جوانبها وتفاصيلها. بمجرد تفكيرٍ بسيط سيتمكن المرء من إدراك المغزى الحقيقي لكل هذا التعذيب الوحشي، حيثُ المراد هو تجريد المعتقلين من إمكانية التفكير بأنفسهم أو بمستقبلهم؛ وخلق الإنسان الذي لا يمتُّ إلى الإنسانية بصلة.

بمعنىً آخر، كانت إدارة السجن تعتبر عدم تعرف المعتقل على نفسه عندما ينظر إلى المرآة مؤشّراً حقيقيّاً لنجاح مشروعها، فالمطلوب هو القضاء عليهم فكرياً وجسدياً، كان المعتقلون يتبنون أسلوب حياةٍ ثابت ويسعون دوماً لتطبيقه رغم

كل العقبات، إلا أن العدو لم يقف مكتوف الأيدي، بل كان يبذل كل جهدٍ لكسر إرادة معتقلي سجن آمد.

بدأ الحراس يضعون قانونَي دستور السجن الرئيسيَين حيّز التنفيذ، فالقانون الأول ينصُّ على أن "القائد دائماً على حق!" والثاني "حين لا يكون القائد على حق فالقانون الأول سارِ المفعول"، ما يعني أن إدارة السجن والحكومة التركية على حد سواء لم تكن تُعِر أي اهتمامٍ لمصير المعتقلين, بل كانوا يعذبونهم بأبشع الطرق والأساليب، ولم يكن المعتقلون يمتلكون أية حقوق، وأقلّها حق التكلّم، بل كان عليهم تنفيذ الأوامر فحسب.

رغم كل الضغوطات وشتَّى أنواع التعذيب الممارَس بحقهم، كان المعتقلون يواصلون حياتهم بلا كلل أو ملل أو انقطاعٍ عنها، فتراهم تارةً يغنُّون ويضحكون بعد جلسات التعذيب والأوقات العصيبة، وتارة أخرى يجتمعون سويةً ويطلقون العنان لمناقشاتهم المعتادة. في الحقيقة كان ذلك القانون الوحيد والثابت بالنسبة لهم، لقد كانوا يصيّرون اليأس أملاً، ولحظات الحزن والألم دعابةً وفرحة، كان المؤمنون منهم بقيم الثورة لا يزالون يحملون شعلة الوطنية داخل قلوبهم، ولم يحاولوا يوماً التفكير بشكل سلبي، بل يسعون دائماً لأن يكونوا منارة أملٍ تنير غياهب درب اليائسين والقانطين.

قد تدفع ظروف السجن القاسية تلك المرءَ للاستكانة واليأس والعزلة، وهذا بالضبط ما كانت ترمي إليه إدارة السجن وتسعى إليه جاهدةً، فلقد كانت تلبي

كافة احتياجات معتقلي المهجع /33/ ومعتقلي المهاجع المستسلمة الأخرى في الوقت الذي كانت فيه المقاومة لا تزال مستمرة.

لكن فيما بعد بدأت ضغوطات إدارة السجن تزيد شيئاً فشيئاً وتجلّت في كافة جوانب حياة المعتقلين، حيث عمدت لتقليص فترات الخروج إلى ساحة التنفّس بالإضافة إلى تقليل مخصَّصات الماء والطعام وكافة الحاجيات الأساسية، كما اتّبعت أسلوب التعذيب المفرط بحق المعتقلين أثناء ذهابهم إلى المحكمة وعودتهم منها، أو أثناء الزيارات واللقاءات مع المحامين، وأثناء الذهاب إلى المشفى وما إلى هنالك، بالإضافة إلى التفتيش الذي كان عذاباً وجحيماً من نوعٍ آخر؛ إذ كان يتم من خلاله انتهاك أعراض المعتقلين وكراماتهم بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

نادى الحارس على معتقلي المهجع /33/

-مسؤول المهجع: " أمرك سيدي!".

-الحارس: "فليخرج عشرة أشخاص منكم للذهاب إلى المطعم!".

بناء على أمر الحارس تكدَّس جميع المعتقلين أمام باب المهجع، فصرخ الحارس بصوتٍ عال: "اصمتوا أيها الأوغاد...اصمتوا".

اصطف عشرة أشخاص اختارهم الحارس وقدموا تفقدهم ومع إيعاز "واحد...اثنان" خرجوا من الباب، قام الحارس بعدها بجعلهم يصطفون حسب الطول وأمرهم بالسير بطريقةٍ عسكرية منظمة مع ترديد النشيد الوطني والتوجه

نحو المطعم، في تلك اللحظة خرج النقيب أسعد من المطعم وهو يأكل الخيار وسأل الحارس: " أي مهجعٍ هذا يا بني؟".

–الحارس: "المهجع /33/ سيدي!".

–النقيب: "همم، المهجع /33/، إلى أين تأخذهم؟".

–الحارس: "إلى المطعم سيدي!".

–النقيب: "لا، لا، اعدهم إلى المهجع، سآتي الآن".

كان المعتقلون يدركون أنه في كل مرَّةٍ يرون فيها وجه النقيب ستحلُّ عليهم مصيبة، و من المؤكد أن هذه المرة لن تكون استثناءً لسابقاتها.

–الحارس بصوتٍ عال: "هيا، عودوا إلى المهجع بخطوات ثابتة وسريعة، تحركوا".

كان من تبقى من المعتقلين داخل المهجع قد بدأوا في التدريب والتعليم بحيوية أكثر، حتى المرضى منهم نهضوا من أسرِّتهم وانضموا إليهم، كانوا يتوقعون تدفق الطعام إليهم من المطعم، فقاموا بتوزيع بعض علب الحليب التي كانت بحوزتهم لرفاقهم بسخاء منقطع النظير، عندها ُفتح باب المهجع ودخل منه رفاقهم العشرة الذين أرسلوا إلى المطعم والدماء تغطي أجسادهم، في الحقيقة لقد بات التعذيب جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية للمعتقلين، هرع المعتقلون الذين بقوا في المهجع لاستقبال رفاقهم وتضميد جراحهم.

كان خالو يعاني من أمراض عدة، المعدة والقلب وما شابه، إلا أنه لم يحنِ رأسه يوماً للعدو أو يرضخ له، فقد كان يوزّع ما يملكه من حليب وأطعمة أخرى على رفاقه بعد كل تعذيب، ويرفعُ معنوياتهم من خلال الدعابات التي يطلقها، ولم يأنّ يوماً تحت ضربات العدو، كان محبوباً من جميع المعتقلين.

صاح الحارس مرة أخرى: "انتباه" فوقف الجميع باستعداد في أمكنتهم، دخل النقيب أسعد وخلفه كلبه (جو) برفقة 10-15 حارساً إلى المهجع.

النقيب: "جئت لأخبركم التالي، فلتعلموا جيداً أنه لا يمكن لأحدٍ الخروج عنس أوامري في هذا السجن، فلو رغبتُ، بإمكاني إخراج أي شخصٍ من هنا، وجعله يتعفن داخل أسوار السجن، لذلك فلتتعقلوا، أنا لست راضٍ عنكم، لقد سمعت بعض الأشياء، آملُ أن تصلحوا أنفسكم من الآن فصاعداً". ومن ثم غادر المكان.

قيل ذات مرة: "قل لي من ترافق، أقُل لك من أنت"، وهكذا كانت الحال بين أسعد أوكتاي وكلبته (جو الذي هو اختصار للاسم الأمريكي (جوني)، هذا الاسم المنحوس كان يتعارض مع المصلحة الوطنية التركية، لكن أسعد لم يكن يفارق كلبته البتة لكي يستذكر دوماً ولاءه الدائم للإمبريالية، وكان يحبها أكثر من محبة شخصٍ لأبنائه، ويوليها اهتماماً كبيراً، يدفعها إلى التزاوج لإنجاب الكثير من الجراء بغية الحفاظ على نسلها، ويخضعها لحميةٍ غذائيةٍ خاصةٍ، لقد كانت (جو) ترافق أسعد دائماً في كافة عمليات التفتيش، وكان أسعد يأمر المعتقلين بأن يقدموا التفقد لـ (جو) قبل أن يقدموه له شخصياً، لقد كانت (جو)

المديرة الفعلية للسجن في نظر المعتقلين، وهكذا أرادها صاحبها الوفي. بدأ الحرّاس الذين بقوا في المهجع بعد مغادرة سيدهم بضرب جميع المعتقلين دون استثناء.

كان المعتقلون يمتلكون خاصيَّةً مميَّزة ألا وهي الإسهاب في تفسير كل حادثة مهما كانت صغيرة وفتح نقاش مطول حولها، حيث كانت مقولة "الحدث مقدس، والتفسير مجاني" تنطبق حرفياً على معتقلي المهجع /33/ خصوصاً وعلى كل معتقلي سجن آمد عموماً، فلو كان الحدث تقديم الإدارة ملعقةَ طعامٍ إضافية، أو تعريضهم لجلسات تعذيب مطولة، فلقد كان التساؤل الدائم والسائد هو "لِم حدث ذلك؟". وبينما كان المعتقلون يبحثون عن سبب ذاك الضرب المبرح الذين تعرضوا إليه منذ الصباح، تم جلب مجموعة من المعتقلين الجدد إلى المهجع، عندها تنفسّ المعتقلون الصعداء وقالوا: "إذاً هذا هو السبب، رفاقنا المعتقلون الجدد".

-الحارس: "يا مسؤول المهجع فلتعطِ هؤلاء بعض الطعام والماء، وليغتسلوا أيضاً".

-مسؤول المهجع: "أمرك سيدي"، ومن ثمّ التفتَ إلى الوافدين الجدد قائلاً: "حمداً لله على سلامتكم".

بدورهم شكروه على ترحيبه لهم، وكان من بينهم من تعرّف على معتقلي المهجع القدامى، فتعانقوا وذهبوا سويةً للجلوس في أحد أركان المهجع.

كانت الأسئلة الأولى التي طرحت عليهم "ما الأخبار في الخارج، متى تم اعتقالكم؟".

أجاب الوافدون الجدد على تلك الأسئلة ببعضٍ من الحذر والتردد.

-نجمي: "ما اسمك يا رفيق؟".

-"علي".

-نجمي: "متى أتيتم إلى هنا؟".

-علي: " كنا في الزنزانات منذ قرابة شهر، وجاءنا هذا الصباح النقيب وأخبرنا بأنَّه سينقلنا إلى إحدى المهاجع، وبالفعل قد جلبنا إلى هنا"، نظر نجمي إلى آمد وكأنه يريد أن يقول له "ثمَّة الكثير في جعبة هؤلاء!".

-نجمي: "كيف كانوا يعاملونكم هناك، هل كانوا يهتمون بكم؟".

-علي: "طبعاً، كانوا يعاملوننا بشكل جيد".

-نجمي: "أتعني أنهم لم يضربوكم أبداً".

-علي: "لا، لما قد يضربونا ونحن ننفذ جميع الأوامر والتعليمات".

-نجمي: "يا صديقي، إننا ننفّذ كل ما يطلبونه منا ومع ذلك نتعرض للضرب المبرح".

دعم آمد ما أسلف نجمي قائلاً: " إن كان ما تقوله صحيحاً، فلقد أتيت إلى هنا عبثاً".

–علي: "لا يهمني ذلك".

في تلك الأثناء دعا مسؤول المهجع الوافدين الجدد لتناول الطعام وقدّم لهم الحليب والمربّى وكل ما كان متوفراً في المهجع، فبدأوا بتناول طعامهم والإجابة عن الأسئلة التي تطرح عليهم، كان من بين هؤلاء شخصان لم ينبسا ببنت شفة مُذ وصلا، وينظران حولهما بريبةٍ وحذر، هذا ما أثار انتباه جميع من كانوا في المهجع.

ذهب آمد إلى نجمي وهمسه قائلاً: "هناك شيء مريب حول ذاك الشخص".

–نجمي: "لا تشغل بالك، سأكتشف حقيقته في أقرب وقت، ليس هو فقط، بل انظر إلى ذلك القصير الذي يتناول الطعام إلى جانبه، أنا أشكّ فيه أيضاً، أعتقد أن ثمة من يعرفه من بين المتواجدين هنا".

–آمد: "إنه ابن مدينتي، تحدث أنت معه، وأنا بدوري سأتحدث مع الشخص الآخر بعد انتهائهما من تناول الطعام".

–نجمي: "فليتولى محمود وأشرف هذه المهمة".

–آمد: "حسنا، سأسلّم أمرهما إلى أشرف ومحمود".

وقع المهجع /33/ في فخ الترقّب مجدداً، فلقد حوّلت إدارة السجن أربعة أشخاصٍ من رفاقهم إلى المحكمة، كانت رحلة الذهاب إلى المحكمة تشبه الانتقال للجحيم، ورغم ذلك فلقد كان جميع المعتقلين مستعدين لخوض غمارها طواعيةً ودون تردد، فتلك الرحلة كانت بالنسبة لهم فرصة لرؤية وجوه جديدة، وأيضاً فسحة للتنعم برؤية زرقة السماء رغم القيود الآسرة وظروف الرحلة، وإن عاد أحدهم ببعض الأخبار الجيدة من المحكمة فذاك سيكون من حسن حظه، كأن ينقل إلى رفاقه أحاديث اولئك المدافعين عن القضية أمام هيئة المحكمة، فيبقى المعتقلون يكررون تلك الأحاديث بحماسة لأيام دون كلل أو ملل، كانت تلك الأخبار تحافظ على رباطة جأش وتماسك المعتقلين وتزيد من صمودهم.

في ساعات المساء عاد كلٌّ من فرهاد، آمد، عدنان وآلِك من المحكمة، في البداية قضوا حوائجهم وبعد ذلك انتقلوا إلى أسرّتهم.

-أشرف: "ما الذي حدث في المحكمة، فلتحدثونا عن آخر التطورات، هل كان ثمة أحد من المهجع /35/؟".

-عدنان: "لا شيء جديد، كما في كل مرة، تعرضنا للضرب المبرح، ضُربنا في الذهاب والإياب".

التفت فرهاد إلى آمد قائلاً: "هل سلَّمت المال؟".

–آمد: "نعم، فعلت ذلك يا أخي، لكن لا أعلم إن كان سيصل إلى المكان المطلوب".

–فرهاد: "لِمَ، لمن أعطيتها؟".

–آمد: "صادفت فيصل هناك، واضطررت إلى أن أعطيها إيَّاه، في الحقيقة رآني الأخ مظلوم حين سلمته المال، فقلت بصوت عال أعط هذا المال للأخ مظلوم".

–فرهاد: "سيصل المال إلى المكان المطلوب في أغلب الأحوال".

تدخل نجمي: "فلتخبرونا عن التطورات التي حدثت في المحكمة، نحن ننتظركم منذ ساعات".

فرهاد: "عدنان، فلتقم أنت بذلك، رأسي يؤلمني قليلاً اليوم".

حين تمدَّد فرهاد على سريره، بدأ عدنان يتكلم عن مجريات المحكمة للمعتقلين المجتمعين حوله وكأنه يخاطبهم في مؤتمر: "يارفاق، لن أحدثكم عن الضرب والتعذيب والإهانة التي تعرضنا لها أثناء الذهاب والإياب، لأن هذه الأمور غدت روتينية وبديهية، وأنتم بالطبع لا تتوقون لسماعها. في البداية تمّ جلب مجموعة مدينة آمد بالكامل، وأهمُّ ما حدث في المحكمة هو ما قاله الرفيق خيري، حيث تمت قراءة بعض تقارير اللجنة المركزية للحزب من قبل هيئة المحكمة، وبناء على ذلك تم منح الإذن للأخ خيري بالتكلم وأكَّد أن هذه الوثائق عائدة للجنة المركزية للحزب بالفعل، وطلب بعدها أن يحضر جلسات المحاكمة مع كل المجموعات التي كانت تحاكم في قضية حزب العمال

الكردستاني وأن يتم مشاركة مظلوم فيها أيضاً. سأل القاضي أمرالله كايا، لماذا تريدون الحضور مع كل المجموعات؟ فأنتم تحاكمون مع مجموعة مدينة آمد. فردّ عليه الأخ خيري، القضايا المرفوعة بحق معتقلي حزب العمال الكردستاني واحدة، وكنا نطالب دائماً بأن نحضر الجلسات مع كل المجموعات الأخرى، لكن بما أننا ندرك عدم إمكانية تنفيذ ذلك، فإننا لا نصرّ عليه أيضاً، أما محاكمات القضية الرئيسية للحزب فهي تُقام بشكل دوري، لذلك فنحن نعتقد أنه بإمكانكم الموافقة على حضورنا بصفتنا أعضاء اللجنة المركزية لحزب العمال الكردستاني، وعلاوة على ذلك يمكننا من خلال الحضور في تلك المحاكمات الدفاع عن الادعاءات الموجهة ضد حزبنا وتوضيح ملابساتها أيضاً، فمثلاً نرى أنه من الضرورة حضور جلسات محاكمة أشخاص مثل شاهين دونماز من مجموعة ألازغ، حيث يتوجب علينا التعامل مع التقييمات التي قد تُساق ضد حزبنا في سياق تلك الجلسات".

"بناءً على ما سبق، تشاور أعضاء هيئة المحكمة فيما بينهم وتم قبول طلب الأخ خيري، و تقرَّر منذ ذلك الوقت فصاعداً حضور الأخ خيري ومظلوم جلسات كل المجموعات التي كانت تحاكم في القضية الرئيسية للحزب، كان هذا أهم حدث جرى في المحكمة، أمَّا الحدث الآخر فقد تم استئناف التحقيق مع عاكف يلماز".

–محمود: "لماذا؟ ألم يتم استجوابه من قبل؟".

-عدنان: لا، فهم لم يكونوا قد أحضروه إلى جلسات التحقيق السابقة، وقام عاكف بالدفاع اليوم عن الحزب أثناء استجوابه، باختصار لقد أكد أنه كان سكرتير الحزب في المنطقة وأنه على دراية بكافة الأحداث التي جرت في تلك الفترة، نافياً معرفته بمن كان وراءها".

-أشرف: "ما هي الأوضاع في المهجع /35/؟".

آمد: "ليست جيدة البتَّة".

تركز انتباه الجميع عندها على ما سيقوله آمد بعد ذلك.

تابع آمد: "في طريق العودة من المحكمة جلسنا وعاكف سويةً، وأخبرني عن كافة مستجدات المهجع /35/، وبحسب ما أخبرني به فإن إدارة السجن كانت قد نقلت عدداً من الرفاق القياديين إلى الطابق الرابع وتم فصلهم عن بعض من خلال بعض الزنزانات الفارغة، لذلك فقد بات التواصل بينهم صعباً للغاية ويحمل في طيَّاته الكثير من المجازفة، حيث أكد أيضاً أن إدارة السجن قد ضبطت بعض التقارير الثورية، كما قال أن حياة الكومين مستمرة ولكن في إطارٍ ضيِّق للغاية، وأن الشخصية الثورية لبعض الرفاق تتعرض للاضمحلال، فهُم يتردَّدون في مساعدة رفاقهم الآخرين رغم تواجدهم سوية، وقد كان الانزعاج والغضب باديان على محياه حين كان يخبرني بذلك، كما وأشار إلى أن حياة الكومين غير مطبقة على الإطلاق في الطابق الثاني، وأوضح أنه وبسبب تلك السلبيات يضطر هو ورفاقه أن يطلبوا المال منا أحياناً، وقال أن بعض الأشخاص الذين نرسل المال عن طريقهم يأخذون تلك الأموال لأنفسهم

وينفصلون بعدها عن الكومين، فالأموال التي كان ينبغي أن تصل الطابق الرابع، لم يتم تسليمها، لذلك طلب مني عدم إرسال أية أموال أخرى من الآن فصاعداً ".

نادى فرهاد آمد على عجالة قائلاً له: "لقد استمعت إلى حديثك، وكان كل ما قلته صحيح، لن أعقّب عليه إطلاقاً، لكن ليست كل الأماكن ملائمة لقول الحقيقة، كان يتوجب عليك أن تجتمع مع مجموعة أصغر من الرفاق وتشاركهم تلك المعلومات، فما قلته أمام الجميع سيخلق استفهامات عديدة في رؤوسهم، حتى أن بعض أولئك الذين يضمرون لنا السوء يمكنهم أن يستخدموا ما قلته ضدنا، مواضيع مثل هشاشة الكومين في المهجع /35/ وعدم تفعيله في أماكن أخرى هي أمور لا ينبغي قولها أمام الجميع؛ من الضروري أن نأخذ الظروف التي نعيش فيها بعين الاعتبار".

طأطئ آمد رأسه مدركاً خطأه ومن ثمَّ قال: "أنت محق في ذلك، فليكن هذا بمثابة درس لي، وأنا على ثقة أن الأمر لن يتكرر مجدداً، لقد أخطأتُ هذه المرة".

-فرهاد: "فلتنادي رفاقنا كي نناقش المستجدات الأخيرة".

ذهب آمد إلى المعتقلين الآخرين قائلاً لهم: "يا رفاق، لقد أخبرتكم باختصار خلاصة التطورات الحاصلة، تستطيعون الذهاب الآن".

سأل محمود مدفوعاً بفضوله: "ما الذي حصل؟".

–آمد: "لا تسألني أي شيءٍ الآن، اجمع رفاقنا، ففرهاد يريد أن يجتمع بنا".

–محمود: " إذاً فقد جاء دورنا، أليس كذلك؟".

–آمد: "اجمع الرفاق، ستفهم كلَّ شيءٍ هناك".

بعد أن اجتمع الرفاق حول فرهاد، قال:"باختصار، أريد أن أقول لكم التالي، لقد ساعدنا المهجع /35/ بالأموال عدة مرات منذ وصولنا إلى هنا، واعتقد أن جميعكم يعلم ذلك، ولكن الرفاق الذين قابلناهم أنا وآمد اليوم طلبوا منا عدم إرسال أية أموال أو سجائر أو أي شيءٍ آخر للمهجع /35/، وبناءً على ذلك لن نقوم بإرسال أي شيءٍ إلى هناك من الآن فصاعداً، لكن علينا ألَّا ننسى بأن الوضع الإيجابي الذي نعيش فيه داخل مهجعنا وأقصد بذلك الحياة الكومينالية وتلقينا التدريب والتعليم وحالة الوحدة والترابط التي تجمعنا هي بفضل مواقف رفاقنا القياديين المتواجدين في المهجع /35/، فهم يمدوننا باستمرار بالقوة والمعنويات والمشاعر الإيجابية".

قام خالو بتوزيع العصير المخصص للمرضى على جميع رفاقه، فيما كان كشه يتجول في المهجع مثل المكوك ويهم بابتلاع العصير بنهمه المعتاد، أما عصمت فقد جمع حوله عدداً من المعتقلين، وينقل لهم بحماسَةٍ مفرطة خطاب كل من خيري وعاكف أما هيئة المحكمة، أما كولومبو الذي رأى أن أحد أعضاء (البارتيزانيين) يقترب منهم غيّر مضمون الحديث وقال: "الكل هنا يدّعي بأنه ثائر، لكنهم يصمتون صمت الموتى ويطأطئون رؤوسهم في المحاكمات، يترَّجون هيئة المحكمة لإخلاء سبيلهم ويقولون: "نحن من التائبين، نحن لا نشارك

حتى في حركات المقاومة داخل أسوار السجن"، أما قادتنا نحن فهم يقاومون ببسالةٍ في الزنزانات ويرفعونَ أصواتهم عالياً داخل المحاكمات".

رد عليه البارتيزاني: "هذا الأمر جيد، لكن اليوم لم يعد هناك أية مقاومة. فالكل استسلم".

-كولومبو: "هذا ما تظنُّه أنت، ففي الوقت الذي يتلقى فيه قادتك التدريبات كالجنود الأتراك، يقوم قادتنا بمهمة الدفاع عن قضيتهم بكل إخلاصٍ وتفانٍ، إن كنتَ لا تعلم ذلك اذهب إلى رفاقك وسيخبرونك بذلك، ففي تركيا ومنذ عهد أتاتورك هناك من يدّ عي بأنه ثائر ولكنه لم يقدم أي شيءٍ، بالمقابل فإن مواقفنا المشرفة في كل من المحكمة والسجن لا نظير لها حتّى اليوم".

-البارتيزاني: "أنا لا أقصد مواقفكم في المحكمة".

-كولومبو: "بالطبع ليس بمقدوركَ أن تقول شيئاً عن ذلك".

-البارتيزاني: "دعني أتكلَّم قليلاً".

كولومبو: "وماذا ستقول أيضاً؟ هيا فلتتكلم ولكن لا تسق لنا الأعذار، قُل كل شيءٍ بوضوحٍ وبشكلٍ مباشر، فأنا لا أفهم في أمور النظريات، قد قال أحد القادة الثوريين ذات مرة "أفضل الثائرين هم الذين يعتنقون النظرية والتطبيق في آنٍ واحد". لا تفهمني بشكل خاطئ إن قلت لك أنني لا أحبذ الأمور النظرية، إذ أنني شخص يحب الجمع بين ما هو نظري وما هو عملي، وأنا لا أتهمكم

لوحدكم، بل ستجد الكثير أيضا ًمن اليساريين الأتراك إما يتبنون النظريات لوحدها، أو يتمسكون بما هو عملي بشكلٍ مطلق دون الجمع بينهما".

-البارتيزاني: "أستحلفك بالله أن تتوقف عن ذلك يا عصمت، تتهمني بالتنظير وها أنت تقوم به بنفسك".

-كولومبو: "أنتم لا تفهمون أن فصل النظرية عن التطبيق سيؤدي بنا إلى الفشل الذريع؛ أتفهم ذلك؟ أنا أدرك تماماً أنَّك ستتناول الموضوع من الجانب النظري فقط، لأنَّكم لا تفقهونَ شيئاً في الجانب العملي".

انزعج البارتيزاني مغادراً. نظر عصمت إلى رفاقه ضاحكاً وقال: "أرأيتم كيف جعلته يصمت".

قال رفاقه: "ما فعلته لم يكن أمراً جيداً البتّة، فأنت لم تفسح له مجال التكلم، كان حريّاً بك الاستماع إليه مهما قال، وبما أنك أنت قد بدأت النقاش كان عليك أن تلتزم بالقواعد المتبعة".

-كولومبو: "كنت أعرف ما سيقوله مسبقاً، فلِمَ يتوجب علينا الاستماع إليه أصلاً"؟!

كان سجن آمد يحتوي على ثلاثة عشر مدخلاً، وبواباتٍ لا تفتح للخارج، كان بعضها مخصصاً للزيارات، فبعد أن تجتاز معبر (مالطا) بمساحته الشاسعة، وتصل مكان تواجد إدارة السجن، ستصادف باباً على الجانب الأيسر كُتب عليه بخطٍّ كبير عبارة: "تكلّم التركية، وتكلّم كثيراً". وعند الدخول من ذلك

الباب ستجد في الجهة اليمنى بعض الكبائن المخصصة لزيارات ذوي المعتقلين، وهي تشبه المخازن في أحسن الأحوال، بعدها يتواجد حوالي عشر إلى إثنى عشر كبيناً إضافياً، وهناك في نهايتها كبين مفرد يُعتقَد أنها كانت مخصصة للمحامين، إلا أنَّه لم يسبق لأحد الدخول إليها أو لقاء أي محامٍ فيها، إذ كان المحامون أيضاً يلتقون مع موكليهم في الكبائن المخصصة للزيارات، ولم يكن يتمتعون بأية خصوصية أو أية امتيازات.

كان المحامون يتعرضون للمعاملة السيئة والتفتيش الدقيق، ويقف الحرّاس فوق رؤوسهم كزبانية جهنم، وعند انتهاء أوقات اللقاء مع الموكلين يقومون بجرهم إلى الخارج، كانت كبائن الزيارات في السابق تحتوي على بعض النوافذ الزجاجية المدعمة بأسلاك حديدية، ولكن المعتقلين قاموا بتحطيمها قبل تولي المجلس العسكري لإدارة السجن وبقيت على ذاك الحال، الكبائن تلك كانت شديدة العتمة وكان المعتقلون يتعرفون على ذويهم من خلال الصوت فقط.

ككل الأيام المخصصة للزيارات، مرر الحارس لائحة أسماءٍ من خلال كوّة الباب قائلاً لمسؤول المهجع: "على هؤلاء أن يتجهزوا"، قرأ المسؤول الأسماء ومن ثم نادى على المعتقلين المذكورة أسماؤهم في اللائحة وقال: "استعجلوا يا رفاق، سوف تذهبون للقاء ذويِّكم".

كانت الدفعة الأولى تضم كل من آمد، كرصور، فرهاد ورفاق آخرين، وبدأوا بالخروج من المهجع، وعند وصولهم إلى (مالطا) توقفوا بإيعاز من الحارس الذي قال لهم: "قفوا، فلتصطفوا على نسقين، ولتكونوا مستعدين، سيروا

بشكلٍ جيد أيها الأوغاد، فلتكن أرجلكم مستقيمة، رددوا نشيد اسكي شهير (Eskişehir)".

–المعتقلون: "اسكي شهير...اسكي شهير".

–الحارس: "أوقفوا المسير أيها السفلة، سأقوم بتسوية الحساب معكم عند العودة يا أولاد الزانية!".

عندما وصل المعتقلون إلى المكان المخصص للزيارة، كان ثمة جندي في كل كبين من جهة الزائرين، ذهب كل معتقل إلى الكبين المخصص برقمه، وكان يتوجب على كل معتقل قراءة اسم عائلته أمام الجندي، وينتظر أوامره، بشكل عام كان الجندي يقول للمعتقلين ستجاوبون فقط على أسئلة من قبيل "كيف حالك، كيف هي صحتك، هل أنت بخير؟" على هذا النحو "أنا بحالة جيدة جداً، أنا مرتاح هنا كثيراً، صحتي جيدة، لا تشغلوا بالكم، أنا لا أحتاج أيّ شيء هنا".

وأردف قائلاً: "إن تجاوز أحدكم هذه الجمل الخمسة ستكون عاقبته وخيمةً، وأيضاً، إياكم أن تسألوا أسئلة من قبيل "كيف حال العدس الذي زرعناه، الماشية، العمة والخالة، هل هذا مفهوم؟" كان المعتقلون مجبرين على الرد بـ: "أمرك سيدي".

بعد ذلك أمرهم الجندي بالرجوع للخلف والانتظار، كان المعتقلون ملزمين باتباع تعليمات ذلك الجندي بحذافيرها وطرح الأسئلة على الزوار بغض النظر عمن يكونون، كان آمد يتوقع رؤية أمه في الزيارة كما اعتاد، ولكن هذه المرة كانت

زوجته وأخوه هما من يزورانه. رزكار، الشقيق الأصغر لآمد كان شاباً يافعاً، وكان قد تزوج منذ أسبوع، جلب رزكار معه هدايا لأخيه للتخفيف من استيائه بسبب إقدامه على الزواج دون علمه، وكان ذلك كفيلاً بضرب كل تعليمات الجندي عرض الحائط، حين رأى آمد أخاه وزوجته التي لم يقابلها منذ ستة أشهر لم يتقيّد عندئذٍ بما قاله العسكري وبدأ بالكلام.

-رزكار: "كيف حالك يا أخي؟".

-آمد: "أنا بخير، و أنت؟".

كان رزكار مرتابَاً من انقضاء مدة الزيارة ومدركاً لحساسية الموقف، لذا بدأ بالتكلّم مباشرة: "في الحقيقة يا أخي كنت أود أن أخبرك بأنني تزوجت، لكن لم يتسنى لي ذلك".

فرح آمد بسماع ذلك، وأراد أن يعبر له عن مدى سعادته وأن يتمنى له الخير، لكنه حين تذكّر كلمات الحارس وتجسَّد أمامه مشهد الضرب الذي سيتعرَّض له توقف للحظة، كان رزكار واقفاً أمام أخيه منتظراً جواباً لما قاله عن زواجه، أما زوجة آمد فقد كانت تراقب تراجيديا الشقيقَين بنظراتٍ يائسة وحزينة. فكّر آمد قليلاً ثم اتَّخذ قراراً كان مجبراً على اتخاذه وكان سيتكلم مهما كلف الأمر.

-آمد: "سررت كثيراً لأجلك يا أخي وأتمنى لكما السعادة، من هي عروستنا المحظوظة؟ أأعرفها؟".

بدايةً دهس الحارس بكل قوته على قدم آمد وكأنه يقول له لقد تجاوزت ما أمرتكَ به، لكن آمد يدرك تماماً أنه سوف يتعرض للضرب لذا استمر في الكلام دون أن يفقد رباطة جأشه.

-رزكار: "نعم يا أخي أنت تعرفها، فهي ابنة خالتنا".

فرح آمد كثير لسماعه ذلك، ثم التفت إلى زوجته قائلاً: "يا زوزان، باركي لـ كزبان نيابةً عني وتمنَّي لها السعادة".

عندها تدخّل الحارس، وأمسك آمد من ذراعه وأخرجه من الكبين، رغم ذلك أكمل زوزان ورزكار كلامهما: "لقد جلبنا لك عشرين زوجاً من الجوارب، عشرين منشفة وعشرين منديلاً، سوف نسلّمها للحارس، وزعها على رفاقك".

حين سمع آمد ذلك عرف أن عقابه سيكون عسيراً، وبدأ يحضّر في عقله ما سيقوله لاحقاً.

تم اقتياد آمد إلى الإدارة مباشرة، فقام الرقيب بجرِّه إلى القسم الذي كان يتواجد فيه ضابطان برتبة ملازم أول، وقال لهما: "سيدي، لم يتقّيد هذا الشخص بالتعليمات في غرفة الزيارة، والأمر الآخر فقد أرسل له التنظيم عشرين زوجاً من الجوارب، عشرين منشفة، وعشرين منديلا"، اتَّصل الملازم أول بالخارج، ودون أن ينهي كلامه وضع سماعة الهاتف على الطاولة وقال منزعجاً وبقسوة: "تعال إلى هنا، ما هو اسمك؟".

- "آمد، ديار بكر، سيدي!".

رفع الملازم أول سماعة الهاتف مرة أخرى وقال عبرها: "القوا القبض على زائري آمد".

سأل الملازم أول آمد: "من اولئك الذين جاؤوا لزيارتك؟".

-آمد: "زوجتي وأخي".

-الملازم أول: "الآن سنرى".

قال الملازم أول للرقيب: "خذوا هذا من هنا وحين أبلغكم احضروه إلي مرة أخرى".

أخذوا آمد إلى غرفة فارغة، مقابل مهجع النساء المعتقلات، وقفلوا عليه الباب. بعد انقضاء حوالي ساعة جاء الرقيب وأخذه إلى الإدارة مرة أخرى، وكان الملازم أول جالساً.

-الملازم أول: "سأسألك للمرة الأخيرة، من هم اولئك الذين أتوا لزيارتك؟".

-آمد: " هم يحملون بطاقاتهم الشخصية، فإن لم تصدقوني تستطيعون التأكد من هوياتهم، وإلا كيف يمكنني إقناعكم بغير ذلك".

-الملازم أول: "حسناً، طالما تقول الحقيقة، فما هي اسم زوجتك؟".

-آمد بكل ثقة: "زوزان سيدي".

–الملازم أول: "لقد كُشف أمرك أيها السافل، هل سمعت باسم كُليزار من قبل؟".

–آمد: "نعم سيدي".

–الملازم أول: "قل من هي؟".

–آمد: "إنها أختي يا سيدي"

–الملازم أول: "حتى الآن كنت تقول إنها زوجتك والآن تقول إنها أختك؟".

–آمد: "إن أذنتم لي سوف أوضّح لكم ذلك سيدي".

الملازم أول: "ما الذي ستوضّحه؟ كل شيء واضح، حسناً قل ما عندك ولكن دون أن تكذب".

–آمد: "لقد عقدنا القران عند الشيخ".

–الملازم أول: "لا يقال عن هذا عقد قران شرعي، بل عقد قران ثوري".

–آمد: "لا يا سيدي، فنحن متزوجان منذ ثمانية أعوام".

نظر الملازم أول إلى آمد من رأسه حتى أخمص قدميه قائلاً له: "ألم أقل لك لا تكذب. ها أنت تكذب مرة أخرى، قد تكون متزوجاً منذ ثمانية عشر سنة، لعلَّك تزوجت وأنت طفل، من تحاول أن تخدع هنا أيها الحيوان؟".

هزّ آمد رأسه حائراً ويائساً: "أقسمُ لك بأنني أقول الحقيقة".

وقف الملازم أول ومسك برقبة آمد: "هل تعتقد بأنك ستجعلني أصدق أكاذيبك أيها الخبيث؟".

بعد أن قام الملازم أول بضرب آمد بالحائط عدة مرات قال للرقيب: "خذوا هذا الوغد واجعلوه يتكلم، أريده أن يعترف بكل شيء".

تم إخراج آمد إلى الممر واجتمع حوله خمسة حرّاس وقال الرقيب: "في البداية سنضربه بالعصا على أسفل قدميه"، وبمرور وقت قصير أذاقوا آمد شتى أنواع التعذيب والإهانة ولكن آمد كان يكرر كلامه نفسه.

جُلب آمد مرّة أخرى إلى الإدارة، لكن هذه المرة كان النقيب أسعد والملازمان جاهزين لاستقباله.

–النقيب: "إذاً أنت لا تريد أن تخبرنا بالحقيقة، أليس كذلك؟".

–آمد: "يا سيدي، أقسمُ أنني أقول الحقيقة".

–النقيب: "أيها الرقيب، افتح الباب يا بني".

فتح الرقيب الباب وتم إدخال زوجة آمد وأخيه رزكار الذي كان من الواضح أنه تعرض أيضاً للضرب ولكن ليس بالقدر الذي تعرض له آمد، كانت ملامح الخوف والرعب باديةً على زوزان التي وقفت بجانب الحائط وكانت تنظر بحزن عميق تارةً إلى زوجها وتارةً أخرى إلى المحققين، كان آمد، وبالرغم من كل ما تعرض له ينظر مبتسماً إلى زوجته وأخيه.

التفت النقيب إلى رزكار قائلاً: "من أين جلبت كل تلك الأشياء؟ ولماذا أحضرت ما يفيض عن حاجة أخيك؟ أحذِّرك من محاولة الكذب عليّ".

-رزكار: "لقد تزوجت قبل أسبوع، لذلك أردت أن أجلب هذه الأشياء لأخي حتى يوزّعها على رفاقه".

-النقيب: "إن كنت ثرياً لهذه الدرجة ومحبّاً للخير فلم لا تساعد الفقراء والمحتاجين بدلاً من مساعدة هؤلاء الإرهابيين الخونة".

اضطر آمد أن يجيب بدلاً من رزكار فقال: "سيدي إن أذنتم لي سوف أوضّح لكم لِمَ جلب أخي كل هذه الأشياء".

-النقيب: "تكلم".

-آمد: "من ضمن عاداتنا أن يقوم المتزوجون حديثاً بتوزيع الهدايا؛ لذلك عندما تزوّج أخي لم يقم بتوزيع الهدايا حينها بل جلبها لي حتى أوزعها على الفقراء والمحتاجين في المهجع".

في تلك الأثناء دخل رقيب أول إلى الغرفة حاملاً في يده ورقة وقال للنقيب: "لقد وصلت المعلومات التي طلبتموها يا سيدي".

وضع الرقيب أول الورقة أمام النقيب، وبعد أن ألقى النقيب نظرة خاطفة عليها التفت إلى آمد وسأله: "ما هي صلة القربى التي تربطك بـ كليزار؟".

-آمد: "هي أختي يا سيدي".

أشار النقيب إلى زوجة آمد وقال: "أهذه هي كليزار؟".

-آمد: "لا يا سيدي".

-النقيب: " إذا فمن تكون هذه وما صلتك بها؟".

-آمد: "هذه زوجتي"

- النقيب: "ما اسمها"

- آمد: "اسمها زوزان يا سيدي".

-النقيب: "حتى لو قبلنا معظم أقوالك واعتبرناها صحيحة، فإن زيارة شخص ببطاقة شخصية مزورة هو أمر مخالف للقانون، وإن كنت متزوجاً بالفعل كل هذا الوقت لِمَ لا تملك وثيقة زواج، ولماذا لم تقم بإجراء معاملة الزواج حتى الآن، كيف تفسر ذلك؟".

تدخّل الملازم أول: "سيدي، فلنسأل المرأة عن هذا الأمر".

كانت زوزان تراقب ما يحدث وهي تقف بالقرب من الحائط.

أشار النقيب إلى زوزان لتقترب من الطاولة كي تجاوب عن السؤال. قالت زوزان: "عُقد قراننا عند الشيخ".

-النقيب: "منذ كم سنة و أنتما متزوجان؟".

-زوزان: "منذ ثمان سنوات".

–النقيب: "إذاً، فلِمَ لا تأتين للزيارة ببطاقتك الشخصية؟".

–زوزان: "لقد جئت إلى الزيارة مستخدماً بطاقة أخت زوجي، لأن زواجنا غير مثبت في المحكمة بعد، ولا أمتلك أية وثائق رسمية".

قام النقيب من مكانه وبعد أن تجول في الغرفة ذهاباً وإياباً لعدة مرات قال: "سأعفو عنكم هذه المرة. لكن لا تحاولي أن تأتي إلى الزيارة بهوية شخصٍ آخر مرة أخرة!".

ثم التفت النقيب إلى الرقيب قائلا: "يا بني، خذهم إلى الخارج وليذهبوا". وقال للجندي: "اذهب أنت لجلب الجوارب والمناشف والمناديل إلى هنا".

نفّذ الجندي مباشرةً أوامر النقيب. وحين جلب تلك الأشياء، طلب النقيب من الملازمين والحراس المتواجدين هناك أخذ قطعة من الأشياء لكل واحد منهم وإعطاء البقية لـ آمد.

قال الملازم أول لآمد: "لقد أحببت عاداتكم هذه كثيراً". ومن ثم قال للرقيب: "خذه إلى مهجعه".

حين وصل آمد إلى المهجع كان قد تبقى معه عشر أزواج من الجوارب، ستة مناديل، وسبع مناشفَ لليدين، لتبقى قصة التنظيم السرّي لعائلة آمد محطَّ نقاش المعتقلين لأشهر، وكان كشه أكثر من يمازح آمد في هذا الموضوع، حيث يسأله دوماً: "من هو سكرتير حزبكم؟".

وزّع آمد ما تبقى من تلك الأشياء بعد تعرُّض جزءٍ منها للنهب على من كان بحاجةٍ إليها، قال عصمت لآمد ممازحاً: "هذه الأشياء الجميلة تستحق كل ذلك الضرب الذي تلقّيتَه، فليتزوج والدك أيضاً في الزيارة القادمة".

كانت تلك الحادثة واحدةً من بين الأحداث العجيبة التي مرَّ بها المعتقلون على حدٍّ سواء، فبعض تلك الحوادث كانت مؤلمةً وبعضها الآخر يمتزج بالفكاهة والمرح، ومع مرور الأيام كانت حبَّات المسبحة في المهجع /33/ الـ 99 تزيد شيئاً فشيئاً، وكانت الدهشة والتعجب تغمر الوافدين الجدد عندما كانوا يتلقّون مشاعر الود والاحترام من المعتقلين القدامى، يسعدون بذلك كثيراً، فكان حتى أكثرهم تشاؤماً تنقلب حاله جراء تلك المعاملة، وكان بعضهم قد وعد إدارة السجن بأن يقوموا بأعمال تخريبية داخل المهجع، لذا كان القلق يحيط بهم دوماً على إثر المعاملة الإنسانية التي يتلقونها عند مجيئهم إلى المهجع؛ فالإنسان بطبعه لا يستطيع أن يدير ظهره للقيم الإنسانية بتلك السهولة.

سأل نجمي: "إلى أين وصلت يا أشرف؟ ألم تستطع استخراجَ أي شيءٍ من ذلك القصير؟".

أشرف: "إنَّه قليلُ الكلام، لكن بالتأكيد لديه معرفةٌ ببعض الأشياء، فهو يقف وراء اعتقال معظم الوافدين وهو أسهلهم استدراجاً، لقد تكلَّمت إلى الآخرين أيضاً، وقد علمت منهم بأن ذلك القصير وعلي كانا سويَّةً في المهجع /37/، وكان وضعهما أفضل بكثير من بقية المعتقلين في ذلك المهجع وكان الحراس والرقباء وحتى النقيب يلتقون مع هؤلاء بوتيرةٍ متكرِّرة، وإن أخذنا سلوكهم المشبوه في المهجع بعين الاعتبار أيضاً فسيتضح لنا أن هؤلاء قد وعدوا الإدارة بشيءٍ ما".

–نجمي: "توقَّف قليلاً، فلننادي محمود أيضاً، اعتقد أنَّك محقٌّ فيما قلته".

نادى نجمي محمود سائلاً إيَّاه: "هل تكلَّمت إلى علي؟".

–محمود: "نعم فعلتُ ذلك، حتى أنني دعوته لتناول الطعام مع مجموعتنا؛ لكن هذا الشخص جنِّيٌ بالتأكيد يا رفاق، أتعلمون ماذا قال لي؟ لقد سألني، هل تقصد بالمجموعة الكومين؟ ثم قال إن كان الوضع كذلك فلن أنضم إليكم، حينها قلت له إن الذين يعرفون بعضهم البعض يبقون معاً ويتناولون طعامهم سويةً، لكنه لم يصدّق ذلك تماماً".

–ميرفان: "أيمكنني الانضمام إليكم يا رفاق؟".

–نجمي: "بالطبع، تعال واجلس، كنا نتكلَّم بشأن الوافدين الجدد".

–ميرفان: "لو كان الأمر بيدي لأوسعت علي وذاك القصير –لا أعرف ما اسمه– ضرباً و أخرجتهما من المهجع، لأنني على يقين بأنهما يتجسّان

علينا، ليلة البارحة بقينا أنا وآلِك مستيقظين لساعة متأخرة من الليل و كانا يراقباننا، في الحقيقة هممت حينها لأضربهم إلا أن آلِك منعني من ذلك".

–نجمي: "أنت محقّ، ولكن انتظر حتى نعرف ما هو رأي الأخ فرهاد بذلك، فلو قمنا بفعل أي شيء دون مشورته فسينزعج منا بالتأكيد".

–محمود: "لِمَ لا نذهب إليه ونتكلم معه ونعرف ما هو رأيه في الأمر؟".

–ميرفان: "اذهبا أنتما، سننتظركما أنا و نجمي هنا".

توجَّه محمود وأشرف إلى فرهاد، سأله محمود: "ما الأمر يا معلم، هل بدأت بممارسة الخياطة؟".

–فرهاد: "و لِمَ لا يا محمود، فأنا أحب قميصي هذا للغاية، بالأمس عندما كنا في قاعة المحكمة جرّني الحارس من قميصي ممزّقاً ياقته، كما أن آمد يحبّ هذا القميص أيضاً فقد طلبه مني لكنني لم أعطه إياه، تفضَّلا بالجلوس لِمَ أنتما واقفان".

بعد أن جلس محمود وأشرف على سريرٍ بجانب فرهاد، قال محمود: "أخي فرهاد نود أن نناقشك في موضوعٍ ما".

–فرهاد: "تفضَّلا، ما هو الشيء الذي تودّان قوله".

–محمود: "لدينا شكوك حول علي والقصير ملمِّع الأحذية".

–فرهاد: "هل ثمة سببٌ واضح لشكوكم؟".

–أشرف: "نعم يا أخي، أحدهم كان ضمن قوات الكوماندوس عندما كان في الجيش لذلك يأخذه الحراس بحجة التدريب بين الفينة والأخرى، فيما الآخر يخرج من المهجع عدة مرات في اليوم بحجة تلميع أحذية الحراس، أليست تلك أدلَّةً كافية".

–فرهاد: "حسناً، ولكن هل ناقشتم معهم هذا الأمر؟ هل سألتموهم لِمَ يتم استدعائهم ولم يخرجون من المهجع مراراً وتكراراً؟".

ثم نقل أشرف لفرهاد ما قام به من بحثٍ حولهما.

–فرهاد: "إذاً، بمَ تفكّران؟".

–محمود: "قبل دقائق حين كنا نتناقش، اقترح ميرفان أن نوسعهما ضرباً، لكننا رأينا أنه من الأفضل أن نأخذ رأيك في هذا الأمر".

–فرهاد: "و هل تعتقدون أن الضرب هو الحلّ برأيكم؟".

–أشرف: "لِمَ لا؟ ضربهما سيكون درساً للمهجع أيضاً".

انزعج فرهاد من جواب أشرف قائلاً: "كلا يا أخي، الضرب ليس حلّاً في مثل هذه الظروف. أنتما محقّان في الظنون، لقد تحدّثت إليهما، وعلمت منهما أنهما عندما كانا في المهجع /37/ استطاعت إدارة السجن استمالتهما لصفها لذا أرسلوهم إلى مهجعنا، لكن معاملتنا الجيدة لهم منذ قدومهم كفيلة لسدِّ الطريق أمام ترتيبات الإدارة لزرع بذور الخيانة بيننا، ورغم خروجهما المتكرر من

المهجع إلا أنني على ثقة أنهما لا يقومان بإعطاء أية معلوماتٍ تخصُّنا إلى الإدارة، حتى أنهما يشعران بالقلق الدائم والسخط بسبب الموقف الذي يجدان نفسيهما فيه، قد نضمّهم إلى الكومين في الأيام القادمة، لأن إبقاءهما وحيدين ومعزولين قد يدفعهما للعودة إلى حضن العدو مرّة أخرى، لذا أقترح أن تتعاملوا معهما بحذر وإنسانية".

–أشرف: "يا أخي، أنت متفائلٌ كثيراً وتفكّر بشكلٍ إنساني، لكن هؤلاء وعدوا أن ينقلوا أخبارنا إلى الإدارة، أي أنهم سلّموا أمرهم لها، لذا إنقاذهم أمرٌ صعب، أنا شخصياً لا أؤيد ضمّهما إلى الكومين بأي شكلٍ من الأشكال".

–فرهاد: "أنا لم أقل أن نضمّهما مباشرة، قلت في الأيام القادمة أي مع مرور الوقت، في الحقيقة إن أردنا سدَّ طريق عودتهما إلى حضن العدو، علينا أن نقدم بعض التنازلات، حتى لو كان ذلك ضد مبادئنا، يتوجب علينا أن نحمي بعض الأشخاص، سيَّما الضعفاء. أخبروا ميرفان أنه لا يجوز ضربهما بأي شكل من الأشكال؛ وهذا ينطبق علينا جميعاً في الوقت نفسه".

بعد أن انتهى فرهاد من ذلك الموضوع، وقبل أن يغادر رفاقه، تطرَّق إلى موضوعٍ آخر: "كيف تسير الأمور الأخرى؟".

–محمود: " أيُّها أخي؟".

–فرهاد: "أقصد أمور التدريب، تناقضات الكومين، حياة المهجع، كيف تسير كل تلك الأمور؟".

لم يستطع ميرفان ونجمي أن ينتظرا رفيقهما أكثر لذلك انضما إليهما، وحين رآهما فرهاد أراد أن يمازحهما قليلاً، فقال: "تعالا، يقولون إنكما ستضربان الرجلين؟".

ابتسم نجمي وميرفان وردّا قائلين : "لِمَ لا؟ فهما مذنبان ويستحقّان الضرب"

-فرهاد: "أتظنُّ أنَّني لا أعرفك يا ميرفان، أنت لن تضرب أحداً، أما محمود قد يفعل ذلك".

-أشرف: "إن لم تك قَدمُ محمود مصابةً لربَّما كان سيفعلها".

-محمود: "أنت لا تُنصفُني يا أخي، أنا أضرب كشه كل يوم وأحشره تحت السرير".

كان كشه يتجول في الأنحاء كأحد ديوك المصارعة ولكن بسبب إدراكه أن رفاقه يناقشون موضوعاً جديّا، لم يذهب إليهم، رغم توقه الشديد للانضمام.

-أشرف: "تكلّم بصوتٍ منخفض، كشه سيسمعك".

-محمود: "أين هو؟".

-فرهاد: "هل كان ذلك الصوت الذي يصلنا قبل الآن هو صوتكم؟".

-محمود: "نعم يا أخي، لقد كان صوتنا، أنا وآمد فزنا".

فرهاد: "يا أ...تعال إلى هنا".

لم يكن فرهاد يناديه بلقبه، بل كان يناديه باسمه الحقيقي ولم يكن كشه يمتعض من ذلك، لقب كشه كان قد أطلقه عليه صديقه المفضل جمال كِلِج، فذات مرّة دخل جمال في رهان مع أحدهم في المهجع حول موضوع ما، ولفضّ الرهان طلب من أ... أن يدلو بدلوه، وحين خسر جمال الرهان رفض رأي أ... وقال أن هذا الرجل (قسّ) لذلك لن أقبل ما يقوله".

ومنذ ذلك اليوم أُطلق لقب كشه (أي القس أو الراهب المسيحي بالكردية) على أ...

اقترب منهم كشه ضاحكاً: "لا تدعوا محمود يخدعكم".

فرهاد أيضاً ضحك قائلاً: "تعال اجلس، محمود يقول أنه قد ربح بعض البسكويت لوحده، لعله يخدعنا، تعال لتخبرنا أنت بما حدث".

-كشه: "محمود يحاول رفع معنوياته فحسب، اتركوه لي، أنا سأكشف حقيقته".

-أشرف: "أنا شاهد على الأمر، فلقد نصَّ الاتفاق بينكما أن من يستطيع أن يغلب الآخر ويحشره تحت السرير سيحصل على البسكويت".

-كشه: "أقسم لك أن محمود لا يستطيع أن يضعني تحت السرير، فليلة البارحة أمرَ الملازمُ الجميعَ بأن يستلقوا تحت الأسرّة، وأنا رفضت ذلك، ورغم كل الضرب الذي تعرضتُ له من الحراس لم يتمكنوا من حشري تحت السرير، فكيف لمحمود الأعرج أن يستطيع فعل ذلك؟!".

–محمود: "يعني أنك تنكر ذلك الآن؟".

–كشه: "لا، أنا لا أنكر شيئاً، أنا أقول الحقيقة فحسب".

–نجمي: "يا محمود، هذه المرّة ضعه تحت السرير واربطه جيداً، ثم نادي على الجميع، حينها لا يستطيع أن ينكر".

قال كشه و هو يداعب وجه نجمي: "سنعرف حينها من سيحشر الآخر، لكن أين هو سكرتير تنظيم الأسرة السرية".

–فرهاد: "ومن يكون هذا؟".

–كشه: "ألا تعرفه بعد؟ إنه آمد".

–فرهاد: "صحيح، أين هو؟ نادوا عليه فليأتي هو أيضاً".

في تلك الأثناء فتح الحارس كوّة الباب قائلاً: "فليأتِ اثنان منكما حتى يأخذا الشاي!".

–أشرف: "أنا سآخذه وأوزعه ومن ثم أعود".

دبَّت الحياة في المهجع بعد سماع "خذ الشاي إلى الداخل"، وبدأ كل واحد منهم يتحضّر لشرب حصته بلهفة، كانت حدود المتعة بالنسبة للسجناء ضيقة للغاية في ظل تلك الظروف، فلولا الشاي، السجائر، وبعض وسائل الترفيه البسيطة والفكاهة لكانت الحياة في السجن أشبه بالموت. كانت الفرحة تغمر المهجعَ عند قدوم الشاي، فقد كان شربه يبثّ الحياة في نفوس المعتقلين،

وبحضوره كانت النقاشات تصبح شيِّقةً ويصبح التدخين أكثر متعة، وكان المعتقلون إما يتحدثون عن ذكرى سعيدة أو يستذكرون موقف أحدِ رفاقهم ممّن ترك أثراً طيباً لديهم. بعد توزيع الشاي عاد أشرف وآمد إلى ركن النقاش حيث يوجد فرهاد وبقية الرفاق.

-فرهاد: "أأعطيكم بعض السجائر؟".

-ميرفان: "لقد وزعتَ سجائرنا أيضاً".

-فرهاد: " أنت توزع السجائر فقط عندما تكون منتصراً في لعبة الشطرنج أو حينما تنفذ السجائر من المهجع كله".

-ميرفان: "نعم هذا صحيح".

مازح كشه آمد قائلاً: "لقد أصبحت جواربنا مهترئة، ألن يتزوج أحدٌ آخر من عائلتك؟".

-آمد: "لم يبقى أحدٌ ليتزوج".

كشه: "حتى لو كان ثمة أحد فلا أهتم لذلك".

-فرهاد: "كيف حالك آمد، كيف حال أضلاعك؟ أتحسَّنت؟".

-آمد: "بخير يا أخي".

-محمود: "يا آمد، إن كشه هذا لا يتقبل خسارته، فماذا نفعل به؟".

–فرهاد: "من الآن فصاعداً يجب ان لا تنادوا أ... بـاسم كشه".

–نجمي: "لكن هو نفسه يحبّ هذا الاسم".

–أشرف: "قبل فترة قلت له سنغيّر اسمك، واقترحت أن نسميه (بطريرك) لكنه لم يقبل بذلك".

–كشه: "أنا لا أعرف بطريرك أو غيره، ما أعرفه أن محمد علي أغجا حاول قتل البابا، لا أذكر اسمه لكنني أعتقد أنه الأكبر رتبة، فإذا أردت تسميتي بابا فأنا أقبل ذلك".

–محمود: "يا كشه، أنت لم تصل بعد إلى مرتبة البابوية".

–كشه: " أنت تظن ذلك فحسب، تعال لأحشرك تحت السرير لترى".

–فرهاد: "حسناً يا رفاق لقد استمتعنا ومزحنا بما فيه الكفاية، فلنتحدث قليلاً عن أمور أخرى".

تجهز الجميع في مكانه وبدأوا الإصغاءِ بجديَّة.

–فرهاد: "نجمي، قم بوضع الوافدين الجدد في أماكن مناسبة، ضع أحدهم في الطابق السفلي بجوار أ... أما ماسح الأحذية فقم بوضعه في مكانٍ مناسب أيضاً، وأنت يا أشرف عندما تقوم بتوزيع الشاي أعطِ كبار السن وكل من هو خارج مجموعتنا مقداراً زائداً منه".

–أشرف: "الشاي يزيد دائماً، ونحن نوزعه لمن يريد".

سأل فرهاد: "من المسؤول عن توزيع أقراص اللحم بالعجين؟".

–محمود: "لحد الآن فإن مساعد مسؤول المهجع هو المسؤول عن توزيعها، لكن وصلتنا شكاوى من العديد من الرفاق عن عدم توزيعها بإنصاف، لذلك أخذ آمد مهمة توزيعها على عاتقه، وهو الآن يقوم بهذه المهمة".

التفت فرهاد إلى آمد وسأله: "أثمة مشكلة بهذا الخصوص؟".

–آمد: "لا يا أخي، حتى أنهم لم يعودوا يحضرونها".

–فرهاد: "أعتقد سيتوقفون عن توزيع الشاي وأقراص اللحم بالعجين أيضاً، فذلك يتعارض مع سياسة إدارة السجن التي تنتهجها حالياً، أعتقد أنَّ عملنا في ميدان التدريب والتعليم يسير بشكل جيد، إن كانت لديكم أية مقترحات أو آراء أخرى حول هذا الموضوع فلتقولوها".

–أشرف: "إن تم تخصيص دروسٍ لتاريخ الكرد، ألن يكون ذلك أمراً جيداً؟".

–فرهاد: "يا رفاق، إن كان لدينا الوقت الكافي فسوف نهتم بهذا الموضوع والمواضيع المشابهة، لكنني أعتقد أن الأمور اليومية هي الأهم، فقبل كل شيء علينا أن نفهم الظروف التي نعيش فيها ونمرّ بها".

–محمود: "أعتقد إن تناول موضوع تاريخ الكرد والفلسفة سيكون أفضل بكثير، فنحن نناقش الوضع الذي نعيش فيه مذ بدأنا بالتدريب وبشكلٍ يومي".

فرهاد: "الهدف الأساسي من التدريب هو ألّا يتم حبس أفكارنا داخل جدران السجن، بل يجب أن تواكب الأحداث والتطورات التي تحصل في وطننا حتى نحسّ بها في ذواتنا وعلى أساسها نقوم بالشرح والتحليل؛ فإن بقي فكر المرء محصوراً في مكانٍ ضيق يستحيل عليه أن يتطور. لذا حين نفكّر في مهجعنا علينا ألّا نبتعد عن هذه التعليمات، أي تلك التعليمات التي تخرجنا من المهجع والسجن وجدرانه، يجب أن يُسمع صوت وطننا في المنطقة والعالم؛ لا يجب أن تبقى أفكارنا حبيسة جدران السجن مطلقاً، يجب ألّا نسمح لذلك أن يحصل أبداً".

لا ألمَ أزليّ، ولا قمعَ بلا نهاية. فالمسؤولون عن ممارسة هذه الضغوطات والتعذيب والظلم ينتهجون سياسةً وفلسفةً واضحة؛ وإدارة السجن هي جزء من الكل، أي جزء من الطغمة الحاكمة، وبدون شك فهذه الإدارة ستكشر عن أنيابها وتظهر سياستها بشكلٍ واضح، لذا كانت تارةً تمارس ضغطاً وتعذيباً هائلاً ضد المعتقلين، وتارة أخرى تخفف من وطأة ممارساتها بحقهم، وكان ذلك النهج مألوفاً بالنسبة لجميع المعتقلين.

النهج الأكثر اتباعاً في التعذيب الممارس هو كالتالي، يقوم كل محقِّق بلعب دورٍ معين أثناء التحقيق مع المعتقلين، ففي حين كان بعضهم يمارسُ التعذيب بأبشع الطرق دون أن يرفَّ لهم جفن، كان آخرون يتدخلون على حين غرة ويلعنون ويسبُّون من قاموا بالتعذيب، ليظهروا أنفسهم كملاكٍ حامي، في الحقيقة كانوا يفعلون ذلك ليسيطروا أو يفككوا الروح الثورية لدى المعتقلين الذين يتم التحقيق معهم، كان هذا التكتيك متَّبعاً بكثرة في السجن، فقد كانوا

يحملون العصا في يدٍ وفي الأخرى الحلوى، إلا أن المعتقلين كانوا يفتقدون أدنى احتياجاتهم كالخبز، الماء، الراحة، النوم والخروج إلى فسحة التنفّس، كانت الإدارة تمارس هذه السياسة بمنهجيةٍ واضحة، إذ يشغلون المعتقلين بلقمتهم ويجعلونهم يواجهون الجوع والحرمان، ولكي تستميل المعتقلين تقدّم لهم احتياجاتهم لعدّة أيام، ومن ثم تمنعها عنهم، وكلُّ الهدف من كل ذلك هو تضييق الخناق على المعتقلين وعدم إتاحة الفرصة لهم ليعيشوا حياة طبيعية.

فتح الحارس الباب الحديدي بسرعة داخلاً إلى المهجع. أعطى مسؤول المهجع إيعاز "انتبه!" فوقف جميع المعتقلين.

سأل الحارس: "أيها المسؤول، هل حفظتم الأناشيد التي أعطيتكم إيَّاها قبل الآن؟ الأمر الآخر، لقد جلبت لكم كتابين جديدين، من الآن فصاعداً ستقرؤون هذين الكتابين، أحدكم سيقرأ والآخرون سيرددون خلفه".

-مسؤول المهجع: "أمرك سيدي".

-الحارس: "هيا، لتجهزوا أنفسكم الآن لكي تخرجوا إلى فسحة التنفّس".

وقف المعتقلون وتجمَّعوا أمام الباب، ومع فتح الباب خرج المعتقل الأول وقدّم التحية العسكرية بشكل نظامي وخرج. كان عليهم ألّا يلتفتوا يميناً أو يساراً ابتداءً من درج النزول وحتى الوصول إلى فسحة التنفّس، وكما في كل مرّة قال الحارس: "تجهّز، استعد، سِرْ بثبات"، وحسب نظام التدريب في السجن كان المعتقلون ينتظرون إيعازات الحارس.

بعد أن مشى المعتقلون المشية العسكرية لدورتين كاملتين، طلب الحارس من كل واحد منهم ترديد الأناشيد الـ/52/ التي أعطيت إياهم لحفظها، وبعد ترديد النشيد الأول أوقفهم الحارس وبدأ يشتمهم بأبشع الألفاظ ومن ثم قال: "أعرف كيف أجعلكم تحفظون هذا النشيد وترددونه!" أمر الحارس المعتقلين بالزحف على بطونهم، وبعد أن قاموا بتنفيذ أمره قال: "قفوا، سوف نكمل التدريب!".

كان الحارس قد أعطى تلك الأناشيد للمعتقلين منذ قرابة أسبوع لحفظها، وأراد أن يقرأها المعتقلون حين خروجهم إلى فسحة التنفّس أثناء التدريب، و بما أن حفظ /52/ نشيد لم يكن بالأمر السهل فلم يحفظها أحد من المعتقلين، وهذا ما لم يعجب الحارس وأمر المعتقلين بالزحف أرضاً، جاء النقيب إلى فسحة التنفّس فأعطى الحارس إيعاز "انتبه!" وعلى إثرها اصطف المعتقلون.

–النقيب: "تابعوا التدريب يا بنيّ".

–الحارس: "سيروا بخطواتٍ مناسبة! ابدأوا بترديد نشيد جناق قلعة (Çanakkale)!". وقبل أن يبدأ المعتقلون بترديد النشيد أعطى النقيب إيعاز: "أوقفوا ترديد النشيد!" ورددوا نشيد: "غيّر التاريخ".

لم ينبس أحد من المعتقلين ببنت شفة لأن ذلك النشيد لم يكن مألوفاً لهم. فقال النقيب: "يا مسؤول المهجع، تعال إلى هنا".

–المسؤول: "أمرك سيدي!".

–النقيب: "ألم يعطوكم هذا النشيد؟".

–المسؤول: "بلى سيدي".

–النقيب: "إذن لِمَ لا ترددونه؟".

–المسؤول: "لقد تم اعطاؤنا /52/ نشيداً، ونحن بدأنا حفظها بالتسلسل".

–النقيب: "لا يجوز ذلك، فلتحفظوا هذا النشيد على وجه السرعة!".

–المسؤول: أمرك سيدي".

نادى النقيب للحارس قائلاً له: "يا بني فلتنظر في حال هذا المهجع، ألا تقدمون لهم الطعام؟".

–الحارس: "بلى سيدي!".

التفت النقيب إلى المعتقلين: "أيها المسؤول، هل طعامكم جيد، أقصد هل يصلُكم الطعام؟".

–المسؤول: "نعم سيدي".

–النقيب: "هل يصل الشاي والدخان إلى البوفيه؟".

–المسؤول: "نعم سيدي".

–النقيب: "أتريدون لعب كرة القدم؟".

–المسؤول: "نعم سيدي نريد ذلك".

–النقيب: "سأرسل لكم كرةً لكي تعلبوا بها في الحال".

بعد أن غادر النقيب طلب الحارس من المعتقلين ترديد نشيد "غيّر التاريخ" مرةً أخرى، لكن المعتقلون لم يستطيعوا فعل ذلك، فأمرهم الحارس بالانبطاح والزحف على بطونهم، وبينما كانوا ينفذون تلك العقوبة، فُتح باب فسحة التنفّس ودخل حوالي عشرين حارساً ورقيباً وعريفاً وهم يحملون في أيديهم العصي والهراوات. أوقعوا المعتقلين أرضاً وسحبوهم ككباش القرابين، وبدأوا بضربهم وتمزيق أجسادهم بكل وحشية، غدت ساحة التنفّس كميدان حرب، إلا أنها كانت تختلف عن الحروب الأخرى، إذ أن المهاجمين كانوا يضربون المعتقلين ليقتلوهم دون أن يكون لهم حق الدفاع عن أنفسهم من تلك الضربات. تم ضربهم حتى أوشكوا على الإغماء؛ فأدوات الضرب لم تتوقّف مطلقاً.

بعد أن تعب الحرّاس ألقوا العصي والهراوات من أيديهم، وحين أعطوا إيعاز "قف!" وقف من كان يستطيع ذلك وبقي حوالي عشرين معتقلاً ممدّدين على الأرض ومغمياً عليهم.

رقيب المبنى قال: "ليأتي عشرة أشخاص إلى هنا. اجلبوا خمسة جالونات من الماء من الداخل، هيا اسرعوا!".

رشّ المعتقلون الماء الذي جلبوه على رفاقهم الممددين، ومن ثم أخذوهم إلى داخل المهجع، وقبل أن يغلِقَ الحارسُ بابَ المهجع قال: "اخرجوا كل السجائر الموجودة إلى خارج المهجع، يا أولاد الزانية، أنتم ترفضون التدريب، أليس كذلك؟!". جمعَ مسؤول المهجع كل السجائر وأعطاها للحارس، حينها قال

له: "انظر أيها المسؤول، بعد دقائق سآتي فإن لقيت سيجارة واحدة سأ...!"، لكن المسؤول أكد له أنه لم يبقى أية سجائر في الداخل.

مدّد المعتقلون رفاقهم الذين فقدوا وعيهم على أسرّتهم وبدأوا بتدليكهم ومداواة جروحهم، بعد وقتٍ قصير فتح الحارس مرّةً أخرى كوّة الباب منادياً المسؤول.

–المسؤول: "أمرك سيدي!".

الحارس: "أخرجوا كل ما يتعلق بالطعام من صحون وملاعق وكذلك جالونات الماء إلى خارج المهجع، أنتم معاقبون أيها الأوغاد!". وفي صباح اليوم التالي، أعطى الحارس إيعاز: "ابدأوا بحفظ الأناشيد!" وأردف: "لا استراحة، لا طعام، يجب أن تحفظوا هذه الأناشيد حتى المساء!"؛ وعلى مدار ثلاثة أيام قطعوا الخبز والماء والسجائر عن المعتقلين، ويجبرونهم على الوقوف من السادسة صباحاً وحتى السادسة مساء ويرغمونهم على ترديد الأناشيد الواحدة تلو الأخرى.

بعد انقضاء أيام القحط الثلاثة تلك قامت إدارة السجن بإرسال كميات كبيرة من الطعام والدخان، لم يشهد المهجع/33/ لها مثيلاً من قبل، كان المعتقلون فرحين للغاية وبدأوا بجلب احتياجاتهم من البوفيه.

حين كان أعضاء الكومين يوزعون الطعام والحاجيات على المعتقلين دخل حوالي خمسة عشر حارساً برفقة رقيب المبنى إلى داخل المهجع.

–العريف: "أيها المسؤول، هل جلبتم الطلاء الذي طلبته؟".

–المسؤول: "لا سيدي".

–الرقيب: "لماذا أيها الوغد؟".

–المسؤول: " نحن لا نملك المال يا سيدي".

–الرقيب: "يا ابن الزانية، لطالما لا تملكون المال فلِمَ طلبتم كل هذه الأشياء من البوفيه؟ لقد نقلتم البوفيه كله إلى هنا!".

صمت المسؤول وطأطأ رأسه، انتشر الحرّاس داخل المهجع كالذئاب المسعورة وانقضّوا على المعتقلين بشكل عشوائي، بينما أفرغ الرقيب عدداً من علب زيت الزيتون على الأرض قائلاً: "هذا ثمن الطلاء"، وكذلك سكب علب المربّى: "فيما هذا ثمن كرتون اللافتات".

–الرقيب: "أيها المسؤول، سوف تخصِّصون النقود التي ستأتيكم في الزيارة القادمة لأجل الطلاء والكرتون، فهذه النقود لا تأتيكم من روسيا على أية حال، فلتنفقوا بعضها على الأمة، هيا فليجتمع الجميع في المطبخ، هيا اسرعوا ولا تتباطئوا".

بعد أن اجتمع الجميع قال الرقيب: "شكلوا مجموعات المحكمة" وسأل كل مجموعة عن اسمها، وفي الأخير قال غاضباً: "ما هذه الأسماء أيها الأوغاد؟ ألا يوجد بينكم أحد ينتمي لـ (طريق الحبّ)؟". وحين أدرك أن المعتقلين لم يفهموا ما يقصده قال بكل وضوح: "ألا يوجد أحد من حزب (طريق

الحرية)؟". كان ثمة معتقل واحد من (حزب طريق الحرية)، كان قد جُلب إلى المهجع منذ قرابة أسبوع.

خرج ذاك الشخص وقال: "أنا يا سيدي".

–الرقيب: "يا إلهي، انظروا إلى هذا الظريف! لِمَ أنت لوحدك هنا يا بني".

–"لقد أتيت مؤخراً إلى هنا سيدي".

–الرقيب: "ما هي جريمتك أيها الوغد؟".

–"لا شيء سيدي".

–الرقيب: "يا للعجب، انظروا فهو لم يقترف شيئاً، هل أتيت إلى هنا للتنزُّه؟".

–" أنا أقول الحقيقة يا سيدي، لقد سلّمت نفسي، كنتُ في ألمانيا وحين سمعت أنه قد صدرت مذكرة توقيف غيابيّة بحقي عدّت وسلّمت نفسي".

–الرقيب: "انظروا إلى هذا الظريف، هل يهرب أحد إلى خارج البلاد إن لم يكن قد اقترف ذنباً؟".

–"يا سيدي أنا أقول الحقيقة، سترون أنه سيتم إطلاق سراحي بعد ستة أشهر".

–الرقيب: "حسناً، من الآن فصاعداً ستكون أنت مسؤول المهجع!".

-" اعذرني يا سيدي، لكنني لا أستطيع القيام بهذه المهمة".

-الرقيب: "يا ابن الـ...ستنفّذ ما أقوله، لا يمكنك رفض هذه المهمة".

كان عضو حزب طريق الحرية في مأزقٍ كبير، وكان لابد أن يتخذ قراراً في تلك اللحظة، آخذاً بعين الاعتبار ما سيحصل له، فقال مكرراً كلامه: "لا أستطيع يا سيدي".

-الرقيب: "لِمَ لا تستطيع؟ هل تخاف من الآبوجيين؟ أيها المسؤول اجلب لي حبلاً".

جلب المسؤول حبل الغسيل من الداخل، لفّ الرقيب الحبل حول عنق عضو حزب طريق الحرية ومسك بالطرف الآخر قائلاً: "أين أنت يا عصمت؟".

-كولومبو: "أنا هنا سيدي".

-الرقيب: "تعال إلى هنا!"، وأعطى طرف الحبل الآخر إلى عصمت كولومبو.

-الرقيب: "انظر، هذا الرجل ينتهك القوانين ولا ينفّذ التعليمات التي آمره بها، هل تعلم أن عقوبة رفض القوانين هو الإعدام، أنا وأنت سوف ننفّذ حكم الإعدام بحق هذا الرجل، اسحب الحبل".

و قع رأس الحبل من يد عصمت على الأرض قائلاً: "لا أستطيع، افعلها أنت بنفسك".

-الرقيب: "قلتها قبل الآن، لا مكان لكلمة (لن أفعل) هنا".

رغم أن عصمت كان يعرف أنه سيتعرض للضرب إلا أنه قال: "لا أستطيع فعل ذلك".

كان كل الحرّاس والمعتقلين يراقبون ذلك المشهد، أخذ الرقيب الحبل من الأرض قائلاً: "اسحب رأس الحبل يا عصمت!" فكّر عصمت قليلاً ومن ثم ألقى الحبل أرضاً مرّة أخرى: "أنا أمّي، ولا أجيد القراءة أو الكتابة لذا لا أستطيع فعل ذلك".

لم يستطع المعتقلون تمالك أنفسهم حيال ما قاله عصمت فبدأ الجميع بالضحك، وحين أدرك الرقيب أخيراً أنه لن يستطيع إرغام عصمت على فعل ذلك وبأنه أصبح مثار سخرية المهجع، قال: "احضروا لي وعاءً فارغاً".

قاموا بوضع ذلك الوعاء على رأس أحد المعتقلين وأمروه بالسير، فكان يقع أرضاً ويرتطم بالجدار، لأن الأرض كانت زلقةً نتيجة سكب زيت الزيتون والمربّى، وكان الرقيب والحرّاس يضحكون بصوت عال، وبعد أن استمتعوا بما فيه الكفاية قال الرقيب: "هيا هرولوا بخطواتٍ سريعة!". ركض المعتقلون إلى نهاية المهجع ووقفوا هناك.

قال الرقيب: "فليتقدم اثنان منكم ممن يجيدان الرقص".

آلك الذي لم يفهم ما قاله الرقيب، ذهب إليه وقدّم نفسه: "آلِك...آديمان، أمرك سيدي".

–الرقيب: "ليأتي أحدٌ آخر".

كان آمد وخالو يقفان في الخلف، ولأن آمد لم يرغب بتورط خالو في ذلك الموقف هرع إلى الرقيب قائلاً: "آمد... ديار بكر، أمرك سيدي".

–الرقيب: "إذن أنتما الاثنان فقط تجيدان الرقص في هذا المهجع". ثم أمرهم بالبدء بالرقص.

–آلِك: "لا أجيد الرقص يا سيدي".

–الرقيب: " لِمَ أتيت إذاً أيها الوغد؟".

–آلِك: "ظننت أنك تطلب شيئاً آخر، لذلك أتيت يا سيدي".

–الرقيب: " الأمر بسيط يا ولدي، تعال أمسك يدي سأعلمك كيف ترقص".

وبينما كان الرقيب يحاول تقديم عرضه ذاك تدحرج مع آلك وسقطا أرضاً، فبدأ الحرّاس بالضحك.

–الرقيب: "أنا أعلم كيف سأجعلكم ترقصون هذه الرقصة أيها الملعونان، هيا ارقصا".

– آلِك وآمد: "لا نجيد الرقص يا سيدي".

–الرقيب: "إذاً فلتتزحلقا، هيا اركضا إلى ذلك الحائط وتزحلقا بسرعة".

حين حاول آمد التزحلق سقط على الأرض، فبدء الرقيب بالضحك قائلاً: " استمر، نعم هكذا، إن استمريت على هذه الحال ستصبح أفضل من نسرين توبكابي[8] وإن خرجت من السجن يوماً فلن تكون جائعاً أبداً"

-الرقيب: "إن كان من بينكم أعضاء من الـ (DDKD) فليخرجوا إلي".

كان يوجد في المهجع أربعة مدرّسين تقدّموا نحو الرقيب: "أمرك سيدي".

-الرقيب: "هل تعرفون شاكر توتال".

أحد أعضاء الـ(DDKD): "أنا أعرفه يا سيدي".

-الرقيب: "هل هو زعيمكم؟".

-"هو زعيم الـ(DDKD)، أنا لست منهم. اعتقلت بتهمة الانتماء إليهم".

يا ابن الساقطة... هو زعيمكم لِمَ تنكر ذلك؟! لا يقرُّ أحدٌ هنا بالتهم الموجهة إليه سوى الأبوجيين، حتى قادتكم يدّعون في المحاكم أنهم لم يفعلوا شيئاً، بينما معظم الآبوجيين يعترفون بأنهم يناضلون من أجل إقامة دولة كردستان!". كان كولومبو يصغي باهتمام إلى النقاش الدائر بينهما، فحدّق في عضو الـ(DDKD) ومن ثم في الرقيب وبعدها أحنى رأسه متأمّلاً.

تذّكر كولومبو أيامه في سجن التحصين، وتراءى خيال شاكر توتال أمام ناظره. في ذاك السجن وقعت رسالة من شاكر توتال إلى خطيبته بيد الإدارة وغدت مادةً

---

[8] Nesrin Topkapı، راقصة تركية

دسمة للسخرية بين الجنود، استذكر عصمت كل ما كان يقال في تلك الأيام، كان شاكر يقول في رسالته: "أنا أفكّر بكِ فحسب، لا أستطيع أن أفكّر بشيءٍ آخر غيرك. ما يشغل بالي هو صحتك فقط. لا تدخني سجائر (سامسون) بل دخني (مالبورو) من الآن فصاعداً، ستكون أفضل لصحتك". في ذاك اليوم، وكما اليوم ارتسمت على وجهه ضحكة هادئة، وأدار رأسه إلى الطرف الآخر.

مع سماع صوت الحارس في الخارج وهو يقول: "تفقد" غادر الرقيب والحرّاس، فبدأ المعتقلون بتنظيف المهجع الذي بدا وكأنه ساحة معركة، ورغم أن السجن كان يفتقر إلى الماء وكان المعتقلون يحلقون شعورهم وذقونهم بكأس من الماء عادةً، وكأنهم يقتطعون جزءاً من أجسادهم، تمكنّوا خلال فترة قصيرة من إعادة ترتيب المهجع، ووزّع أعضاء الكومين ما تبقّى من حاجيات على رفاقهم، بدأ كشه بممازحة آلِك: "فخر لنا أن يتواجد بيننا جوهرة من كاهتا آديمان، فحسب معلوماتي إن مدينتك مشهورة فقط بالطماطم والتبغ، لكن يبدو أن ثمة مواهب أخرى هناك".

–آلِك: "في الحقيقة كان عليهم إحضارك، حينها كنت سأريك كيف أجعلك ترقص؟".

–كشه: "كلا يا أخي، لا مكان لي بوجودك أنت وآمد".

يقول ماو تسي تونغ: "الشعب بحر، والثائر سمكةٌ في ذاك البحر". الحركة الثورية نبعٌ ينفجر من أعماق الأرض، ومهما حاولوا تجفيف ذلك النبع القوي

فلن يستطيعوا، لأن الماء سيجمع قوة عظيمة وسينطلق إلى وجه الأرض مرَّةً أخرى".

قامت إدارة السجن بجلبِ مجموعةٍ أخرى من المعتقلين إلى المهجع /33/، كان عدد الثوار يزيد يوماً بعد آخر، ولم يقلِّص التعذيب والقتل من عددهم يوماً. ذاك المهجع لم يعد مسبحة بيد ناسكٍ بل غدا مارداً تملؤه الإرادة والإيمان؛ أساسه الصداقة ولبنته المحبة والوفاء.

كان عدد المعتقلين قد وصل إلى قرابة الـ /140/ معتقلاً، وباتَ المهجع بئراً بلا قاع، إذ كان بابه مفتوحاً دوماً أمام الجميع ولم ينبذ أحداً أبداً.

في ظلمات الليل الأزلية كانت ثمة أربعة أرواح نقيَّة طاهرة أنارت قلوبها وفتحتها أمام الجميع حتى النهاية، وكانت روح الصداقة التي جمعتهم تغلق الباب أمام كل محاولات إدارة السجن لاستمالة أي أحد، تلك الأرواح الأربعة كانت الترياق لكل السموم، تلك السموم التي كانت تحاول الانتشار داخل أروقة المهجع.

كان من ضمن مجموعة المعتقلين الذين وفدوا مؤخراً إلى المهجع /33/، شخص اسمه كامل أوجلان، كان الأسوأ حظاً، فقد تعرّض لأبشع أنواع التعذيب، حيث فتح اسمه عليه كل أبواب الجحيم، ورغم ذلك لم يشتكي يوماً من ذلك.

كان عدد الوافدين الجدد حوالي خمسة عشر معتقلاً، أربعة منهم مدرسون تمَّ اعتقالهم بتهمة الانتماء إلى الـ(DDKD)، وواحد من النقابات اعتقل بتهمة

الانتماء لحزب (طريق الحرية)، أما البقية فقد كانوا أعضاءً في حزب العمال الكردستاني.

أشار الحارس إلى أوجلان: "هذا معاقَب، لن يُقدّم الطعام إليه، ولا يُسمح لأحد بالتحدث معه، هل فهمتم؟".

-مسؤول المهجع: "أمرك سيدي!".

بعد إغلاق باب المهجع توجهت كل الأنظار إلى كامل الذي كان بالكاد يستطيع الوقوف على قدميه بسبب كثرة الضرب الذي تعرض له. هرع أحد المعتقلين القدماء في المهجع إلى كامل وسأله: "هل جلبوك أنت أيضاً إلى هنا يا خال؟".

عانق المعتقل خاله كامل، وبقيا على تلك الحال لفترة دون أن ينطقا بأية كلمة، كان العناق سبيلاً وحيداً لتخفيف وطأة الشوق والألم، لم يتقيد أي من المعتقلين بأوامر الحارس فقام الجميع باستقبال كامل بحفاوة كبيرة.

-نجمي: "فلنترك رفاقنا الوافدين ليأخذوا قسطاً من الراحة، وليقضوا حوائجهم، فلنحضر الطعام لهم، أمامنا وقتٌ طويل، سنتحدث كثيراً".

تعاون جميع المعتقلين على مساعدة رفاقهم الجدد في ترتيب أغراضهم وأسرِّتهم، وجلبوا لهم ما يحتاجونه من ثياب من الكومين كي يستبدلوها بثيابهم المتسخة.

–كامل: "ثيابي مليئة بالقمل، لذا ضعوها جانباً حتى لا تنتقل إليكم أيضاً، فمنذ ثلاثة أشهر لم نرى قطرة ماءٍ واحدة".

–أشرف: "وضعنا لا يختلف عن وضعكم، فالقمل منتشر بيننا أيضاً، كما أننا نواجه صعوبةً في توفير مياه الشرب".

–كامل: "يا أصدقائي، ذلك لا يهم، ما يهمني أنني سررت بلقائكم، وهذا يكفيني".

كان عددٌ كبير من المعتقلين يعرفون كامل، ومعظمهم عرفوه دون أن يلتقوا به حتى. كان كامل في منتصف العمر، ويمتلك حسّاً وطنياً عالياً، فمواقفه من العدو التي تجلت في شخصيته أكسبته احتراماً أكثر في المهجع، وأخبر المعتقلين عن قصته منذ لحظة اعتقاله وحتى مجيئه إلى المهجع.

استطاع كامل أن يحافظ على شخصيته الأصيلة رغم كل الضغوط والتعذيب الذي تعرّض له، فكان يرى أنَّ كل ما تعرّض له كان أمراً طبيعياً.

–كامل: "إن ما تعرضتُ له من تعذيب في المهجع /37/ يفوق بأضعاف ما تعرضت له سابقاً، لقد فوجئت كثيراً لهذا، حينها أدركت مدى الألم الذي تتعرضون له أنتم. أحياناً كثيرة كنت أتمنى لو أنهم أعادوني مرّة أخرى إلى أقبية التحقيق، فقياساً إلى هذا المكان تعتبر تلك الأقبية جنَّةً، أثناء التحقيق كنا نتعرض للضرب والتعذيب حين يأتي دورنا في التحقيق، أي عدَّة مرَّاتٍ في اليوم، وكان يمكننا أن نستريح لبقية اليوم، لكن الوضع هنا مختلف، فثمة

تعذيبٌ وضربٌ كلَّ ثانية ولحظة، لقد جعلوا الحياة هنا كلها عذاباً، وعندما كنت أعايش هذا الوضع في المهجع /37/ كنت استذكركم بعيون دامية، ويولَد في داخلي احترام كبير لكم".

-محمود: "حين جلبوك إلى هنا قال الحارس إن هذا الرجل معاقب، ما سبب ذلك؟".

-كامل: "أيها الرفاق، لن أخفي عنكم شيئاً، أرى أنه من الضروري أن أخبركم بما قلته لهم هناك".

بعد أن ابتسم وتنهّد قليلاً قال كامل: "لقد طلبوا مني بعد هذا العمر أن أتجسس لصالحهم، الأمر الذي أزعجني كثيراً، قلت لحيوانهم الكبير بأن شخصيتي وكرامتي لا تسمحان لي بفعل هذا الشيء أبداً، لا تحاولوا معي بل اذهبوا لاولئك الضعفاء والجبناء. هذا الصباح، وقبل أن يوزّعونا على المهاجع، جاء النقيب وتحدّث معي مرّة أخرى، وأنا بدوري أخبرته ما قلته له سابقاً بشكلٍ واضح وصريح؛ لذلك تمَّت معاقبتي".

كان نجمي يعرف المدرسين الأربعة أعضاء الـ(DDKD)، وبما أن عضو حزب (طريق الحرية) كان من مدينة آمد (ديار بكر) فقد كان آمد يعرفه أيضاً، لذا فقد اهتما بهم واختارا لهم مكاناً مناسباً في المهجع، وبهذا الشكل تم ترتيب مكانٍ ملائمٍ لجميع المعتقلين الجدد وانضموا بذلك إلى قافلة المهجع/33/، ورغم كونهم محاصرين من الجهات كلها ويتعرضون للتعذيب يومياً، إلا أنهم كانوا يمتلكون شيئاً ما في قلوبهم لا يعرف الانكسار، وكانت مقولة أحد القادة

الثوريين تنطبق عليهم تماماً حيث قال ذات مرة: "قد يتمكن العدو من السيطرة على كل ما يحيط بنا، وقد يحيط حياتنا بالنيران ويحاصرنا، عندها يجب أن يتحول القلب إلى ميدانٍ للتحرير، يجب أن يكون القلب قادراً على شحن النفوس بالجرأة والإيمان، و من هناك بالضبط تبدأ الثورة من جديد".

كان ثمة في المهجع /33/ قلوبٌ كثيرة متحرِّرة من الخوف، فكل واحد منهم مستعدٌ للوقوف في وجه العدو حين كان يفرض نفسه، وبهذا الشكل تحوّل المهجع إلى ساحة للتحرّر وغدا حاميةً قوية حتى في أحلك الظروف، شعر المعتقلون بالأمن والمحبة، وكان ذلك المناخ سنداً أساسياً لهم في المكان الموحش ذاك.

كان لا بد عليهم أن يحصِّنوا قلاعهم أكثر فأكثر وفي كل يوم، هذا كان بالنسبة إليهم مسألةً مصيريَّة، أن "تكون أو لاتكون". انتاب القلق فرهاد ورفاقه الذين أسسوا الكومين مرّة أخرى، فقد كان عليهم أن يضبطوا مسؤول المهجع ومساعده كي لا ينقلا ما يحدث داخل المهجع. في الحقيقة أن المهمة التي أوكلتها الإدارة للـ(بارتيزانيين) لم تك تعني أنهم غير شرفاء، لأن هؤلاء الرفاق لم يسرِّبوا أية معلومات من داخل المهجع إلى إدارة السجن رغم الضغوط التي تعرَّضوا لها.

كان مسؤول المهجع ومساعده أكثر من يتعرضان للضرب لأنهما يمثّلان المهجع، فكل سلوكٍ جيد من جانبهم يرفع معنويات المعتقلين, وبالمقابل فكل فعل سيء يقترفانه يخلق جواً من عدم الاستقرار والتوتر.

كان لابد لمسؤول المهجع أن يكون قوياً جسديًّا ومعنوياً، ويعمل حسب المسؤولية الملقاة على عاتقه بدراية وحنكة تامة. عندما مرض مسؤول المهجع كان لا بد من إيجاد بديل له. كانت إدارة السجن أيضاً تولي أهميَّةً بالغة لهذه المهمة، لذا كانت هي من تقوم بتعيينه. لم تك إدارة السجن راضيةً عن مسؤول المهجع /33/ لأنه لم يكن يعطي أية معلومات لهم، لذا كان يتوجب عليها تعيين مسؤول جديد. كان فرهاد يعلم ما كانت تخطط له الإدارة فاجتمع مع رفاقه لمناقشة الوضع.

-فرهاد: "يا رفاق، أنتم تعلمون بأن وضع المهجع يزداد سوءاً يوماً إثرَ الآخر، لذا علينا أن نحضّر أنفسنا جيداً لنكون قادرين على تجاوز هذه الأيام الصعبة".

-نجمي: "إذاً فلنحضِّر أنفسنا".

-فرهاد: "الأمر ليس بهذه السهولة يا نجمي، في الحقيقة ثمة ما يزعجني منذ البداية، يجب أن يكون مسؤول المهجع واحداً منا، فكلُّ من تولَّى مهمة مسؤول المهجع /33/ منذ البداية وحتى اليوم، ورغم بعض التقصير في عملهم، إلا أنهم كانوا يقومون بعملهم بشكلٍ جيد، علينا ألَّا نكون مجحفين في حقهم، الجميع يعلم كيف تم تنظيم المهجع، لا معنى للمبالغة في إظهار القوة، فبعض رفاقنا ضعفاء أمام الظروف الصعبة، وجميعكم تعلمون أن إدارة السجن تسعى منذ أيام لتعيين مسؤولٍ للمهجع، إن أدركت الإدارة هذا الأمر وقامت بتعيين شخصٍ من طرفها، فسيكون الوضع أصعب هنا حينئذ".

-عدنان: "إذاً ماذا يتوجب علينا أن نفعل؟".

–فرهاد: "كما قلتم لكم سابقاً، الإدارة ستعيّن أحد المقربين منها وممن هم تحت سيطرتها. علينا كسب الوقت والتحدث إلى رفاقنا الـ(بارتيزانييِّن)، سنقول لهم عليكم أن تتخلوا عن هذه المهمة وتعلموا إدارة السجن بذلك، حينها ستأتي الإدارة إلى المهجع لتعيين مسؤولٍ جديد، وسيسألون هل ثمة أحدٌ يودُّ أن يقوم بهذه المهمة؟".

"حينها سيتقدم اثنان منّا ويقولان أنهما يريدان تولي هذه المهمة، ولا يجب أن يقبل أحد آخر أي ترشيح من الإدارة عدا اولئك الاثنين، أخبروني الآن، هل يريد أحدٌ منكم أن يقوم بهذه المهمة؟ وأريد أن أوضِّح لكم بأنها ليست مهمَّةً سهلة".

–نجمي: "أنا لا أستطيع فعل ذلك، ولكن إن كان ثمة أحد من رفاقنا يجد نفسه قادراً على القيام بهذا العمل سأكون مساعداً له، أنا قادر على تحمّل المسؤولية بكل تأكيد".

–عدنان: "وأنا قادر على تولي المهمة مع نجمي".

–فرهاد: "برأيي، كلاكما مناسبان لهذه المهمة. فليصبح نجمي المسؤول وعدنان مساعده". أيَّد بقية المعتقلون الآخرون ذلك التكليف، وكانت هذه هي خطَّة المهجع. نفذ المعتقلون الذين حضروا الاجتماع تعليمات فرهاد، فذهب عدنان إلى الـ(بارتيزانيين) فيما ذهب بقية رفاقه إلى المعتقلين الآخرين ليشرحوا لهم ما تمَّ الاتفاق عليه. وبالفعل حدث كما توقّع فرهاد، جاء ملازمٌ برفقة حوالي خمسة عشر حارساً ودخلوا المهجع ليعيِّنوا مسؤولاً جديداً له.

نادى الملازم مسؤول المهجع وسأله: "لِمَ تريد التخلي عن هذه الوظيفة؟".

-المسؤول: "أنا مريض، أصبتُ بالسل في وقت سابق، وصحتي ليست على ما يرام في الآونة الأخيرة".

-الملازم: "حسناً، عد إلى مكانك. اصغوا إليَّ جيداً، مسؤول المهجع يقول أنه مريض لذا لا يستطيع أن يستمر في وظيفته. الآن سأختار من بينكم مسؤولاً جديداً" ونادى على أحد أعضاء (KUK) الذي كان يقف في الصف الأول، فجاء وقدّم نفسه للملازم: "خضر...دياربكر، أمرك سيدي".

-الملازم: "في أي قضيَّةٍ تُحاكَم؟".

-"قضية الـ (KUK) سيدي".

-الملازم: "اصطفَّ جانباً".

أمسك الرقيب بذراع شفيق، الذي كان قد جُلب مؤخراً إلى المهجع وكان يحاكم في قضية (حزب طريق الحرية)،وأحضره إلى الملازم قائلاً: "هذا الشخص يستطيع أن يقوم بهذه الوظيفة سيدي".

-الملازم: "اصطفَّ أنت أيضاً جانباً".

التفت الملازم إلى المرشَّحين وطلب منهما أن يقدما نفسيهما له، وعندما قدما نفسيهما لم يعجب الملازم ذلك فطلب منهما إعادة ذلك بحيويَّةٍ أكبر.

قال شفيق: " أنا لا أستطيع سيدي".

–الملازم: "لماذا لا تستطيع يا ابن الزانية. لم أكلّفكما بوظيفة المسؤول بعد، وإن كلفتكم بذلك ستكونان مجبرين على التنفيذ".

إلا أن كلاهما أبديا عدم قدرتهما على تولي تلك الوظيفة.

–الملازم: "أنتم تخافون من الأبوجيين، أليس كذلك".

–المعتقلان: "كلا سيدي، فهم بشرٌ مثلنا ولا يوجد سبب لنخاف منهم".

–الملازم: "اذهبا إلى مكانكما يا أولاد الزانية. هل يوجد أحدٌ يريد أن يتولى هذه الوظيفة؟".

قدم نجمي وعدنان نفسيهما للملازم وقالا: "نحن نريد سيدي".

لم تعجب الملازم طريقة تقديم عدنان لنفسه، لذا قال له "اذهب إلى مكانك"، وأردف قائلاً: "إن كان ثمة أحدٌ آخر فليأتي" وحين رأى أن لا أحد تقدم، نادى على فتحي الذي كان يقف في الصف الأول: "تعال إلى هنا!".

قدّم فتحي نفسه للملازم كما يجب، قال الملازم: "أحسنت، هذا سيكون المسؤول"، ثم التفت إلى نجمي: "وأنت ستكون المساعد".

–فتحي: "لا أستطيع القيام بذلك سيدي".

–الملازم" ستقوم بذلك أيها الوغد".

–فتحي: "صدَّقني لا أستطيع، ليكن نجمي المسؤول وأنا سأكون مساعده".

التفت الملازم إلى نجمي: "هل تستطيع تولي ذلك؟".

-نجمي: "نعم أستطيع سيدي".

الملازم: "حسنا إذاً، هذا هو مسؤولكم الجديد وهذا مساعده، هل هذا واضح؟".

-المهجع "أمرك سيدي".

وبذلك تم تنفيذ الخطة ولو بشكلٍ جزئي. قال فرهاد لرفاقه: "ضعوا فتحي تحت إشرافكم فلقد أوضح بأنه ضعيف أمام الضرب والتعذيب".

بهذا الشكل استطاع المعتقلون تقوية نقاط الضعف وقلبوها لصالحهم. عندما يلد الإنسان يكون كائناً ضعيفاً، إلا أنه في الوقت ذاته يمتلك الشعور الطبيعي بضرورة حماية نفسه وزيادة نسله، وهكذا يتحول ذلك الضعف إلى قوة، فالأوقات العصيبة التي تتمثل في العيش ضمن بيئة مليئة بالظلم والهيمنة، تخلق الشرارة الأولى لضرورة التحلي بالقوة والإيمان. لا يوجد إنسانٌ مثالي بالمطلق، ولكن التحكم في نقاط الضعف وتوجيهها بالشكل الصحيح من خلال الإرادة القوية كفيلة لتجاوز أصعب المحن، ولكن هل كان معتقلو المهجع /33/ أشخاصاً مثاليين؟ بالطبع لا، لكن كما يقال فإن كثرة الأعمال الصالحة تمحي الذنوب القليلة. كانت نقطة الضعف الرئيسية لدى بعض المعتقلين من أصحاب الإرادة الضعيفة تتمثل في "بطونهم"، فلقد كانت ظروف السجن وطبيعة الأشخاص عاملين أساسييّن في تكوين هكذا نقاط ضعف، إدارة السجن كانت تسعى لبثّ فلسفة مبنية على مقولة "القبطان وحده هو القادر على إنقاذ

سفينته" داخل جدران المهجع، ولكن هل تستطيع المعدة فعلاً أن تقوم بعمل الدماغ، هل يستطيع الشخص الذي يفكر بمعدته دون عقله التطور ولو قيد أنملة؟ بلا شكٍّ لا.

كانت ثمة نقطة ضعف أخرى داخل المهجع /33/، و هي أنَّ الأشخاص الذين لم ينتسبوا للكومين كانوا قسمين, فقسمٌ منهم كان ذو موقفٍ واضح، بينما القسمُ الآخر كان يختلق الذرائع لعدم انضمامه.

في الحقيقة، الأمران يفضيان إلى ذات النتيجة، ولكن الوضوح والانفتاح كان موضع تقديرٍ أكبر، وبغية تفادي ارتمائهم لأحضان العدو كانت منظومة الكومين تبدي التساهل والتسامح معهم، وكان هذا بالطبع موقفاً مبدئياً بالنسبة لفرهاد، وكان عدد معتقلي حزب العمال الكردستاني الذين بقوا خارج الكومين حوالي عشرة أشخاص، أربعة منهم شكَّلوا مجموعة فيما بينهم على أساس روابط مناطقية ومصالح شخصية، أمَّا من تبقَّى منهم فقد كانوا يمضون أيامهم فرادى، كانت تلك السمة السيئة تتطلب مراقبةً ومتابعة, حيث أن أي ثغرة أو فجوة صغيرة ضمن تلك الأجواء كانت كفيلة بخلق ضرر كبير لجميع المعتقلين، لذا كان يتوجب على أعضاء الكومين أن يتحركوا بدقة ودراية تامة وضمن نظامٍ معين، فحين تعرض المعتقلون للضرب الشديد وازدادت وتيرة الضغوط عليهم، لم يتحمّل اثنان منهم التعذيب، وبسبب عدم قدرتهم على الاستمرار في المقاومة فقد وجدوا خلاصهم في ترك الكومين. بلا شك كان بعض الأشخاص الآخرين يضعفون أيضاً ولكنهم كانوا يبقون ضمن صفوف الكومين ويُعرضون على لجانٍ ثورية لمناقشة أوضاعهم، مثال ذلك هسيك، فعندما تم منع دخول السجائر إلى

المهجع من قبل إدارة السجن، لم يستطيع هسبك السيطرة على نفسه، فقام بتجفيف بقايا الشاي وبدأ يدخنه، ورآه رفاقه يفعل ذلك، و قاموا بالتحدّث إليه.

أخبره رفاقه أن ما فعله ليس بالأمر الجيد إطلاقاً، مؤكّدين له بأنه إن لم يأخذ نقاط ضعفه تلك بعين الاعتبار ويتحكم بها فسوف يقع في أخطاء أكبر مستقبلاً، اعترف هسبك بخطأه وأقر بأن ما فعله لم يكن بالأمر الجيد أبداً، كان ذلك المثال درساً لجميع المعتقلين حينها، لقد كانت المواقف الثورية كفيلة بكبح وحل تلك الأنواع من نقاط الضعف.

يعتبر الخضوع لتدريبٍ معتمدٍ على نهج صحيح هو أفضل الطرق ليتجاوز الإنسان أخطاءه ونقاط ضعفه، فالتدريب يهدف إلى تنظيم الحياة الاجتماعية والعملية للإنسان، كان التدريب الثوري في السجن يعتمد على منهجين، نظري وعملي، ولم يتم إهمال هذا الجانب رغم الإمكانات المحدودة والظروف الصعبة، كان فرهاد وبمساعدة بعض رفاقه ممّن هم على درايةٍ بالأمور النظرية يشرفون على تلك التدريبات.

نهض فرهاد من مكانه وذهب إلى آمد ومحمود اللذان كانا يتناقشان بصوت عال منذ قرابة الساعة وسألهما: "ماذا تفعلان؟".

-محمود: "نحن نتناقش فيما بيننا".

–ردَّ فرهاد ضاحكاً: "ظننت أنكما تتعاركان، إذاً ما هو الشيء الذي تناقشونه بصوت منخفض!".

شعر محمود بوجوب التوضيح فقال:

–"قرأ إكرام مقالاً من جريدة ملّييت (Milliyet) منذ قليل ونحن كنا نناقشُ مضمون ذلك المقال".

–فرهاد: "ما هو موضوع نقاشكم؟ أخبروني فلنناقشه سويَّةً".

–محمود: "في الحقيقة الموضوع مهم، لكن الخوض فيه قد يطول".

–فرهاد: "أخبرني".

–محمود: "الموضوع متعلق بمقالة جتين آلتين حول الأيديولوجيا".

–فرهاد: "لقد قرأتُ المقال، لا شيء مهم، سيكون من الأفضل مناقشة مواضيع أكثر أهمية".

جاء إليهم إكرام الذي كان يستمع إلى نقاشهم قائلاً:

–"أنت محقٌّ في ذلك يا فرهاد، إذ أن النقاش الجماعي يساعد على فهم المواضيع بشكلٍ أفضل".

–فرهاد: "ادعُ بقية الرفاق الآخرين أيضاً، ولنحدد موضوعاً ونناقشه سويةٍ".

اجتمع كل الرفاق وجلسوا، قال فرهاد: "تفضل إكرام".

-إكرام: "أيها الرفاق، نقترح أن نحدّد موضوعاً فيما بيننا لمناقشته، لذلك دعوناكم حتى نأخذ رأيكم، فماذا تقولون؟".

وافق الجميع على هذا المقترح.

-آلِك: "أنا أيضاً لدي اقتراح، فلنقسّم المهجع إلى قسمين، وليكن لكل قسم مسؤول، وليُجرى النقاش على هذا الأساس".

-أشرف: "لا عدل في ذلك، فالمجموعة التي ستضم الأخ فرهاد سيكون النقاش فيها أكثر إمتاعاً واحتدامًا".

-ميرفان: "إذاً فليدر الأخ فرهاد النقاش وليستخلص النتائج أيضاً".

وافق الجميع على هذا الاقتراح. قال ميرفان: "وليختر الموضوع بنفسه أيضاً".

-فرهاد: "لا تتركوا اختيار الموضوع لي، تشاوروا فيما بينكم أولاً، ثم اتفقوا على موضوع معين وسنناقشه".

-أشرف: "إذاً فلنحدد مجموعتين للتشاور، فليكن محمود مسؤولاً عن الأولى وإكرام عن الثانية".

بالفعل تم تحديد المجموعتين، وتمَّ التشاور حول الموضوع المطروح للنقاش لمدة ساعة، وفي النهاية تم قبول الموضوع الذي طرحه أشرف، وكان موضوعه يتناول المحاور التالية: (من هم حلفاء ثورة كردستان في الداخل والخارج؟ ما هو مصير الطبقات في وطننا؟). رغم أن معظم المعتقلين وافقوا على مناقشة ذلك الموضوع إلا

أنه كان ثمة من لم يوافق عليه، فمثلاً قال آلِك: "فلنناقش ماضي السجن، حاضره ومستقبله".

–إكرام: "فلنناقش المواقف الثورية وحالة الدفاع في المحاكم، وتأثيراتها".

كان فرهاد يميل إلى اقتراح إكرام، إلَّا أن أغلب المجتمعين وافقوا على اقتراح أشرف.

–فرهاد: "حسناً، سنناقش المواضيع التي تم اختيارها، لكن ثمة شيءٌ نسيناه".

–نجمي: "ما هو؟"

–فرهاد: "يجب أن نأخذ في الحسبان أن هذا النقاش قد يطول، وسيشارك الجميع فيه، لذا علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن الإدارة قد تعمد إلى فعل شيء".

–محمود: "أقصى ما قد تحاول الإدارة فعله في هذا الصدد هو أن تملأ أوقات فراغنا، علينا الاستفادة من مزايا مهجعنا الذي يصعب مراقبته بشكل كامل من خلال جعل مجموعة منَّا تتجول بالقرب من الباب كي يبدو الوضع طبيعيَّاً داخل المهجع في حال تمَّت المراقبة من قبل الحرّاس، كما أنهم سينبهوننا في حال حصول أي طارئ. هذا سيتيح لنا فرصة مناقشة مواضيعنا بأريحيَّة".

كانت النقاشات تجري بين المعتقلين بطريقةٍ ممتعة عبر استخدامهم تكتيكاتهم وأساليبهم الخاصة، وكان يتم مقاطعتها أحياناً عند دخول أحد الحراس إلى

المهجع. استمرت النقاشات لأيامٍ عدَّة، وحين رأى فرهاد أن النقاش سيطول لأكثر من أسبوع أنهاه واستخلص النتائج.

كانت إدارة السجن تركِّز على تدمير مركز الثورة، نواتها الصلبة، الحالة الفكرية للثورة على إثر استسلام المعتقلين، لكن ما قاله أسعد أوكتاي في الـ 26 من أيار: "حتى الذبابة لن تستطيع أن تقاوم في وجودي" لم يتحقق، فلربما لم يعد هناك مقاومة فعليَّة على الأرض إلا أن المقاومة الفكرية لم تنضب أبداً.

كان أسعد أشبه بـ(روبوت) إلى حدٍّ أنه لم يكن على درايةٍ بأمور مثل الفكر، العقيدة، القلب و المشاعر والمقاومة الباطنية، كان يختبئ وراء رتبته العسكرية، ولكنه كان دائم الخوف، فكان عندما يمر عبر ممرات السجن الفارغة يرافقه عشرات الحرّاس؛ يهاجم في كل لحظة من شدَّة خوفه، يخشى ويهرب من كل ما هو جميل، وكلما ازداد خوفه وتهرُّبه، ازداد بطشه وانتهاكه لحقوق المعتقلين الطبيعية.

النقيب أسعد كانَ مجرد هيكل إنسان، ويخاف من كل البشر، كان المعتقلون قد تمترسوا داخل خنادق مقاومتهم الفكرية في المهجع، ولكن أسعد لديه أشخاصاً يعاونونه ويساعدونه لاختراق المهجع، بل وأنه اخترقه عدة مرات مستخدماً أسلوب (حصان طروادة) من خلال بعض العملاء، ولقد بدأ أخيراً بحملة جديدة على المعتقلين أشبه ما تكون بحملات الدولة العثمانية على فيينا، لكن، كيف سينفذ ذلك؟ كيف سيعرف ما يحصل داخل المهجع؟

إن أكثر ما كان يقضُّ مضجع إدارة السجن هي أنها لم تكن تمتلك أي جواسيس داخل المهجع /33/، وبذلك باءت كل هجماتها بالفشل و الهزيمة على أبواب المهجع، فكل من وعد الإدارة بالتجسس لصالحها، من ملمِّع الأحذية، إلى مدرب الكوماندوس وغيرهم كان قد فشل باختراق صفوف المعتقلين الذين تبنَّوا سياسة تشاركيَّة متينة فيما بينهم، حرمت جواسيس الإدارة من المكافآت التي خصصت لهم ووُعدوا بها، وكان ذلك سبباً كافيا لإثارة جنون النقيب، وبينما كان التدريب الثوري مستمراً على قدمٍ وساق، أدرك أسعد أوكتاي أن أوقات الفراغ داخل المهاجع يشكل الخطر والتحدي الأكبر له، وتيقَّن أنه في حال استراح المعتقلون سيسعون جاهدين لتطوير أفكارهم الثورية. لذا بدأ أسعد يعتمد في تدريباته على إعطاء دروسٍ عن "تاريخ ومبادئ وخطابات وكتب أتاتورك" وكان يأمر المعتقلين بحفظها عن ظهر قلب.

لم يكن الهدف يوماً تدريب أو تعليم المعتقلين وتطويرهم، بل إشغالهم وتعطيل تفكيرهم حتى بأصغر الأمور؛ أي تدمير شخصياتهم وتحويلهم إلى مجرد ببغاوات، وكانت تلك المناهج تدفع المعتقلين إلى الجنون بسبب التكرار المفرط لها في طريقة السرد والحفظ لأيام وأشهر وسنين، كانت الإدارة تسعى ببساطة إلى إتلاف أدمغتهم.

باختصار، أرداوا إبعاد المعتقلين عن أفكارهم الأصيلة، معتقداتهم، قيمهم، شعبهم، ثورتهم وحزبهم بهدف خلق إنسانٍ يشبه أي شيءٍ عدا الإنسان نفسه.

كانت تدريبات السجن تتم على الشكل التالي، في البداية يُجبَرُ المعتقلون على الاستيقاظ في الخامسة صباحاً، يؤدُّون القسم ويردِّدون نشيد "الاستقلال" و "خطاب أتاتورك للشباب التركي"، وبعدها يتم منحهم استراحة لمدة خمس دقائق لقضاء الحاجة التي كانت تتضمن حلق اللحية أيضاً، بعد ذلك تتم عملية التفقد ليليها العدُّ والترديد حيث يقوم أحد المعتقلين بقراءة تاريخ الثورة التركية، فيما البقية يرددون خلفه ضمن نظامِ عدٍّ معين. بعد الانتهاء من ذلك إما يتم إخراجهم إلى فسحة التنفّس أو يأمرونهم بالمسير المنتظم داخل المهجع أو قراءة وحفظ الأناشيد والكتب، وعندما تخفُت أصوات المعتقلين بفعل ترديد الأناشيد بصوت عالٍ لعشرات المرات، يأمرونهم بالانتقال لقراءة الكتب.

كانت التدريبات تتوقف لمدة نصف ساعة فقط وقت الغداء، لتستأنف من جديد بعد ذلك حتى ساعات المساء. كان المعتقلون مجبرين على الوقوف باستعداد أثناء ترديد الأناشيد وقراءة الكتب، بالطبع كان التدخين وقضاء الحاجة أموراً ممنوعةً بالمطلق أثناء ذلك، وكل من يخالف يعاقب أشدَّ العقوبة.

سبق أن تحدثنا عن مزايا وعيوب المهجع /33/، وكان المعتقلون يستغلون جميع مزايا المهجع على أكمل وجه لحرمان الإدارة من تحقيق أهدافها بشكل كامل. فحين كانت إحدى المجموعات تتلقّى التدريب أو تردد النشيد، يقفون عند الباب في وضعيَّةٍ تتيح للحارس رؤيتهم من خلال كوّة الباب، وبهذا الشكل كان بعض المعتقلين يقضون حوائجهم بالتناوب، وكان البعض الآخر يقوم بأعمال أخرى، بمعنىً آخر كانت الثورة وأعداؤها في صراعٍ محتدم ومتواز في كافة مجالات الحياة، والطرف الذي كان يستطيع استغلال الظروف والفرص

ويقلبها لصالحه بطريقةٍ صائبة كان يرجِّح الكفّة لصالحه، لم يكن معتقلوا المهجع /33/ يتجاهلون أي فراغ أو نقاط ضعف، بل يحاولون تحويلها لصالحهم، لذا يعملون كخلية نمل ويحفرون بئراً بواسطة إبرة.

لفت أحد المدرسين من الـ(DDKD) انتباه أشرف، لذا اقترب منه بحماسة كبيرة قائلاً له: "أعذرني يا أستاذ، لقد لفتت انتباهي لذا أردت أن أسألك، ألا تضع هذا الكتاب من يدك أبداً؟".

-المدرس: "صديقي أنا أعمل كمدرس، وهذا الكتاب يتم تدريسه في الخارج كمادة إلزامية في المدارس الثانوية، وحين أخرج من السجن سأقوم بتدريسه كمادةٍ تكميلية، لذلك أقوم بقراءته، وفي كل الأحوال نحن نقرأه، لذلك أودّ استغلال أوقات الفراغ والتمكن منه، إلى جانب ذلك، فقد طلب الرقيب منّا مؤخراً عبر مكبرات الصوت كتابة مقالة وأنا أعمل على ذلك أيضاً".

-أشرف: "يبدو عليك أنك رجل عاقل يا أستاذ، فهل ترى هذه الأشياء ضروريَّة؟".

انضم إليهم جاهد، الذي اعتقل بتهمة الانتماء لـ (DDKD) وسألهما: "ماذا تفعلان يا رفاق؟".

-أشرف: "كنت اتناقش أنا والأستاذ قليلاً، فهو يعمل على هذا الكتاب، وأعتقد انه يريد أن يدرّسه كمادةٍ تكميليَّة في المدارس الثانوية".

كان جاهد رجلاً مرحاً ولا يشبه أعضاء الـ(DDKD)، إذ كانت معاملته للآخرين مبنيَّة على فلسفة الحياة اليوميَّة.

عقّب جاهد على ما قاله أشرف ممازحاً إياه: "إن قال أستاذنا أنه سيقوم بذلك، فإنه بالتأكيد سيفعلها. لو كنتُ مكانه لاستثمرت طاقاتي في أعمالٍ أفضل وأكثر إفادة".

-أشرف: "ماذا كنتَ ستفعل لو كنت مكانه؟".

جاهد: " بالطبع أنت لن تظن أن رجلاً مثلي سيذهب ويدرّس هذا الكتاب للطلاب، أليس كذلك؟ في الحقيقة، حالما أخرج من هنا سأذهب إلى سكان مدينة [9]جونكوش، وسأقول لهم يا شعبي العزيز لقد قضيت سنوات سجني الصعبة مع الآبوجيين الحقيقيين، وسأخبرهم ما يحدث فعلاً داخل هذا السجن، وسأرشّح نفسي لرئاسة البلدية أيضاً. أثمةَ عمل أفضل من ذلك؟ بفضلكم سأكسب منصب رئاسة بلدية (جونكوش) الحلم الذي يراودني منذ سنوات".

-" و هل يُعتبر التدريس عملاً أصلاً، عوضاً عن ذلك كنت سأعمل محاسباً لدى أحد زعماء المافيا، فهو عمل مربحٌ أكثر، عندما يستولي الجشع على الإنسان فإنه لن يتردد في فعل أي شيء، أقسم لك بأنه لا يوجد عمل أكثر ربحاً من هذا، انظر (مشيراً إلى عضو حزب طريق الحرية) ذلك الرجل على مستوى اللجنة المركزية ضمن حزبه، وصل إلى ألمانيا ومن ثم عاد ليسلّم نفسه، وهو لا

---

[9] Çüngüş، مدينة تابعة لآمد/ دياربكر.

يذهب لمقابلة والديه أثناء الزيارات كي لا يتعرض للضرب، هو بالضبط مثل أستاذنا هذا مهووسٌ بالأشياء الصغيرة والتافهة، فجلّ أحلامه تتمحور حول خروجه من السجن والذهاب إلى أزمير لكي يجد عملاً وزوجةً وعائلة هناك".

-"انظر يا صديقي, أليس مفهوم الثورة مرتبطاً بالتطور؟! هؤلاء الأشخاص باتوا خائفين حتى من حروف كلمة (ثورة). صدقوني، أقولها بجديّة، لم تتح لي فرصة معرفة الآبوجيين في الخارج، إلا أنني عرفتكم هنا داخل هذا السجن، وهذا يكفي شخصاً مثلي، أنا على يقينٍ تامّ بأنه لا أحد غيركم قادرٌ على إحداث أي تغيير".

-"فبينما أستاذنا هذا لا يفارق كتاب تاريخ الانقلابات في تركيا، يقوم رفاقكم بصنع تاريخ الثورة بكل جدّ وإيمان، البونُ شاسعٌ، هذا المهجع يمثل فسيفساء كردستان، فالجميع هنا، وقد عرفت الجميع، وكان بالنسبة لي أفضل مكانٍ لمعرفة الحقيقة، لذا اتركوا الأستاذ ليكمل قراءة كتابه".

بقي الأستاذ صامتاً لفترة حيال ما قاله رفيقه جاهد، ثم قال له بحياء: "يا معلم جاهد، هل تدرك بأنك أهنتني بكلماتك تلك؟".

-جاهد: "كلا يا حضرة المدير، أنا قلت الحقيقة فحسب، أين الإهانة في ذلك؟ لا داع لشعورك هذا بالإساءة يا صديقي، أنا قلت ما يدور في خلدي وأكرره الآن، بفضل هؤلاء الرجال سأصبح رئيس بلدية (جونكوش). ومهما كانت الحقائق مؤلمة علينا تقبُّلها".

بعد أن هدأت حدّة النقاش تفرق الجميع، وتوجَّه جاهد هذه المرّة إلى نجمي، فهو كان يحبّه ويحترمه كثيراً.

كان مصدر دخْل المعتقلين هو المبالغ المالية التي كانت ترسلها لهم عائلاتهم المعدمة أصلاً، فأهالي المعتقلين كانوا على دراية تامة بالظروف التي تحيط بأبنائهم داخل جدران السجن، وكانت قلوبهم تحترق لذلك، لذا يحاولون تقديم كل ما بوسعهم لهم، فقط كي لا يموتوا بسرعة، كما واعتادوا على اقتراض النقود كل أسبوع وأرسالها لأولادهم.

كان آباء وأمهات وأقارب المعتقلين يحاولون تلبية احتياجات أبنائهم وأقربائهم القابعين في الزنزانات، حيث يضطرَّ بعضهم لبيع بساتينهم و أراضيهم، وبعضهم الآخر يرسل معظم راتبه التقاعدي أو مدَّخرات عملهم اليومي؛ باختصار، ذاك هو حبّ الأبناء.

هل يمكن للوالدين ادِّخار أي جهد في سبيل إسعاد أبنائهم؟ لكن الأهل هنا في الخارج وأولادهم داخل السجن، وكلاهما يكتويان بلهيب العذاب، فكلٌّ منهم يعيش في عالمٍ منفصل تماماً عن الآخر، كان الأهل يدركون أن أبناءهم قابعون داخل القبور، لكن عزاؤهم الوحيد كان بأنهم لا يزالون على قيد الحياة رغم كل شيء، لقد كانت خيالات أبنائهم تراودهم حتى في أحلامهم ولكنهم لم يستطيعوا فعل أي شيء حيالهم، وبسبب ذلك العجز والألم الشديد، لم تستطع قلوب الكثيرين من اولئك الآباء والأمهات تحمّل كل ذلك العذاب فرحلوا عن هذه الحياة بصمت، ولم يسمع الكثير من المعتقلين بخبر وفاة والديه أو أحدهما.

كيف لهم أن يسمعوا أو يعرفوا بذلك؟ كان القابعون في الزنزانات المتجاورة يجهلون تماماً أي شيء عن بعضهم البعض، وكذلك الحال داخل المهاجع، فلقد باتت كل زنزانة وكل مهجع عالماً منعزلا عن الآخر، وكان القاسم المشترك الوحيد بين تلك العوالم هو التعذيب ولا شيء سواه.

كان يتم إنفاق معظم الأموال التي يتلقاها المعتقلون من ذويهم على شراء الدهان الزيتي، الكرتون، فراشي التلوين، ومستلزمات الدهان بأمر من إدارة السجن، وكان الحراس يُجبرون المعتقلين على رسم لوحات وكتابات مختلفة على الجدران، كصور كمال أتاتورك والأعلام والشعارات التركية. وهكذا ملؤوا كل جدران وأسقف الممرات والمهاجع وحتى دورات المياه بتلك الصور والشعارات.

فتح الحارس كوّة باب المهجع /33/: "يا مسؤول المهجع، تعال إلى هنا بسرعة".

هرع المسؤول إلى الباب: "أمرك سيدي!".

–الحارس: "انظر يا بني، ستزيّنون كل مكان بالعلم التركي، لا تتركوا أي مكان فارغ، حتى السقف، إن رأيت شبرا فارغاً فستحلُّ عليكم اللعنة حينها".

–المسؤول: "السقف عالٍ جداً، ونحن لا نمتلك المال، لذلك لا نستطيع أن نفعل ذلك سيدي".

–الحارس: "أنا لا أفهم هذا الكلام أيها الوغد، ستنفّذون ما قلته، سأضيف الطلاء إلى لائحة المشتريات في البوفيه كي يجلبوه".

بعد خروج الحارس من المهجع ذهب نجمي إلى فرهاد وأخبره ما قاله لهم الحارس.

-فرهاد: "لا يمكن لموضوع الطلاء هذا أن يستمر، فقد صرفنا حوالي /100.000/ ليرة تركية على الطلاء لحد الآن، وأعتقد أننا سنصرف ذات المبلغ في حال نفَّذنا أوامر الحارس، يجب أن نجد حلّاً لهذا الأمر. فلتنادي آمد، أعتقد أنه كان يعمل في مجال الطلاء عندما كان في الخارج، لعلَّهُ يكون ملمَّاً بهذه الأشياء".

عندما جاء آمد قال له فرهاد: "تعال يا معلم آمد، أنت الوحيد الذي سيخلِّصنا من هذا المأزق".

-آمد: "أيَّ مأزقٍ يا أخي؟".

-فرهاد: "هؤلاء الرجال يسرقوننا بشكل رسمي، لقد أمر الحارس المعتقلين بالرسم على الجدران والأسقف، علاوة على ذلك فهو يريده بالدهان الزيتي، برأيك كم سيكلّف ذلك؟".

فكّر آمد قليلاً: "المهجع كبير جداً فهو أشبه بحيٍّ كبير، لا أعرف كم سيكلّف".

-فرهاد: "دعك من المهجع الآن، كم سيكلّف؟".

-آمد: " حوالي /100/ ألف ليرة".

قفز فرهاد من مكانه قائلاً: "أيجوز هذا؟ لن نستطيع تأمين هذا المبلغ البتَّة".

-آمد: "إن أردتم نستطيع أن نجد طلاءً أرخص".

-فرهاد: "نعم، نحن نريد شيئاً رخيصاً".

-آمد: "سيكلّف ذلك حوالي ألف أو الف وخمسمائة ليرة".

-فرهاد: "كيف ذلك يا آمد، أخبرنا كيف حسبت ذلك، ثمة فرق كبير بين المبلغين".

-آمد: "سنستبدل الطلاء اللامع بطلاءٍ جاف، فليذهب نجمي ويخبر الحارس أننا نريد ثلاثة كيلو من الطلاء واثنا عشر كيلو من الجصّ والقليل من الجير وبعض كيلو غرامات من الملح، وفرشاتين وسنقوم بالمهمة".

-فرهاد: "هذا أفضل حلٍّ ممكن. اذهب يا نجمي وأطلب هذه الأشياء من الحارس كي يجلبها لنا، وليجمع آمد بعض الرفاق لتجهيز الطلاء. لأننا لم نرفض ذلك، لا نستطيع رفض أوامرهم، لكننا سننفِّذها بأقلِّ التكاليف".

دقّ نجمي على كوّة الباب مستدعياً الحارس.

-الحارس: "ماذا تريد يا هذا؟"

-نجمي: "سيدي، لو جلبتم لنا ثلاثة كيلوغرامات من الطلاء الجاف وبعض الجصّ والملح وفرشاتين، فسندهن المهجع كله كما طلبتم في وقتٍ قصير".

–الحارس: "حسناً، سأحضِّر لكم الطلاء، وأنتم ستقومون بالعمل".

بهذا الشكل تخلّص معتقلو المهجع /33/ من مشكلة الطلاء أيضاً.

كانت إدارة السجن ترى في الجصّ مادة ضارة لذلك لم تسمح بجلبه لكن تم جلب بقية المواد.

بدأ آمد، أشرف، كشه وبعض الرفاق الآخرين بأعمال الدهان، وكانوا سينهون العمل في وقت قصير إلا أنَّ ارتفاع السقف حال دون ذلك، لذلك استغرق العمل مدة شهر تقريباً. لم يكن الطلاء جيداً، لعدم وجود الجصّ، فقاموا بخلط الطلاء مع الماء وضربوها على الجدران والأسقف، لذلك ومع هبوب أخفِّ النسمات كانت قطع الطلاء تتناثر في المهجع، الأمر الذي كان يزعج المعتقلين والحرَّاس على حدٍّ سواء.

كان يتم رسم صور أتاتورك والشعارات الأخرى بالدهان اللامع، وثمة معتقل يدعى ياسين، من ضمن الرسامين الذين يقومون بذلك العمل، كان ياسين شغوفاً بما يقوم به، فيعيد الرسم عدة مرات حين يخطأ بتفصيلٍ معيَّن، لاحظ فرهاد ذلك فنادى أشرف قائلاً له: "أنا ألاحظ أن ياسين غارقٌ في شغفه ذاك، ابقى معه وقل له دع الرسم كما هو بأخطائه فلن يثنوا عليه أو يمنحوه وساماً لإبداعاته". و بما أن أشرف لم يكن يحبّ تلك الرسومات قطّ فقد تولى تلك المهمة بكل سرور.

صاح الحارس بصوتٍ عال: "اصطفوا للتفقّد!".

انضم المعتقلون الذين كانوا يعملون إلى الرتل للتفقّد، واصطفَّ الجميع على نسقٍ واحد كقافلة، على شكل قوس يمتد من الباب وينتهي عنده في الجانب الآخر، كان الجميع يعرف مكانه جيداً ويبدؤون العد للتفقد مع دخول الضباط المناوبين برفقة عشرات الحرّاس.

قدّم نجمي تقرير المهجع /33/: "142 معتقل في المهجع 33 تحت إمرتك سيدي".

قال الملازم صغير الحجم: "ابدأوا العد".

بدأ المعتقلون بالعدّ: "1...2...59...99...142".

حين همَّ الملازم بالخروج هرع إليه أشرف مقدِّماً نفسه: "أشرف آنيك، أورفا، سيدي".

–الملازم: "ماذا هناك؟".

–أشرف: "سيدي لقد جلب لي أهلي النقود عند زيارتهم لي لكن لم تصلني بعد".

بعد أن نظر الملازم صغير الحجم إلى أشرف بازدراء، قال له: "حسناً، إذاً فأنت على دراية بأنهم قد أرسلوا لك النقود؟".

–أشرف: "نعم يا سيدي، أهلي أخبروني بذلك".

التفت الملازم إلى الحارس: "اذهب واحضر لي السجل المالي".

بعد أن تفقَّد السجل قال لأشرف: "أنت تكذب أيها الوغد، هل تعرف عقوبة من يكذب، الآن سأريك". ومن ثم طلب من الحارس أن يجلب له هراوة.

كان ذلك الملازم صغير الحجم وضخماً في الوقت نفسه، وكان المعتقلون يشكّون أنه كان تابعاً للأمن السياسي، فهو من يدير ويُشرف على كل عمليات التعذيب في السجن بنفسه، وعلى خلاف بدانته كان المعتقلون يطلقون عليه اسم "الصغير". قام الملازم الصغير بنزع ساعته من يده، وكان يفعل ذلك في بداية كل جلسة تعذيب، ولم يكن أحد يعلم ما السبب وراء ذلك، أكان بسبب حبه للساعة، أم ليتمكَّن من الضرب والتعذيب بأريحيَّةٍ أكبر.

حين جلب له الحارس الهراوة بدأ بضرب أشرف حتى تَعِب. وبعدها سأل أشرف: "قل لي، هل جلبوا لك النقود؟".

-أشرف: "نعم سيدي".

-الملازم: "حسناً، طالما أنت مصرّ على ذلك فلتقل ذلك في الزنزانة المنفردة".

بقي أشرف في الزنزانة المنفردة لمدة ثلاثة أيام وتعرَّض للتعذيب بشكلٍ يومي، وبعدها أعادوه إلى المهجع.

سأله رفاقه بلهفة: "أين كنت وماذا فعلوا بك؟".

-أشرف: "أخذوني إلى المهجع /37/ ووضعوني داخل زنزانة منفردة".

- "ماذا حدث بعدها؟".

-أشرف: "ما الذي قد يحدث؟ فالنقود لم تصلني".

-"هل يعني ذلك أن الملازم الصغير قد أخذها؟".

-أشرف: "دون شك، هو من أخذها، لأنه هو من كان يقوم بتعذيبي كل يوم هناك، وكان يقول لي دائماً: "قل أنه لم يتم إرسال أي نقود لك وسأعيدك إلى المهجع"، في النهاية قبلت بذلك وأعادوني إلى المهجع".

كانت الحياة أشبه بمطرقةٍ تزداد شدة ضرباتها يوماً إثرَ الآخر، فحين كان المعتقلون يصبحون خائري القوى وكانت الإدارة تدرك أن السكّين قد بلغت العظم كانوا يزيدون الضغط أكثر فأكثر؛ لقد جعلوا الحياة كلها، بكل تفاصيها عبارة عن بيئةٍ للتعذيب، وتحت تلك الظروف القاسية قاموا بتحويل مجموعة آمد (ديار بكر) إلى المحكمة، فإلى جانب محاكم الجمهورية التركية، كانت محكمة (الرقباء) تواصل مهامها أيضاً في تنفيذ أحكام الإعدام الفورية.

في طريق العودة من المحكمة، اقترب آمد من تكين الذي كان معتقلاً في المهجع /7/، لم يكن قد رآه منذ فترة طويلة، بعد أن سلّما على بعضهما البعض انتقلا للتحدث في الموضوع الرئيسي.

-آمد: كيف حالكم يا تكين؟ هل هناك الكثير من التعذيب عندكم؟".

-تكين: " ما هذا السؤال؟ إنهم يضربوننا كل يوم، لقد أفقدونا إيماننا من كثرة التعذيب".

–آمد: "أثمة من ينقلُ الأخبار في مهجعكم؟".

–تكين: "نعم هناك ثلاثة. أخبرني أنت كيف هي أحوالكم؟".

–آمد: " نحن أيضاً نتعرض للتعذيب اليومي، كما أننا نعاني من شحٍّ في الماء والطعام. لكن لا يوجد مَن ينقلُ الأخبار داخل مهجعنا".

كان الحرّاس قد شكلوا حائطاً بشرياً وفي كل لحظة يقولون: "لا تتكلموا، من هذا الذي يتكلم؟"، وبعد أن عادوا إلى أحاديثهم تابع آمد وتكين.

–آمد: "أيوجد لديكم كومين يا تكين؟".

تكين: "أي كومين يا رجل، في مهجعنا لا يجتمع شخصان معاً من شدة الخوف، فكيف سيأسسِّون الكومين!!".

بناءً على تعليمات فرهاد قال آمد لتكين: "اجتمعوا مع الأشخاص الصادقين وأسسوا كوميناً. إن كنتم تنظرون إلى أنفسكم بعيون ثورية عليكم أن تفعلوا كل ما بوسعكم". كان من بين مجموعة مدينة آمد(ديار بكر) شرطيٌّ يحاكَم أيضاً، وسمع كلَّ الحديث الذي دار بين آمد وتكين. ذلك الشرطي كان لا يزال يقوم بعمله المعتاد داخل السجن أيضاً.

عند وصولهم إلى السجن، أخذ الحراسُ المعتقلينَ إلى الممرات، حرّروهم من قيودهم ووزّعوهم على المهاجع. قال الحارس: "ليدخل معتقلو المهجع /33/، ومن بعدهم معتقلو المهجع /32/". سار المعتقلون بمشيةٍ عسكرية منتظمة وهم

يرددون الأناشيد لحين وصولهم إلى باب المهجع، قال الحارس لمسؤول المهجع /32/: "خذ معتقلي مهجعك إلى الداخل، سأتسلّى بأولاد الزانية هؤلاء". التفت الحارس إليهم قائلاً: "يا أولاد الزانية، ما الذي فعلتموه مجدداً؟". بعد أن ضرب الحارس المعتقلين العائدين من المحكمة عشرين ضربة بالهراوة سألهم: "هيا قولوا لي من منكم تكلّم في السيارة؟ إما أن تقولوا أو سأجعلكم تتكلمون بطريقتي". ثم صرخ: "إن كان رجلاً فليتقدم وليقل أنا هو". حين رأى أن أحداً لم يتكلم بدأ بضربهم بشكلٍ عشوائي.

-عدنان: "لم يتكلم أحد منّا سيدي".

-الحارس: "أيها الكاذبون، سأ...، الآن سأخرج ذاك الوغد، ماذا ستقولون حينها؟".

المعتقلون بصوت واحد: "قم بذلك سيدي".

طبعا لم يكن المعتقلون في وضعٍ يمكنهم تحمّل المزيد من الضرب، كانوا ممددين على الأرض نصف غائبين عن الوعي. فأصواتهم وصلت حتى إلى أبعد المهاجع، كان رفاقهم في الداخل مدركين لحالتهم، لذا وقفوا في أماكنهم صامتين. وحين رأوا الضرب والتعذيب الذي حصل في هذا اليوم أدركوا أن الوضع سيزداد نحو الأسوء.

فتح الحارس كوّة الباب قائلاً: "أيها المسؤول ليأتي البعض منكم وليأخذوا هؤلاء".

بعد أن أدخل المعتقلون رفاقهم إلى المهجع، نادى الحارس مسؤول المهجع مرّة أخرى: "انظر أيها الوغد، هؤلاء معاقبون، لا تقدّم لهم الطعام، الماء، ولا أي شيء آخر. ضع حارساً عليهم، وإن رأيت أحداً حولهم سأحرقكم جميعاً، يجب أن تقدّم لي التقرير حين أفتح كوّة الباب". ومن ثم خرج من المهجع.

على الرغم من الضرب الشديد الذي تعرّض له المعتقلون، إلا أنهم شعروا بالارتياح عند دخولهم المهجع. قال فرهاد لرفاقه المجتمعين حولهم ليعرفوا ما جرى معهم: "اعطونا السجائر والماء أولاً، وبعدها سنخبركم بكل شيء". نفَّذ الرفاق ما طلبه فرهاد، وبعدها أخبرهم بإيجاز ما حصل في المحكمة، ثم قال لهم: "اذهبوا الآن حتى لا يراكم الحارس حولنا، سنتحدث فيما بعد بإسهاب".

بعد مرور 24 ساعة، تم تبديل مناوبة الحرس، وأتى حارس آخر، ففتح كوّة باب المهجع /33/: "أيها المعاقبون هل أكلتم؟".

المعاقبون بصوت واحد: "كلا سيدي".

–الحارس: "حسناً يا بني لقد عفوت عنكم، اذهبوا لتناول العشاء وناموا".

إلا أن المعتقلين المعاقبين كانوا قد أكلوا ودخنّوا وقضوا حوائجهم حتى قبل أن يأتي الحارس ويعفوا عنهم، هم فقط التزموا بأمر جلوسهم تحت مراجل المياه، لم يكن رفاقهم قد ناموا بعد، لذا وبعد أن تم العفو عنهم أتوا إليهم وسألوهم عن الوضع في المحكمة ولماذا تمت معاقبتهم. تحدّث فرهاد عن الوضع في المحكمة

وعن خطابات خيري، كذلك تحدّث آمد عن سبب تعرضهم للضرب والعقوبة. التفت فرهاد إلى آمد سائلاً إيَّاه: "هل تعرف من وشى بنا؟".

-آمد: "نعم يا أخي أعرف، إنه الشرطي الذي كان يجلس خلفي، لقد كان يستمع إلى حديثنا. لم أنتبه لوجوده أبداً. عديم الشرف ذاك يخدم دولته من خلال الوشاية بمن هم داخل السجون".

-عدنان: "الجميع كان يستمع إلى حديثك وليس الشرطي فقط".

فرهاد: "فليستمعوا لذلك، هذا أفضل، نحن لا نبتغي السوء لهم، بل نقول أنه يجب أن نتوحَّد".

الفصل الرابع

داخل هذا السجن الذي يشبهُ لحدٍّ كبير غواصة مصنوعة من الخرسانة والاسمنت مدعمة بأبواب وقضبان حديدية هائلة، كان المعتقلون بعيدين كل البعد عن جلبة الحياة، تلك الغواصة التي تفتقد حتى لفتحات التهوية كانت تبحر الآن في رحلة لآلاف الفراسخ في أعماقٍ لا متناهية، وكان المسافرون على متنها جياعاً عطشى، وبعيدون عن كل ما يمتُّ للحياة بأية صلة.

كان العدو ورغم جبروته السقيم لا يرحم مطلقاً، والمعتقلون كمثل المحاربين المجردين من أي سلاحٍ خلا أجسادهم الهزيلة وعقيدتهم الثابتة وجهاً لوجه أمام أعدادٍ غفيرة من مصاصي الدماء.

قد يكون بمقدور المرء أن يعيش بدون خبز، لكنه لن يستطيع أن يعيش على الخبز فقط، فكيف لو كان بلا متنفَّس وبلا أناس يحيطون به.

كان المعتقلون يشبهون الشمع الذي يذوب شيئاً فشيئاً، فباتوا مثل هياكل عظميَّة بالكاد تُرى، غارت عيونهم داخل محاجرها، وبالكاد يستطيعون الوقوف على أرجلهم، يصرخون في المحاكم بنظراتهم المستوحشة وألسنتهم الجافة وأعينهم التي كانت تحمل في طياتها ألف ألف معنى.

تم إخماد حركة المقاومين داخل سجن آمد وبات الجلَّادون يتجولون عبر الممرَّات جيئةً وذهاباً، مراراً وتكراراً لإظهار هيمنتهم وجبروتهم، وكان البعض منهم يقفون في الزوايا كمثل الغربان التي تتحيَّن الفرصة لنهش الجيف المرمية

هنا وهناك، كانت صرخات المعتقلين في سجن آمد تقضُّ مضجع سكان حي باغلار[10] وتوقظ سكانها ليلاً، لم يستطع أطفال الحي النوم. وبينما كانت الأغلبية الصامتة تغط في نوم الموتى كان بعض معتقلي السجن يقارعون الظلم ويتعرضون لأبشع أنواع التعذيب.

كان شهر تشرين الثاني بالنسبة للمقاومين داخل سجن آمد كابوساً بشعاً وخنجراً خبيثاً يطعن أجسادهم، إذ يعتبر يوم العاشر من ذلك الشهر يوم حدادٍ بالنسبة للجمهورية التركية، فهو اليوم الذي مات فيه كمال أتاتورك، ويتوجَّب على الجميع الحزن عليه والبكاء لأجله و الاتِّشاح بالسواد، من تلاميذ المدارس الابتدائية وحتى العجائز، حتى لو كان ذلك تمثيلاً، فهذا أمرٌ وقانون! فالذين يحبّون أتاتورك سيلبسون الأسود ويقيمون الحداد لأجله، أما الذين لا يعرفون البكاء وذرف الدموع، يجب عليهم التظاهر بذلك.

كان ذلك الأمر والقانون سارياً داخل جدران السجن أيضاً، وكثيراً ما تم إجبار المعتقلين على التقيد به. أمرَ النقيب أسعد أوكتاي المعتقلين التوشّح بالسواد وإقامة الحداد في يوم الـ 10 تشرين الثاني ليجعل منه يوماً أسوداً على المعتقلين أيضاً.

أيقظ المناوبُ الصباحيُّ رفاقه: "أيها الرفاق، استيقظوا، اليوم هو العاشر من تشرين الثاني، قد يقومون بجولة على المهاجع".

---

[10] باغلار: حي وسط مدينة آمد/ دياربكر

نزل المعتقلون من أسرّتهم وقاموا بقضاء حوائجهم وحلق لحاهم، ولم يلاحظ أحد أن كوّة الباب قد فتحت.

–الحارس: "أين أنتم أيها الأوغاد؟".

أسرع ثلاثة معتقلين إلى الباب مقدِّمينَ له التقرير.

–الحارس: "هيا اسرعوا، أخرجوا عربة الطعام، وليكن الجميع في وضعيَّة الاستعداد لتناول الطعام عندما أعود".

–المعتقلون بصوت واحد: "أمرك سيدي".

لم يكن قد تم تقديم الفطور الصباحي لمعتقلي المهجع /33/ منذ أكثر من شهر تقريباً، وعوضاً عن ذلك فقد خصصوا وقت الإفطار للضرب والتعذيب، لكن صباح ذلك اليوم، تمَّ جلبْ الفطور لهم ولم يتعرضوا للضرب، الأمر الذي أفسح المجال لتعليقاتٍ وتعقيبات مختلفة بين المعتقلين. عندما فُتح باب المهجع هرع اثنان من المعتقلين لإدخال عربة الطعام إلى الداخل.

–الحارس: "فلتتلوا الدعاء أيها المسؤول".

–المسؤول: "أمرك سيدي. بسم الله...الحمد لله".

–الحارس: "بالهناء والشفاء".

–المعتقلون بصوتٍ واحد: "شكراً سيدي".

–الحارس: "أيها المسؤول تعال إلى هنا، بعد الانتهاء من تناول الفطور رددوا النشيد الوطني وخطاب أتاتورك للشباب التركي!". ثم خرج مغادراً.

عند سماع صوت كوَّة الباب تفتح من جديد، وقف المعتقلون الذين همُّوا بتناول طعامهم بوضعيَّة الاستعداد مرَّةً أخرى.

–الحارس: "أيها المسؤول، بعد أن ترددوا ما طلبتهم منكم بصوت عال، استريحوا".

ترك الأمرُ استفهاماتٍ عديدة في رؤوس المعتقلين، إذ كان الموقفُ يحدث لأول مرّة داخل السجن.

اقترب عدنان إلى آمد قائلاً له: "ما تفسيرك للأمر، ماذا يحدث؟".

–آمد: "أنا أيضاً لا أعلم، فمن الصعب فهم سياسة هؤلاء، لا أحد يعرف ماذا سيفعلون أو متى، هل تعلم أن اليوم هو الـ 10 تشرين الثاني، ربما قد أشفقوا علينا لأجل ذلك وقرّروا أن نستريح اليوم. لكن هل لاحظت أنه حتى يوم أمس كانوا يمارسون علينا ضغوطات كبيرة، من الممكن أنهم يدعوننا نلتقط أنفاسنا بين الحين والآخر، لكن بغض النظر عن كل شيء، ثمَّة أمرٌ لا اعتياديّ اليوم".

كان فرهاد مشغولاً بتنظيف طاولة الطعام بجانب عدنان وآمد، نظر إليهما وابتسم قائلاً: "يبدو أن يومنا سيكون حافلاً". انسحب المعتقلون إلى أسرَّتهم بعد تناول طعامهم وتنفيذ الأوامر التي أُمليت عليهم، كان كل واحد منهم يحاول تفسير أحداث اليوم الاستثنائي من خلال مشاركته ضمن المناقشات المطوَّلة التي

جرت بعد تناول الفطور، وبينما كان الجميع منغمسين ضمن تلك النقاشات، سُمع صوت مكبِّر الصوت فجأة، في البداية لم يهتم أحد لأمره، لأنهم اعتادوا أن يسمعوا عبره صوت أسعد أوكتاي أو أحد إداريّ السجن يملي عليهم بعض التعليمات، أو كان يسمع صوته أحيانا عند اجراء أعمال الصيانة للإذاعة، لكن فيما بعد سُمع منه صوت يقول: "انتباه، انتباه!" فصمت الجميع حابسينَ أنفاسهم التي لم تعد تُسمع، واجتمعوا حول مكبر الصوت وبدأوا ينصتون لما هو آتٍ، لقد كان أكثر ما يقلق السجناء هو اليوم الاستثنائي الذين يمرُّون به وما قد يحمله لهم من مفاجآت.

ترك الشخص الذي كان يختبر الميكروفون لأكثر من مرة مكانه، وأعطى الفسحة لصاحب الصوت الحادِّ القميء أسعد أوكتاي، كان بإمكان المعتقلين التنبؤ بأن المتاعب في طريقها إليهم في كل مرة يسمعون فيها ذلك الصوت أو يرون ذلك الوجه.

أدرك المعتقلون عبر تجاربهم الكثيرة التي عايشوها أن هذا الوضع الاستثنائي لن يمر عليهم بسلام، لكنهم كانوا يجهلون تماماً ما هو آتٍ، فبعد أن ألقى النقيب خطبة مقتضبة عن يوم العاشر من تشرين الثاني صمت مكبر الصوت، فتسمرَّ الجميع في مكانه بلا حراك وتثبتت أنظارهم على مكبر الصوت وكأنهم يشاهدون تنفيذ حكم إعدام بحق أحد ما، لقد كانوا يتوقون لكسر ذلك الصمت بأي ثمن، لكن لم يكن لديهم خيار سوى الانتظار، بعد ذلك الصمت المطبق قال أسعد عبر الميكرفون ولكن هذه المرة بصوت أقوى وبنبرةٍ أعلى: "إن بعض رفاقكم الذين تعرفونهم جيداً لديهم أشياء مهمة ليقولوها، سيقرؤون عليكم

خطاب أتاتورك للشباب، القسم التركي، تاريخ الأغاني الشعبية التركية وبعض القصائد".

اطمأن معظم المعتقلين قليلاً، حتى أن البعض قال في قرارة نفسه: "لقد اتضح الأمر، أسعد أوكتاي يقوم بألاعيبه المعتادة مثل كل مرة ولكن بأسلوبٍ جديد، وعلى ما يبدو أنه قد خدع بعض الأشخاص وأوقعهم في شباكه، لقد تمَّ حل لغز اليوم الاستثنائي" كما لم يتردد البعض الآخر في التعبير عن رأيه بصوت عالٍ.

–فرهاد: "أيها الرفاق، اهدأوا قليلاً حتى نتمكن من فهم حقيقة الأمر، فقد مرت علينا الكثير من هذه الألاعيب لأكثر من مرّة، لكن لا ضيرَ من الاستماع مرّة أخرى". ورغم تنبيهات فرهاد تلك، إلا أن المعتقلين كانوا مشتتي الانتباه.

عندما سُمع صوتٌ عبر الميكرفون يشبه صوت خيري، اجتمع الجميع هناك مرَّةً أخرى، في البداية لم يكن الصوت مفهوماً، كان صوتاً بارداً للغاية، ومع استمرار الحديث، تعرَّف معظم المعتقلين على ذلك الصوت، دون أن يجرؤ أحد منهم على القول بأن الصوت كان لخيري، لم يصدِّق أحد ذلك، بل لم يرغب أحدٌ أن يصدِّق.

كان البعض يقول في قرارة نفسه:" نعم هذا صوته، لا.. لا يمكن لخيري أن يقبل شيئاً كهذا أبداً" بدا الأمر وكأنهم يرتكبون ذنباً كبيراً بحق خيري لمجرد الظنّ، فكانوا يلعنون أنفسهم لذلك. بدأ المعتقلون يطأطؤون رؤوسهم ويشيحون بأنظارهم التي لم تعرف الخوف يوماً، كان أصعب ما قد يحصل عندها هو أن تتلاقى نظراتهم، كان ذلك يشبه الموتَ للكثير.

بدا الصوت وكأنه لشخصٍ يشعر بالاختناق والضيق، كما أن الصوت كان منخفضاً والحديث بطيئاً، فبدا وكأنه مسجّلٌ سابقاً على كاسيت مسجلّةٍ معطوب.

لم يكن أحد يستمع لفحوى الحديث، كما لم يرغب أحد في فهم ما كان يُقال، كل ما كان يشغل بالهم هو هل ذاك الصوت لـ خيري أم لا، كانوا يبحثون عن وسيلةٍ لإشباع فضولهم. المقتنعون بأنه الصوت يعود له يستمعون إليه على مضض وبحزنٍ شديد. كان الجميع يقول في قرارة نفسه: " أن هذا صوت خيري، لذا لا داع لأنَّ نخدع أنفسنا". كان كل واحد منهم ينتظر الآخر ليقول شيئاً ما، ولكن الألسنة انعقدت، والأفواه مغلقة.

فلتبقى الرؤوس مطأطأة كالأعلام المنكوسة، ولتمتلئ العيون بالخيبات، لا تفتحوا عيونكم كثيراً، فقط انظروا بها لأجل النظر، لنتعثَّر ونقع في كل خطوةٍ نخطوها، فلتنزف أيادينا، أرجلنا، دع القلوب تتحول إلى بحورِ دماء، لا تداووها بل مزقوها، وقيدوها بسلاسل حديديَّة، فجرحنا هذا ينبغي أن يستمر ما حيينا.

قفوا واستمعوا إليَّ جيداً، هذا الصوت الذي نسمعه هو صوت خيري، قفوا بعزمٍ وقوة فلم ينتهي ألم جرحنا بعد، ثمة من سيتكلم بصوتٍ خفيضٍ وميِّت، سيكون صوتَ بطلٍ شجاع على مشنقة الأعداء، استمعوا جيداً، حتى لو بات صوت كل واحد منهم رصاصة تمزِّق شراييننا وحدقات أعيننا، سنسمع صوت كمال بير، وبعده أصواتاً مألوفةً أخرى.

باتت الغمامة التي كانت تحيط بذلك اليوم الاستثنائي تنجلي شيئاً فشيئاً، ففي البداية قرأ خيري تاريخ الأغاني الشعبية التركية، وبعدها قرأ كمال بير خطاب أتاتورك للشباب التركي وقرأ رفقي القَسم، بينما قرأ معتقلون آخرون بعض القصائد، بهذا الشكل انتهت مأدبة الدجَّال أسعد أوكتاي، الذي عاد ليلقي على المعتقلين أحد خطاباته: "هل سمعتم، بالأمس كان هؤلاء قادتكم، لقد كانوا يفخخون أسس دولتنا، والآن يقفون أمام سلفنا العظيم ولا يقوون على فعل شيء. من الآن فصاعداً، من يرتكب مخالفةً سيحاسب لوحده ولن يدفع رفاقه الثمن، لن نعاقب أحداً سواه". كان أسعد يُلقي تلك المواعظ بأسلوب القائد المنتصر، ذاك النصر الذي كان يدفعه إلى الانتشاء والجنون.

كان المهجع /33/ في حالة صمتٍ تشبه حالَ صمت القبور، فالجميع حزين ومستغرق في أفكاره، وكان مزاج الجميع سيئاً، فمعدل الاحترام يتناسب مع الصمت القائم, مع ذلك كان من الضروري التحلي بالصبر واتخاذ الموقف المناسب في تلك اللحظات الحرجة. لم يكلم المعتقلون بعضهم البعض لساعات ولم ينظر أحدهم إلى الآخر، كانوا خائفين أن تلتقي نظراتهم، كان الأمر يبدو وكأن من سيقوم بكسر ذلك الصمت سيقع في موقفٍ سلبي.

كان لهذا الحدث الجلل أثراً عميقاً على المعتقلين حتى باتوا غرباء عن بعضهم البعض، كانوا يتجولون وهم يدخنون السيجارة تلو الأخرى (في تلك اللحظات كان سيكون لانقطاع السجائر أثراً بالغ السوء). بدا وكأن هؤلاء لم يكونوا رفاقاً لسنوات أبداً، ولم يقاتلوا ويقاوموا جنباً إلى جنب في أحلك الظروف؛ كان ثمة غضبٌ عارمٌ يختبئ داخل نظراتهم.

كسر ذلك الصمت كان يتطلّب الجرأة. ففي الأيام الصعبة تطفو النوايا بحقيقتها على السطح وتظهر الشخصيات على حقيقتها، ويتم اختبار القيم ويوضع الارتباط بالحرب والحب على المحكّ. كان هناك دائماً من ضعُفَ وترنَّح، لكنه حاول عدم الكشف عن ذلك، وها هي لحظة الحقيقة قد حانت وبحضور الجميع. في أحد أركان المهجع جلس بعض عديمي الأخلاق الذين وجدوا فرصةً للتشفّي وباتوا يصيحون كديوكٍ في غير وقت الفجر، بدايةً كانوا يتحدثون فيما بينهم، لكن في بيئة ساد فيها الصمت كان الحديث يُسمع حتى لو كان الصوت خفيضاً.

لم يكتفِ ياسين بذلك، بل بدأ يرشُّ على الجرح ملحاً. قال لرفيقه الذي بجانبه بصوت عالٍ: "إن كان قادتنا يتكلَّمون بهذا الشكل، فقد انتهى الأمر إذاً"، وكرّر بخبثٍ ما قاله عدة مرات. بالكاد تمالك أشرف نفسه وهو يستمع إلى ما يقوله، لكن بعد أن طفح به الكيل وفقد أعصابه، اقترب من ياسين قائلاً له: "هل تسمعُ ما تقوله؟".

–ياسين: "طبعاً أسمع. ماذا سنفعل بعد؟ أندفن رؤوسنا في الرمال كالنعام؟ حتى هذا لم يعد كافياً، باتَ كل شيء واضحاً".

اعتقد أشرف أن الرد على كلمات ياسين تلك سيكون أمراً بلا معنى، فأمسك بذراعه وقال له: "تعال لنتحدث في تلك الزاوية، سيرَانا الحارس هنا".

قال نجدت، الذي كان صديق ياسين وداعمه: " إن ما يقوله ياسين صحيح يا أشرف، لا داعِ لإخفاء الأمر".

أشرف: "لتسكت الآن قليلاً، سأتكلم مع ياسين أولاً ومن ثم سأعلّمك الصواب من الخطأ".

حين رأى ياسين أن نجدت يسانده، تملّكته الجرأة وتحدث دون أن يحسب حساباً لأحد حتى يجد لنفسه مؤيدين آخرين، فقال: "لقد خاننا خيري. فبعد أن خدعنا وأتى بنا إلى هنا، ها هو يخرج علينا ليقرأ (تاريخ الأغاني الشعبية التركية) عبر مكبِّرات الصوت. فكيف لنا أن نسير خلف رجال باعونا؟".

نظر أشرف إلى آمد وهزّ رأسه، كأنه يقول له: "حاول إدارة الموقف، سأتولى أمر هذا". كان أشرف سينفّذ ما يفكّر به ولن تستطيع أية قوة منعه من ذلك. أمسك بذراع ياسين بقوة وسحبه إلى خلف الأسرّة، في البداية سُمع صوت الضرب ومن ثم بدأ ياسين بالصراخ وطلب النجدة.

كان أشرف يضغط بيده على فم ياسين بقوة، ولو تأخر المعتقلون في التدخل قليلاً لكان قد مات، لأن أشرف كان يستشيط غضباً حينها. بعد تلك الحادثة أعلنت مجموعة من المعتقلين بأنهم لن يتهاونوا مع أي أحد يُخطئ بحق القادة مهما حدث". وأبدى أشرف، آمد، مروان، عدنان، كشّه، كَرصور، إكرام، آلِك وآخرون موقفاً حازماً حيال هذا الأمر وقالوا أنهم لن يلتزموا الصمت.

بدأت أجواء المهجع تعود لسابق عهدها، والجميع يظهرون نواياهم بدرجات متفاوتة. في اليوم التالي، كان فرهاد جالساً على سريره يفكّر بعمقٍ ويحلل بعنايةٍ وقلق كل الأحداث التي وقعت. نادى على عدنان وآلِك وتحدث معهما قرابة عشرة دقائق، ومن ثم نادى الرفاق الآخرين.

نظر فرهاد إلى أشرف قائلاً: "تابعت ما جرى الأمس من البداية وحتى النهاية، ولا أرى أنك محقٌّ في ضرب ياسين، لو كانت الظروف مختلفة لربما كان لي رأي آخر في ذلك، لكن يجب أن نأخذ الوضع الحالي الذي نمرّ به بعين الاعتبار، فقد نواجه مواقف أسوأ. التعامل مع المشاكل وفق منظورٍ عاطفي سيقودنا إلى الضلالة. أنا على ثقة إنك لم تكن لتفعل ذلك لو أنك حافظت على هدوئك".

–ميرفان: "أعتقد أن مثل هؤلاء الأشخاص يستحقون أكثر من ذلك. من حسن حظه أنني لم أتمكن من الوصول إليه. ثق تماماً، لو كنت مكان أشرف لفعلت أكثر من ذلك".

–كشه: "حسب رأيي، أشرف فعلَ الصواب، فهو محقّ، ليكن هذا درساً للجميع".

–فرهاد: "في الواقع أنا أفهمكم جميعاً. لكن الوقت غير ملائم على الإطلاق، فالمكان والبيئة التي نعيش فيها غير مناسبان لهذا النوع من التصرفات ولكنكم لا تفهمون ما أقوله. ألا نتعرض جميعنا لأبشع الإهانات كل يوم على يد العدو؟ أوليس ذلك بعار؟ فما معنى أن تكون قاسياً مع أشخاص ضعيفين أصلاً سوى أنك تقدم خدمةً لعدوك؟ من يضمن ألا ينسحب أحدهم من الكومين، أو يتقرب من الإدارة؟ وقد ألمح البعض بالفعل أنهم سيغادرون صفوف الكومين".

–كشه: "يا أخي، ثمة أمرٌ يشغل بالي. لِمَ لا يشارك نجمي في الاجتماعات؟".

ساد صمتٌ بين المجتمعين، فنظروا إلى بعضهم البعض، ومن ثم تحوَّلت أنظارهم إلى فرهاد. فقال فرهاد ببعض الحزن والتململ: "سنتحدث عن ذلك أيضاً. ثمة بعض المواضيع المهمة سنناقشها معاً وسنجد لها حلولاً. بالأمس تناقشنا فيما بيننا وتوصّلنا إلى قرار حلّ الكومين".

كلام فرهاد ذاك تسبَّب بنوعٍ من الصدمة في نفوس المجتمعين، ولكن ماذا كان يعني الكومين وحياة الكومين بالنسبة للمعتقلين؟ عندما يمتلك الإنسان شيئاً قد لا يعرف قيمته إلا عند فقدانه، ثمة مثلٌ كرديٌّ يقول "عشب حديقة المنزل مرّ" أي " مزمار الحي لا يُطرب"، فالشمس مصدر أساسي للحياة، ولكننا لا ندرك قيمة ضيائها إلا بعد غيابها وشعورنا بالظلمة في كل مكان حولنا. كان الكومين الثوري يمثل الشمس بالنسبة للمعتقلين، فهم قد خطوا أولى خطواتهم الثورية على نمط حياة كوادر حزب العمال الكردستاني، وبدأوا العمل الثوري من الكومين، لقد كانوا روّاد عصرهم. ففي المحصلة هم تركوا خصوصيتهم القديمة وأقسموا على أن يصبحوا أفراداً وأبطالاً في تلك الحياة الجديدة، وطبّقوا المعرفة السياسية والفكر المشاعي الثوري في الواقع، فقد أسسوا حياة الكومين ووجدوا لحياتهم معنىً حقيقياً في تحقيق ذلك، فالحياة الثورية القائمة على الكومين تعرّف نفسها بنفسها.

-محمود: "ماذا تقول يا أخي، هل يجوز ذلك؟".

فرهاد: "إن سمحتم لي سأخبركم، سألني رفيق منكم قبل قليل لِمَ لم يحضر نجمي الاجتماعات؟ لقد رأيتم جميعاً، خلال هذا الأسبوع، التأثير السلبي الذي

خلفته أحداث يوم العاشر من تشرين الثاني علينا جميعاً، فمنذ ذلك اليوم تقدم إلينا أكثر من عشرين رفيق يطلبون مغادرة صفوف الكومين، من بينهم أصحاب قيم ثوريةٍ أيضاً. بالطبع لن نعامل الجميع بنفس السوية كما تفعلون أنتم، نحن نمرّ بمرحلةٍ حسّاسةٍ جداً ومنعطفٍ خطير، فحتى الأشخاص الشرفاء ومنهم نجمي قد تأثر أيضاً، ورغم كل جهودي في محاولة إقناعه بالعدول عن قراره إلا أنني فشلت في ذلك، كما أن هناك أيضاً من انتهز الفرصة، بالتأكيد لا يجب أن نساوي بين هؤلاء الأشخاص وآخرين مثل نجمي. لقد تكلمت إلى جميع الذين يريدون ترك الكومين كلّاً على حدى، سأقول لكم باختصار ما هو وضعهم: الفئة الأولى، هم المتأثّرون بمقولة النقيب: "إن أخطأ أحد منكم فسيتحمَّل وحده عواقب خطأه دون الأخرين" ذلك الكلام ترك أثراً عميقاً لديهم، هم يقولون الآن: "نحن أحرارٌ فيما نفعله من الآن فصاعداً، ولطالما كان موقف قادتنا بهذا الشكل، لذا لن نبقى في الكومين ولن نشارك في تحمل مسؤولياته أبداً"، بينما تقول الفئة الثانية: "ظروف الحياة صعبة للغاية، وحياة الكومين محفوفة بالمخاطر، ونحن بحاجة إلى الاهتمام بأنفسنا لئلا نصبح عالة"، أما الفئة الثالثة، فالبعض منهم صالحون وقد يعودون إلى صفوفنا بعد أن يتجاوزوا الصدمة التي يمرون بها، فلسان حالهم يقول: "نحن نغادر صفوف الكومين، ولكننا سنقدّم المساعدة المادية للكومين ونقدِّم العونَ أيضاً لاولئك الذين يعانون أوضاعاً ماديَّةً سيّئة". لقد قمت بتصنيف من قام بمغادرة صفوف الكومين إلى ثلاثة فئات بشكل عام وقد يكون بينهم استثناءات أيضاً".

"لقد مضى على خطاب 10 نوفمبر قرابة الأسبوع لذلك لن يغادر أحدٌ آخر الكومين، أي أن مسألة ترك الكومين انتهت بحسب اعتقادي، و بالانتقال إلى سؤال محمود (لماذا؟)، ففي مثل هذه الظروف جعلُ الانضمام إلى الكومين مفتوحاً أمام الجميع سيعود علينا بالضرر أكثر من الفائدة، حين قلت أننا سننهي الكومين لم أقصد أننا سنتخلى عن كل شيء، ولكن بناءً على التطورات الأخيرة علينا أن نؤسس لمرحلة جديدة، لذا أقترح تنظيم كومينٍ مصغّر، أنتم تتذكرون حين طرحنا فكرة تأسيس الكومين لأول مرة، عندها ناقشنا كيفية تأسيسه، وقررنا تأسيس كومينٍ مفتوح أمام الجميع؛ أما اليوم فلم تعد نفس الظروف قائمة، لذلك سنحدد المجموعات ونواصل حياتنا الجماعية على أساس الكومين، وسنصل إلى نتائج أفضل بهذا الخصوص من خلال آرائكم ومقترحاتكم، مع الأخذ بعين الاعتبار المصاعب التي ستواجهنا، ماذا تقولون؟".

-أشرف: "بلا شك الظروف الحالية صعبة جداً، وهذه حقيقة، لكن رغم ذلك علينا ألا نتخلى عن حياتنا الثورية، أنا أتَّفق تماماً مع كل ما قاله فرهاد، لكن ثمة نقطتان لم أفهمهما، الأولى هي قضية حلّ الكومين، والثانية إعادة تنظيمه من جديد، فحلُّ الكومين أمرٌ سهل، لكن كيف سيتم إعادة تنظيمه؟ أليس من الصعب فعل ذلك؟ يعني نحن نقول إننا نقوم بحلّ الكومين، ومن ثم نقول للآخرين تعالوا وانضموا إلى كوميننا من جديد، ما معنى ذلك؟".

-محمود: "ما فهمته مِمَّا قاله الأخ فرهاد هو أن عمل الكومين سيكون بشكل غير رسمي من الآن فصاعداً بسبب الأحداث الأخيرة، لذا من الضروري عدم

إخبار الأشخاص الذين بقوا معنا في كل الظروف بموضوع حلّ الكومين، لأن ذلك سيتسبب في انهيار معنوياتهم، أما الذين غادروا صفوف الكومين وبدأوا بافتعال المشاكل وهم لا يتجاوزون الثلاثة، فإننا نستطيع أن نخبرهم إننا قمنا بحلّ الكومين؛ أي أن نوحي لهم بعدم وجود كومينٍ في المهجع".

-إكرام: "كل ما قاله محمود صحيح بشكلٍ عام وأنا أوافقه الرأي، لكن إن كان من الضروري إنشاء تشكيلٍ جديد فيجب أن نعمل بسرّية، و أقترح ألّا يعرف أحد بذلك سوى المجتمعين هنا الآن، كلنا يعلم أن الظروف ستغدو أصعب في الأيام المقبلة، لذلك فمن غير المجدي أن يعرف أحدٌ من الذين لا نثق بهم بما نقوم به، بل على العكس قد يتسببون لنا بالضرر في المستقبل".

-ميرفان: "على سبيل المثال، لو أخبرت مجموعتي أنه لم يعد هناك كومين فكيف سأستطيع جمعهم معاً مرة أخرى؟ فالكومين بالنسبة إليهم مفهوم طبيعي للأخلاق، وانضباط و التزام في الوقت نفسه، فمن يعلم كيف سيبدو وضعهم بدونه، برأيي ما قاله أشرف ومحمود قويمٌ ومنطقي".

-كَرصور: "إن الذين وقفوا معنا منذ لحظة مجيئنا إلى هنا وحتى الآن هم أشخاص قادرون على مواجهة الصعوبات، قد يكون وضع معظمهم المادي غير جيداً، لكن لا اعتقد أن أياً منهم قد يتخلى عن كرامته وإنسانيته، وهم يؤمنون بالحزب من خلال شخصياتنا، وأنا على بينٍ تامّ أنهم سيلتزمون بكل ما سنقوله لهم، قد ينسحب شخصان أو ثلاثة آخرون كما قال الأخ فرهاد، فباستثناء اولئك الأشخاص نستطيع تولي هذه المهمة مع البقية بيسرٍ وبدون

عقباتٍ تذكر. ما أريد قوله، أنَه إذا قلنا للمتعاونين معنا أننا نقوم بعملٍ جماعي له صبغة تعاونية دون أن نخبرهم عن أمر الكومين، بهذه الحالة سيكونون معنا مرّة أخرى؛ كل شيء مرتبط بنا وبتنظيمنا من الآن فصاعداً".

–آمد: "حلُّ الكومين سيخلق صدمةً لدى المعتقلين، فحتى نحن صُدِمنا حين أخبرنا الأخ فرهاد بذلك، لذا سيكون تأثيره أكبر على المعتقلين، فبدلاً من إخبار المجموعات بأمر حلِّ الكومين، فلنُعِد ترتيب المجموعات الضعيفة على أساسٍ مناطقيّ، أي أن تتكوَّن تلك المجموعات من أشخاصٍ محليِّين من نفس المنطقة".

–فرهاد: "هل يودُّ أي رفيقٍ آخرَ الحديث؟".

حين رأى فرهاد أن الجميع قد قالوا ما عندهم تابع: "آراء جميع الرفاق منسجمة، باستثناء محمود وإكرام بنسبةٍ معيَّنة، بالفعل فالظروف الحالية تجبرنا على إنشاء كومين غير رسمي وسري في الوقت نفسه، وكما أسلف الرفاق فلا معنى لإخبار الأناس المخلصين بموضوع حلّ الكومين، نستطيع أن نخبر بعضهم ممَّن قد يرغب بترك الكومين بسبب عدم وجوده أو حله".

–"حسنا، إذاً لننهي هذا الموضوع هنا، في هذا الجسم الجديد لا بد لنا من إجراء بعض التعديلات الفنية؛ ويمكننا التعامل مع ذلك أيضاً. المهم هو اتفاقنا على الحفاظ على الكومين واستمراريته، القضية الأخرى التي لا تقل أهمية عن ذلك هو خطاب يوم الـ 10 تشرين الثاني، دعونا نتحدث عن هذا أيضاً قليلاً، لقد أوضحنا سابقاً من خلال نقاشاتنا بأن القادة هم بشر مثلنا تماماً ولا ينبغي

النظر إليهم على أنهم كائنات أسطورية، وكونوا على ثقةٍ تامة بأن الضغوط التي يتعرضون لها هي أكبر بكثير مما نتعرَّض له نحن؛ ولا يجب أن ننسى بأن القادة أيضاً قد يرتكبون الأخطاء".

-"بلا شك، فأن بروز القادة أو تقصيرهم له كبير الأثر على المعتقلين، أما بالنسبة لأشخاص مثلنا فالوضع مختلف، فاليوم رفاقنا المتواجدون في المهجع /35/ ورغم كل شيء هم المثلون الوحيدون للقيادة، فمن خلال صمودهم ومقاومتهم في المحاكم، استطعنا الاستمرار حتَّى الآن، لا أحد يستطيع إنكار ذلك، ولكن لا ينبغي أن تفهموا ما أقوله على أنني أغض النظر عن أحداث يوم الـ 10 من تشرين الثاني، لكن يجب أن لا تخور قوانا أو تهون عزيمتنا أمام العدو، فنضالنا في الزنزانات لا يزال مستمراً، والأمر الآخر أننا لا نزال نجهل الظروف التي دفعت رفاقنا لفعل ذلك، ما نعرفه بالتأكيد هو أن رفاقنا لم يكونوا يتحدثون مباشرة عبر الميكرفون". بقي جميع الرفاق الذي كانوا يستمعون إلى فرهاد صامتين وكأنهم كانوا يوافقونه على ما قاله".

-أشرف: "قد يكون رفاقنا الذين تحدثوا في ذاك اليوم خُدِعوا، كما تم خداعنا، من خلال تسجيل أصواتهم بعد إجبارهم على ترديد النشيد الوطني التركي وأشياء أخرى، حيث أن الإدارة أدركت بأن تحدثهم عبر الميكروفون مباشرة قد يشكل خطراً على مخططهم".

تم إجراء بعض التعديلات الفنية على التشكيل الجديد للكومين، وبناء على ذلك، فسوف يتم تسليم الأموال الواردة إلى عدنان عن طريق مسؤولي

المجموعات، كما تم تحديد مسؤولي المجموعات على النحو التالي: آمد مسؤولاً للمجموعة الأولى، رشيد مسؤولاً للمجموعة الثانية، حسين مسؤولاً للمجموعة الثالثة، ميرفان مسؤولاً للمجموعة الرابعة، محمود مسؤولاً للمجموعة الخامسة، أفه مسؤولاً للمجموعة السادسة، أشرف مسؤولاً للمجموعة السابعة، نديم مسؤولاً للمجموعة الثامنة بينما فرهاد مسؤولاً للمجموعة التاسعة، كما تم تكليف كَرصور مسؤولاً عن الوطنيين وكبار السنّ، وتمَّ إعلامُ المعتقلين بشأن التشكيل الجديد، وبدورهم لم يبدوا أي موقف حياله، فالكثير من المؤيدين فهموا الوضع واستنتجوا أن نظام الكومين سيستمر ولكن بشكلٍ جديد، وبذلك الشكل استؤنف عمل الكومين مرّةً أخرى داخل المهجع /33/، وتم اتخاذ التدابير لمنع الإفصاح عنه.

عصمت، الذي كان مصدر الفرح في المهجع، وقع أيضاً تحت تأثير أحداث يومالـ 10 من تشرين الثاني، فغادر صفوف الكومين برفقة نجمي وباتا يعيشان بشكلٍ مستقل عن الآخرين، ولكنه لم يعد يلقي النكات أو يمازح الآخرين كما في السابق.

حاول المعتقلون التأقلم مع الحياة الجديدة، واستطاعوا تجاوز صدمة يوم الـ 10 من تشرين الثاني نوعاً ما، الرغم أن حياتهم لم تعد كالسابق، ضاعفت إدارة السجن تعذيبها لجميع المعتقلين في السجن، ومن بينهم معتقلو المهجع /33/، فكانت تغض النظر عن انسداد دورات المياه في المهجع رغم مطالبة المعتقلين بإصلاحها مراراً و تكراراً، وهذا ما جعل المهجع ممتلئاً بالمياه القذرة و البراز، إضافة إلى ذلك فلقد تم تقليل كميات مياه الشرب لدرجة كبيرة، كما أن الإدارة

انتهجت أيضاً سياسة المداهمات الليلية، ففي ساعات الليل التي لم يكن يتوقعها المعتقلون أبداً، كان يدخل العشرات من الحرّاس حاملين في أيديهم العصي والهراوات، يوقظونهم ويباشرون بضربهم بشكل عشوائي، أحياناً يجمعونهم فوق بعضهم البعض على شكل كومةٍ كبيرة ويقومون بتعذيبهم، لم يهنأ المعتقلون بنومهم في ليلة واحدة حتى أن العدو حرمهم من ساعات الاستراحة واستبدلها بجلسات التعذيب.

لم يكتفِ العدو باستسلام المعتقلين، بل كان يسعى إلى جني ثمار ممارساته القمعية والاستفادة من حالة الاستسلام، من خلال زيادة حدّة التعذيب والضغط على القادة بلا هوادة، إذ أنه من الصعب أن تبقى أي حركة على قيد الحياة بدون قادتها، لكن تلك الضغوطات لن تمر مرور الكرام، فستندلع على إثرها ثورة وثورة مضادة بشكلٍ فعّال في كل أنحاء السجن مرّة أخرى، فكل من يفهم في أمور السياسة ولو بالنُذر اليسير ويعرف أساليب عدوه سيدرك أن أحداث العاشر من تشرين الثاني كان نوعاً آخراً من التعذيب، وهو مختلف عن باقي صنوف التعذيب التي مورست بحق المعتقلين، حيث سيفرض العدو على المعتقلين تخوين بعضهم البعض، وإبداء ندمهم والتخلي عن قضيتهم.

في الحقيقة، كانت المقاومة التي يبديها المعتقلون في المحاكم، ضمن تلك الظروف الصعبة، والتزامهم بقضية شعبهم وحزبهم والدفاع عن أفكارهم و قيمهم قد أدخل الرعب والخوف في نفس العدو، وحين لم تكن الأمور تسير كما يريدها العدو كانوا يقررون تجميد المحاكمات، ومن خلال تشديد القمع

والضرب والتعذيب حاولت إدارة السجن تحويل المعتقلين إلى خونة من خلال إجبارهم على تقديم إفاداتٍ فصَّلها العدو قياساً إلى سياساته.

يقولون: "إن قوَّةَ إدارةَ سجنٍ ما تُقاس بعدد الجواسيس التي يمكنهم أن يزرعوهم داخل المهاجع"، قياساً بذلك المبدأ فإن إدارة السجن قد فشلت فشلاً ذريعاً في المهجع /33/، فرغم كل المحاولات لم تستطع استمالة أي أحد لتنفيذ مخططاتها، حتى الذين كانوا قد وعدوا الإدارة بنقل الأخبار من داخل السجن، تخلوا عن وعودهم تلك، كل ما سبق دفعها لزيادة الضغط وشدة التعذيب على معتقلي المهجع /33/ يوماً إثرَ الآخر، وقاموا بحرمانهم من أدنى حقوقهم الطبيعية كبشر.

دون أدنى شك، لم يكن الحديث عن تلك الحقوق أمراً سهلاً أبداً داخل سجن آمد، فحتى الأطباء الذين أدّوا قَسمَ أبقراط في الاهتمام بمرضاهم بصدقٍ وأمانة، لم يكونوا يهتمون بمعاينة المعتقلين، على الأقل بقدر اهتمام البيطريين بالحيوانات أثناء معاينتهم، كما كانت رحلة الذهاب إلى المشفى تشبه رحلةً إلى الجحيم، فمثلاً كشه الذي تم تحويله إلى المشفى بأمر رسمي من إدارة السجن، لم يكن متشجعاً لذلك أبداً بسبب القصص المرعبة التي سمعها عن المشفى وبدأت تنتابه نوبات هلع وهستيريا جرَّاء ذلك، بالعادة يكون كل من يذهب إلى المشفى سعيداً لأنه ببساطة سيتخلص من أوجاعه وآلامه، ولكن الحال هناك كان على النقيض تماماً.

تم اصطحاب كشة بمساعدة من رفاقه إلى الباب، ولم تفارق عيونه المهجع لحظة واحدة، فلو كان القرار بيده لما ذهب إلى المشفى أبداً. صرخ الحارس من كوّة الباب قائلاً: "المهجع /33/ تجهّز للتفتيش. فليخرج الجميع، سأعدّ للثلاثة"!

اندفع المعتقلون باتجاه باب المهجع بسرعة وتجمَّعوا هناك، وكأنهم كانوا محاصرين في فيضان، كان المعتقلون قد جلبوا احتياجاتهم من البوفيه للتو، ولم يكن أعضاء الكومين قد انتهوا بعد من توزيعها، فكان كل شيء متروكاً على الأرض كما هو، وبالطبع سيكون مصيرها السحق تحت أقدام الحرّاس؛ لكن أوامر الحارس لم تكن قابلةً للنقاش، لذا كان يتوجب عليهم تنفيذها دون تلكؤ، لكن ما حصل ذلك اليوم لم يكن كسابقاته، فقد أخذوا المعتقلين إلى ممر (مالطا) في الطابق الثاني وأقفلوا عليهم الأبواب المسيّجة بالقضبان الحديدية.

أمرهم الحارس: "اصطفوا بمحاذاة الحائط وعلى نسقٍ واحد، واخلعوا ملابسكم بسرعة".

بقي المعتقلين بسراويلهم الداخليَّة فقط، فصرخ أحد الحرّاس: "تعرُّوا كما أنجبتكم أمهاتكم".

تعرّى المعتقلون بشكل كامل، وبدأ البرد يتسلل إلى أجسادهم رويداً رويداً، تم فحص الملابس بشكل دقيق ومكثف وتمزيقها كلها بذريعة التفتيش، بعد ذلك انتقل التفتيش إلى أجساد المعتقلين أنفسهم، قال رقيب المبنى: "ارجعوا إلى الوراء".

تراجع الجميع وانتظروا أوامر الرقيب الذي صرخ مرّة أخرى: "استديروا وانحنوا أيها المخنثون"، تم فحص مؤخرات المعتقلين الواحد تلو الآخر، بعد ذلك أمرهم الرقيب بالرجوع إلى الخلف مرَّةً ثانية، هذه المرة كان سيتم التفتيش على شعر الإبطين والعانة، فجاء الرقيب ووقف أمام أحد المعتقلين قائلاً له: "لماذا لم تحلق شعر العانة؟".

–المعتقل: "لقد قمت بالحلاقة سيدي".

–الرقيب: "أي نوع من الحلاقة هذه أيها الأحمق؟ لقد قمتَ بالحلاقة على الطريقة الروسية، وهذا لا يجوز، من الآن فصاعداً يجب أن تحلق حسب الطريقة التركية، هل فهمت ما قلته؟".

–المعتقل: "بالتأكيد يا سيدي".

التفت الرقيب نحو أحد الحرّاس وقال له: "احضر لي ولاعة وبعض الورق".

أخذ الرقيب الولاعة والورق، ومن ثم أشعل ورقة منها وقرّبها من شعر عانة المعتقل، وبعد أن احترق الشعر احترق الجلد معه أيضاً فبدأ المعتقل بالصراخ بصوت عال.

–الرقيب: "من الآن فصاعداً لن تحتاج للحلاقة لا على الطريقة الروسية ولا التركية فقد تخلصت تماماً من موضوع الحلاقة كلها"، تعرض كل معتقل طال شعر أي جزء من جسده إلى المعاملة نفسها، وكان الحرّاس والرقباء يشعرون بالنصر ويضحكون بشكلٍ سادي مقزز.

لم يتوقف التعذيب عند ذلك الحد، بل بدأوا بإهانة كرامة المعتقلين وشرفهم. نادى أحد الحراس: "يا سيدي الرقيب، تعال إلى هنا".

–الرقيب: "ما الأمر يا هذا؟".

–الحارس: "يا سيدي الرقيب أحدهم هنا غير مختون، وهو يدّعي أنه مختون حسب السنّة".

تجمع كل الحرّاس برفقة الرقيب حول ذلك المعتقل بفضول كبير، قال الرقيب: "هل تدعي أنه قد تم ختانك حسب السنّة النبوية؟".

–المعتقل: "نعم سيدي".

–الرقيب: "ما هذا الختان أيها الوغد، كيف تقول إنه حسب السنّة، أنا لا أراه بوضوح، هيا ارفع رأسه قليلاً لنتمكن من إلقاء نظرة على هذا الختان المبارك".

انتهز المعتقل الفرصة فأمسك جلد قضيبه وقام بمده قليلاً.

–الرقيب: "انظروا إلى ابن الزانية، هل تظن أنك ستخدعنا؟ لا تدفع بالجلد إلى الرأس أيها السافل".

بدأ كل الحرّاس يتفحصون قضيب المعتقل وكأنهم وجدوا كنزاً، في تلك الأثناء أمر رقيب الطبية من هناك فنادوا عليه: "أيها البروفسور تعال وألق نظرة على

هذا، هل رأيت مثل هذا الشيء من قبل؟ هذا الرجل يقول إنه مختون حسب السنّة".

–رقيب الطبية: "اترك هذا الشيء من يدك أيها الوغد، هل تقيم معرضاً حتى جمعت كل هؤلاء حولك؟".

اتخذ المعتقل وضعية الاستعداد وترك ما كان يمسكه بيده بعد سماع أمر رقيب الطبية.

–الرقيب: "حسناً أيها الوغد، أي ختان هذا، أنت لم تُختَن حسب السنّة كما تدعي".

–المعتقل: "أقسم بأنني أقول الحقيقة يا سيدي، فرجال عائلتنا كلهم مثلي".

–الرقيب: "اصمت أيها الحقير"

قام الحراس بضرب المعتقلين العراة الواحد تلو الآخر، ومن ثم أعادوهم إلى المهجع على عجل، كان المشهد داخل المهجع مؤلماً للغاية، فقد تم تخريب كل شيء فيه وتم تمزيق كافة الحقائب العائدة للمعتقلين.

بينما كان المعتقلون يدخلون المهجع وجدوا حقيبة أمام الباب. قال الحارس: "على صاحب هذه الحقيبة ألا يدخل المهجع، فليقف خارجاً".

كانت الحقيبة تعود لصالح، وبما أن المعتقلين كانوا منشغلين بتفقد أمتعتهم لم ينتبهوا كثيراً إلى ما قاله الحارس، فتح الحارس الباب مرّة أخرة قائلاً: "فليأتي واحد أو اثنان منكم ليأخذوا ابن الزانية هذا إلى الداخل".

حمل المعتقلون صالح الذي كان فاقداً للوعي إلى الداخل، وعندما استفاق أخذه الحرّاس إلى الخارج مرّة أخرى وسألوه: "أيها الحقير، هل هذه الحقيبة لك؟".

–صالح: "نعم سيدي".

–الحارس: "لقد وجدنا مقصاً في حقيبتك، وثمة طريقة واحدة فقط لتنجو من العقوبة، وهو أن تخبرنا بكل ما يحدث داخل المهجع من الآن فصاعداً، بهذه الطريقة سوف تعيش، وإلا قتلناك!". عندما سمع صالح ذلك الكلام ضرب رأسه بالحائط بقوة وفقد وعيه.

كان صالح فلاحاً قروياً قوي البنية ممتلئ الجسم، وحين بدأت جلسات التعذيب والضرب في المهجع وجد صالح بعقله القروي البسيط حلاً لذلك على طريقته الخاصة، فمثلاً حاول التملص من التدريب من خلال التظاهر بإصابة قدمه اليسرى، وكان الأقل عرضة للضرب بسبب ذلك، ولكن الحظ لا يكون حليف المرء دائماً، ففي أحد المرات ناداه أحد الحرّاس وقال له: "لماذا تعرج؟"

–صالح: "لقد سقطتُ من الجرار قبل أن أدخل السجن".

–الحارس: "حسناً، فلتعد إلى مكانك".

لم يكن صالح منتبهاً لحركته، فعندما أتى إلى الحارس كان يعرج على رجله اليمنى وعندما عاد إلى مكانه كان يعرج على اليسرى، وهذا ما لفت انتباه الحارس، لذا ناداه مرّة أخرى وقال له: "تعال إلى هنا يا ابن الزانية، أي رجلَيْك عرجاء؟".

–صالح: "اليمنى يا سيدي".

–الحارس: " قبل قليل قلت اليسرى والآن تقول اليمنى، أيها الوغد؟".

–صالح: "كلا يا سيدي، لقد أسأتَ فهمي، فقد قلتُ اليمنى".

وبعد أن ضربه الحارس تركه يذهب، عندما أحس صالح بأنه قد تم اكتشاف تكتيكه ذاك، بدأ يتّبع حيلةً أخرى، فقد كان يضرب رأسه بالحائط بمجرد أن يُدرك أنه كان سيتعرض للضرب، لقد كان يضرب رأسه بالحائط بالفعل، ولكن هل كان يُغمى عليه حقاً أم لا؟ لم يستطع أحد معرفة ذلك لا الحراس ولا حتى رفاقه المعتقلون، وبهذا الشكل استطاع صالح التملُّص من الضرب والتعذيب في كل مرة، كما أنه قد نجا من حادثة المقص أيضاً بالتكتيك نفسه.

اجتمع المعتقلون حول كشه بعد عودته من المشفى.

–محمود: " هيا يا كشه، لن نسألك ماذا أكلتَ وشربتَ هناك، لكن أخبرنا عما ما رأيت وسمعت. منذ أيام وأنت في المشفى، أخبرنا ما الذي حدث معك؟".

-ميرفان: "دعوا كشه وشأنه، فإن جراحه لم تندمل بعد".

-فرهاد: "الحمد لله على سلامتك يا أ....". ومن ثم ذهب وجلس بجانب سريره وقال: "أخبرنا ما الذي حدث معك في المشفى".

كشه: "عن أي مشفى تتحدثون؟ وضع المشفى أسوأ من هنا، عندما أخذوني قاموا بإدخالي إلى المشفى مباشرة، وبعد سبعة أيام أجروا لي عمليَّةً جراحية، لقد جلبوا إيبش فورال من المهجع /18/ وهو مغمى عليه وعاد إلى وعيه بعد فترة، كنت أعرفه قبل دخولي السجن، لذلك خاطرت وتحدثت معه دون أن أهتم بالقوانين".

-محمود: "لِمَ، هل الكلام ممنوع هناك؟".

-كشه: "لا تقاطعني أيها الأعرج، سأشرح ذلك فيما بعد".

-فرهاد: "فليستمع الجميع إلى أ...".

تابع كشه كلامه بجديَّةٍ أكثر هذه المرة: "عند عودة معتقلي المهجع /18/ من كبائن الزيارات، قال أحد الحرّاس لـ إيبش "أنت لم تسر بشكل منتظم" وانهال عليه ضرباً حتى أفقده الوعي، بعدها قاموا بإحضاره إلى المشفى، عند وصوله كان في حالة غيبوبة، لذا تمَّ وضعه في غرفة العناية المركزة، وبعد حوالي خمس ساعات أعادوه إلى نفس الجناح الذي كُنت فيه وكان يرافقه جنديان، لم يسمحا لأحدٍ الاقتراب منه، في الصباح، حين كان الأطباء يعاينونه قالوا أنه مات ومن ثم خرجوا، ولم تمض خمس دقائق على ذلك حتى أخذوا جثته من

هناك، طبعاً كان التعذيب في المشفى يمارس بشكل وحشي على قدم وساق، وازدادت وتيرته أكثر بعد تلك الحادثة، كانوا يقولون لنا: إن أخبرتم أحداً بما رأيتموه ستلقونَ المصيرَ نفسه".

-"والآن سأجاوب عن سؤال الأعرج، كان مجموعنا حوالي (18–20) شخصاً، معظم المتواجدين كانوا مصابين بالسلّ، وكانوا يقدِّمون لنا الطعام في نفس الصحون حتى نصاب نحن أيضاً؛ كان الطعام قليلاً جداً، والحديث ممنوعاً، خصوصاً بين المرضى المتجاورين، كنَّا نتعرُّض للضرب من قبل الحرّاس الذين كانوا يرافقون الأطباء، وبشكلٍ أكبر عند دخول الممرضات، فلقد كان الحراس يمارسون بحقنا أبشع أنواع التعذيب حتى يبرزوا رجولتهم أمامهن، كان على المعتقلين المرضى الاستلقاء في الفراش بشكلٍ منظَّم من الصباح وحتى المساء، وتغطية أنفسهم بالبطانيات حتى ذقونهم بحيث تكون الرؤوس مكشوفة، أي أن يكون الجميع ممددًّاً في وضعية الاستعداد، وكل من يخالف ويتحرك فمصيره الضرب والتعذيب، كان المعتقل مجبراً على أخذ أذن الحارس للذهاب إلى دورة المياه، وبالطبع ذلك أيضاً يتطلب الجرأة، إذ أن الذهاب إلى دورة المياه كان يرافقه الضرب المستمر؛ وكان ثمة أيضاً من يقضي حاجته في سرواله".

-محمود: "قل الحقيقة يا كشه، هل تبوَّلت في سروالك أنت أيضاً".

كشه: "كلا أيها الأعرج، ولِم قد أفعل ذلك؟ ولكنك لو كنتَ مكاني، بالطبع كنت ستفعلها".

-" ها قد أخبرتكم بالوضع هناك، هل فهمت يا أعرج؟ أنا لم أتحمَّل ذلك، وكنت أترجَّى الطبيب كل صباحٍ ليخرجني، وقد وصلت إلى هنا بشقِّ الأنفس، أقسم لكم أن المكان هنا يعتبر جنَّةً مقارنةً بذلك المكان"

بعد أن استمع فرهاد لحديث كشه بكل جدية قال له: " الحمد لله على سلامتك مرة أخرى" وانصرف.

كان الكثيرون يرغبون بممازحة كشه وقد وجدوا أن غياب فرهاد فرصة مناسبة لهم، فاقتربوا منه أكثر.

-محمود: " انظر يا كشه، نحن نستمع إليك منذ الصباح، ها قد ذهب فرهاد، فلتقل لنا الحقيقة، ما هي العملية الجراحية التي خضعت لها؟"

-كشه: "وهل تظن أني أكذب عليك؟ لِمَ قد أفعل هذا؟ إن كنت لا تصدقني، دعني أريك ذلك"

-محمود: "بالطبع أصدقك، ولكن هل تحسبني قوياً كفاية لوحدي؟"، ثم أمسك بيدي كشه وقال: "آمد، تعال وانظر، تفحصه بشكلٍ جيدٍ".

-كشه: "لا تفعلوا ذلك يا رفاق، هذا عيب، أقسم أني سأصرخ".

حين أدرك كشه أن رفاقه سيضعونه في موقف حرج بمزاحهم ذاك قال: "توقفوا وإلا سأنادي فرهاد كي يوبخكم"، إلا أن رفاقه لم يتوقفوا عن ذلك.

-آمد: "يبدو أنك قد ذهبت إلى (ميندیك أوغلو/ Mındıkoğlu) يا كشه؟".

–كشه: "مَن يكون (Mındıkoğlu) هذا؟ أقسم أنني لم أقابل أحداً بهذا الاسم". عندما بدأ المعتقلون بالضحك لجوابه، ضحك كشه أيضاً.

حلَّ فصل الشتاء على المعتقلين وأصبح الطقس بارداً للغاية، حتى الجدران الإسمنتية السميكة والقضبان الحديدية الثخينة باتت كقطع الجليد، وبينما ثلوج كانون الثاني لعام 1982 تتساقط، كان المعتقلون يفكرون في العام الفائت وفي مقاومتهم الأولى، ومن ثم استذكر كل واحد منهم كيف انتهى به المطاف، كما تذكّروا الضرب المبرح الذي تعرضوا له وكذلك اللحظات الجميلة؛ تذكّروا كل ذلك بألمٍ وحرقة. حينها قال أحد الرفاق "كل يوم نعيشه سيغدو تاريخاً في المستقبل"، كانوا يدركون ذلك جيداً، رغم أن بعضهم لم يكن قد وصل إلى مستوى الوعي ذاك.

نهضوا

كلّ من جهة

حلّقوا

كلّ من غصنٍ

* * * * * * * * *

مضوا محلّقين

عندما دقّت الساعة

تفرقوا ، كلّ من طريق

كلٌ نحو عشقٍ مختلف

* * * * * * * * * *

البداية مختلفة

و النهاية واضحة

تلقوا كلمة السرّ

عند الفجر

و مضوا

* * * * * * * * *

كل أنهار الأمس

لا بد أن تتدفق اليوم

وتصب في المستقبل

الشمس بوصلتهم

والمقاومة ، كل ما يملكون

المقاومة حياة

* * * * * * * * *

تجمعوا

سواسيةً

فلا فوارق في الحرب

كلّ أخذ مكانه

في صفوف المقاومة

وساحات القتال

البطل والخائن

المستسلم والمقاوم

الصالح والطالح

* * * * * * * *

خطوة إلى الأمام

وأخرى إلى الوراء

وعرٌ ومؤلمٌ

صعود ذلك المرتقى

ولكن الانحدار يبقى

خطوةً أولى نحو النهاية.

كانت الحياة تستمر رغم وحشيتها، والنضال أيضاً كان مستمراً، فرغم مرور عام على انتهاء المقاومة إلا أن المقاومين مستمرون في نضالهم بطرق مختلفة، مثلما كانوا مستمرين في حياتهم تلك، كان يتم القبض كل يوم على معتقلين جدد، وتُكتب بحقهم لوائح الاتهام، ويُعاقبون في محاكم الدولة التركية ومحاكم الرقباء التي كانت تنفِّذ حتى أحكام الإعدام، كان آخر تلك القضايا تعود لمجموعة ويران شهير، فحين وصلت لوائح الاتهام بحقهم بدت السعادة واضحة على وجوه الحرّاس وكأنهم مدعوُّونَ لحضور حفل راقص، فبدأوا ينادونهم الواحد تلو الآخر لتتم محاكمتهم.

كان المتهمون في الاشتراك بالقتل هم المفضلون بالنسبة لمحاكم الرقباء تلك، وضع الحرّاس طاولة وبعض الكراسي في المرِّ الممتد بين المهجع /32/ و /33/، وعيَّنوا فيما من بينهم مدعياً عاماً وقاضياً ووظائف أخرى، ومن ثم قام الحارس المكلف بدور كاتب العدل بمناداة المعتقلين: "فليحضر برهان، الآن ستتم محاكمته".

تعجَّب المعتقلون من توقيت المحاكمة في مثل تلك الساعة من الليل؟ إلَّا أن الحارس قال: "فليأتي إلى هنا بسرعة".

عندما خرج برهان وبدأ بتقديم معلوماته الشخصية، تجمع المعتقلون على جانبيّ الباب ليستمعوا، وقف برهان بوضعية الاستعداد أمام محكمة الرقباء، وبدأ القاضي بافتتاح الجلسة قائلاً: "لقد وصلنا ملف ادعاءك وستتمُّ محاكمتك الآن، لن تتواجد في محكمةٍ أخرى، محكمتنا هي الأعلى، أما المحاكم الأخرى فهي

أدنى منا، قبل كل شيء دعني أخبرك التالي: لا مكان للكذب هنا، إن كذبت فهذا يعني أنك تسير نحو طريق الهلاك، ولن يستطيع أحد إنقاذك منّا حتى لو كان كنان افرن والدك. السيد المدعي العام، تفضّل بالكلام".

كان المدعي العام يجول بنظره يميناً ويساراً، ويتابع باهتمام إلى ملف الادّعاء الذي كان أمامه وكأنه يجري محاكمةً تاريخية.

- "شكراً لكم".

قرأ المدعي العام بجدية الادعاءات التي قد كان حضّرها مسبقاً ضد برهان وأضاف: "المتهم إذا اعترف بجرائمه وتعاون مع المحكمة وأبدى ندمه على ما اقترفت يداه فسوف ننظر في موضوع تخفيف العقوبة عنه، ولكن إن قام بالإنكار ورفض التهم الموجهة إليه فإنني سأؤيد التنفيذ الفوري لحكم الإعدام بحقه، هذا كل شيء، شكراً لكم".

اتخذت هيئة المحكمة قراراً أولياً بالتشاور فيما بينهم.

قال الرقيب الذي كان يدير المحكمة: "أيها الوغد، لقد جعلتنا ننسى شيئاً، وهذا ليس ذنبنا وحدنا بل أنت أيضاً تتحمّل المسؤولية، لماذا لم تقل لنا أنه يجب التحقق من معلومات البطاقة الشخصية؟".

-برهان: "يا سيدي، أنا لم أحضر محاكمةً من قبل"

-الرقيب القاضي: "كيف لم تحضر أيها الحقير، أليست هذه محاكمة؟".

–أحد أعضاء المحكمة: "دعك من تلك الشكليات، فالدولة تخسر دائماً بسببها، على أية حال أخبرني أيها الحقير، ما هو اسمك وما هي كنيتك؟ هيا قل ذلك فحسب".

كان برهان يجاوب على كل الأسئلة التي كانت تُطرح عليه.

–الرقيب القاضي: "استمع و انتبه جيداً يا بني، لقد سمعت ما قاله المدعي العام بحقك، فما هو ردك؟".

كان برهان واقفاً في مكانه مدهوشاً بلا حراك.

–القاضي: "لماذا لا تتكلم، هل بلع القطُّ لسانك؟".

–برهان: "أقسم يا سيدي، أن الشرطة هي من قامت بكتابة كل ما ذكر في هذا الملف، فأنا لست متورطاً بأي من هذه القضايا".

بعد أن استمعت هيئة المحكمة إلى ما قاله برهان، قال قاضي التحقيق: "إذاً أنت الآن ترفض كل هذه الاتهامات؟".

–برهان: "أقسم بالله أنني أقول الحقيقة يا سيدي".

–قاضي التحقيق: "اصغي إلي جيداً أيها الوغد، لقد مثُلَ مئات المعتقلين قبلك أمام هذه المحكمة الموقرة واعترف جميعهم بالتهم التي وُجِّهت إليهم، لذا لا أجد ضرورةً لإطالة هذه المحاكمة، سأسألك للمرة الأخيرة، هل تقبل هذه الاتهامات أم لا؟".

-برهان: "يا سيدي أقسم لك أنني أقول الحقيقة، كيف أجعلكم تصدقونني؟".

-قاضي التحقيق: "لقد برّأنا ذممنا، أنت تتحمَّل ذنبك".

-المدعي العام: "أكرر ما قلته بحق المتهم".

تشاورت هيئة المحكمة في ما بينها واتفقوا على الحكم بالتالي:

"1- ضربه على قدميه بالعصي ثلاثين ضربةً لكل قدم.

2- تعليقه من رجليه على السلالم رأساً على عقب لمدة ساعتين.

3- حرمانه من الطعام لمدة ثلاثة أيام.

4- تنظيف دورات المياه لمدة أربعة أيام، بعد إقرار كتابة مذكّرة بالإجماع وتقديمها لحارس المهجع ومساعده.

5- تنفيذ العقوبات المذكورة أعلاه على وجه السرعة تحت إشراف حرَّاسٍ مكلّفين.

- خذوا المتهم، واحضروا التالي.

فتح الحارس (كاتب المحكمة) كوّة الباب مرّة أخرى قائلاً: "فليأتي حسيب، لديه محاكمة".

بينما كانت هيئة محكمة الرقيب تحاكم حسيب، كانت صرخات برهان تملأ المكان بأكمله.

كان الخال محمَّد رجلاً وطنيّاً وله خبرة في الحياة التي آثر أن يرى جانبها الإيجابي دائماً، كان طيب الخلق، ولطالما بثَّ تفاؤله وطاقته الإيجابية على كل من حوله، كان مخلصاً للثوار ويكنُّ لهم حباً واحتراماً كبيرين، كان قد تمَّ اعتقاله بسبب بيانٍ أدلى به أمام أحد الوفود القادمة من أوروبا، لقد أراد فضح الانتهاكات التي كانت تحدث في بلده أمام منظمات حقوق الإنسان والمؤسسات الديمقراطية الأوروبية، لم يكن الخال محمد يملُّ من مجالسة المعتقلين الثوريين في المهجع أبداً، بل على العكس، كانت السعادة تبدو واضحةً عليه عندما كان يحادثهم، كانت إحدى هواياته هي قراءة ملفات الادِّعاء، فقد كان يقرأ ملفات ادعاء كل المجموعات دون استثناء.

كان الخال محمد وآمد ينحدران من نفس المدينة، ويعرفان بعضهما البعض جيداً، لذا كانت تربطهما علاقة ودية قوية، ومنذ الأيام الأولى لدخوله المهجع كان الخال محمد قادراً على فهم مجريات الأمور هناك. ذات يوم قال لآمد: " يا ابن مدينتي، لا تظن أنني شخص ساذج، فأنا أعلم جيداً من هو الثوري هنا ومن هو ليس كذلك، ففي ظل هذه الظروف الصعبة، مازلتم تتمسكون بالحياة والإرادة، أنتم على حق، أنا أنتظر إن تعرضوا علي، فأنا أرغب الانضمام إلى كومينكم بصفتي وطنياً، ولا تظن أنني أرغب ذلك بسبب وضعٍ مادي صعبٍ أمرّ به، بل على العكس، فأنت تعلم أن حالتي المادية جيدة جداً".

-"أترى معتقلي الـ(DDKD)، لقد طلبوا مني أن أنضم إليهم وأعيش معهم، فسألتهم: كيف تعيشون؟ الجواب الذي تلقّيته تعرفهُ أنتَ أيضاً، فهم يقضون كل أوقاتهم في القيل والقال والكلام الفارغ، فقلت لهم استمروا في حياتكم لكن

ذلك لا يناسبني. لن أطيل عليك، سأدخل في صلب الموضوع، أنا أرغب بالانضمام إلى حياتكم الثورية قبل فوات الأوان، الأمر متروك لكم، في الحقيقة سأكون ممتناً للغاية إن قبلتموني".

تم قبول الخال محمد في صفوف الكومين، بعد موافقة فرهاد، وحين أبلغوه بذلك فرح كثيراً وكأنه امتلك الدنيا بما فيها، واستمر في عمله بقراءة ملفات الادعاء الموجودة في المهجع، وخلال عمله خطر له أن يقارن بين ملفات ادعاء قضية معتقلي حزب العمال الكردستاني وملفات معتقلي الـ(KUK).

الخال محمد: "بعد أن أقرأ الملفات وأقارنها سأقرِّرُ من هم الثوار الحقيقيون ومن هم غير ذلك، حتى لو كانت هذه الملفات مكتوبة من قبل العدو إلا أن ثمة شيءٌ من الحقيقة فيها، فالأحداث التي شارك فيها أعضاء حزب العمال الكردستاني، حسب هذه الادعاءات، هي ضد الشرطة والمخبرين وموظفي الدولة، أما الأحداث التي شارك فيها أعضاء (KUK) هي ضد الآبوجيين أنفسهم".

كان الخال محمد يقول ذلك الكلام للجميع وكأنه قد حقق اكتشافاً عظيماً، وكان أكثر ما لفت انتباهه وأثار استغرابه هو حادثة قتل ضابط الشرطة حمدي أوز ايبك في آمد، كان حمدي رجلاً مهماً، و كان مكلَّفاً بالقضاء على الـ(KUK)، وفي الوقت الذي كان فيه الآبوجيُّون ينفذون عملية اغتياله، استشهد أحد الآبوجيين على يد أعضاء الـ (KUK) في (داغ كابي/Dagkapi)".

كان الخال محمد يذهب إلى معتقلي الـ (KUK) بين الحين والآخر فيغيظهم ممازحاً، لم يكن أحد ينزعج منه لا الـ(KUK) ولا المجموعات الأخرى لأنه كان ليِّنَ اللسان وجليساً مؤنساً يقول كل ما في قلبه دون تكلّف.

–الخال محمد: "ماذا ستفعلون إن اضطربت أمور الدولة التركية وأخذوكم إلى حبل المشنقة في يوم من الأيام؟".

–أحد معتقلي الـ (KUK): "ماذا عسانا أن نفعل يا خال، سنواجه مصيرنا مثل غيرنا".

–الخال محمد: "حسناً، ليس لدي شك في ذلك، لكن لو ذهبتم إلى الموت بذنب قتلكم للثوار، كيف سيكون موقفكم آنذاك؟".

نظر معتقلوا الـ (KUK) عندها إلى بعضهم البعض دون أن يتفوهوا بكلمة واحدة.

–الخال محمد: "يا أحبائي، لقد قرأت ملفات الادعاء الخاصة بكم كلها، فلا داعِ للصمت، في الحقيقة لقد قاموا باستغلالكم، لا يوجد بين ملفاتكم أي عملٍ ضد الدولة التركية، ومن خلال عمري وتجاربي الكثيرة في الحياة أستطيع أن أرى هذه الحقيقة بوضوح، والشيء الآخر أنه قد تم استغلالكم بشكلٍ سيء للغاية؛ فأنتم هنا بسبب قتلكم للثوار، هيا انظروا بأم أعينكم إلى ملفات ادعاءات الآبوجيين، هم قاموا بأعمال ضد الشرطة والمخبرين والجنود، فحتى لو وقفوا في الغد أمام حبل المشنقة فهم سيضربون بأرجلهم الكراسي من تحتهم وسيرددون شعاراتهم بلا خوف، لكن ماذا عنكم أنتم، ما الذي ستفعلونه؟".

بعد أن أبدى الخال محمد رأيه على طريقته وجد أن جو النقاش قد تبدد، فسأل: "من اعتقلكم؟".

-أحد أعضاء الـ (KUK): "وهل هذا سؤالٌ لتسأله يا خال، دون شك الدولة هي من قامت باعتقالنا".

-الخال محمد: "لا يا عزيزي، أنا لا أقصد ذلك، أعني أي فريق أو فرع من الشرطة؟".

-قال جميع أعضاء الـ(KUK) معا: "حمدي أوز ايبك وفريقه".

-الخال محمد: "أرأيتم؟ هذا ما أردت معرفته، حسناً، و من قتل حمدي أوز ايبك؟".

ساد الصمت مرّة أخرى، فنهض الخال محمد من مكانه وتوجه إلى ابن مدينته آمد.

-الخال محمد: "مرحباً يا بني، ماذا تفعل؟".

التفت إليه آمد قائلاً: "أهلاً بالخال، تعالَ اجلس".

-الخال محمد: "سأجلس، لكن أنظر إلى ما سيحدث هناك بعد قليل".

-آمد: "ماذا حدث مجدداً يا خال؟".

–الخال محمد: "لا تقلق، لم يحدث شيء، لكن ليتني لم أقرأ ملفات ادعاء الـ(KUK)، صدِّقني لقد انزعجت كثيراً وانفطر قلبي".

–آمد: "هل كنت تتحدث معهم بهذا الخصوص حتى الآن؟".

–الخال محمد: "نعم".

–آمد: "لا تهتم يا خال، لقد تجاوزنا هذه القضايا؛ فالثوار لا يحقدون".

–الخال محمد: "أعلم ذلك جيداً، لقد واجهتهم بكل شيء ومع ذلك لم يهدأ قلبي بعد".

–آمد: "ليتك لم تفعل ذلك، فهم يعايشون مسبقاً حالة أزمة، وعدم انسجام فيما بينهم".

–الخال محمد: "لا تقل هذا، فهذا واجبي الوطني".

بينما كان الخال محمد وآمد يتناقشان بدأت أصوات صياحٍ تصدر من الركن الذي كان يجلس فيه أعضاء الـ (KUK)، ومن ثم بدأوا بالعراك في ما بينهم، في البداية ظن المعتقلون بأنه شجارٌ عادي ككل مرة، لكن هذه المرّة كان الوضع مختلفاً وأكثر خطورة، لذا قام المعتقلون بتفريقهم، وتمكّنوا من إيقافهم عن العراك وأخذوا كل واحد منهم إلى ركن منفصل في المهجع، لكن هادي كان لايزال غاضباً ومتوتراً ويصرخ قائلاً: "يا قليلي الشرف، لقد قمتم باستخدامنا ضد الأبوجيين وقلتم عنهم جواسيس وعملاء، أصبح كل واحد منا الآن قاتلاً

للثوار، وبعد كل هذا تأتون إلينا وتقلِّلون من قيمتهم، يجب أن يموت كل هؤلاء". كان كل من حوله يحاول تهدئته.

بعد تلك الحادثة، انقسمت مجموعة الـ (KUK) التي كانت مؤلفة من 6 أشخاص إلى ثلاث مجموعات مؤلفة من اثنين، كل واحد منهم ضمَّ إليه أقرب شخص و باتوا يتناولون الطعام سويةً.

-"المهجع /33/، فليجهز كل واحد منكم قلماً ودفتراً، سأجري لكم الامتحان"

لم يصدر ذلك الأمر من مدرّس في مدرسة ابتدائية، أو ثانوية، أو من أستاذ جامعي، بل صدر من شخصٍ قد يكون مجرد رجلٍ قرويٍّ بائس، لا يمتُّ للعلم أو الثقافة بأية صلة، إلا أنَّ حُسن حظه قد جعله حارساً في سجن آمد، أي آمراً على/140/ شخص، وكان على الجميع تنفيذ أوامره دون نقاش. الآن سيقوم ذلك الحارس الجهبذ بإجراء امتحانٍ في كتاب (مبادئ وإصلاحات وثورات أتاتورك) لجميع معتقلي المهجع.

-الحارس: "استمعوا إليّ أيها الأوغاد، يتوجَّب على الجميع كتابة أسمائهم وألقابهم على الجانب العلوي الأيسر من الورقة، أحذركم من الغش ونقل الإجابات من بعضكم البعض، فإن كانت الأجوبة متشابهة فسأ... سأكتشف ذلك، لا يمكن لأحدٍ أن يخدعني. يا مسؤول المهجع اللعين احضر لي كتاب "بداية الثورات"، (كان الحارس جاهلاً لدرجة أنه لم يكن يفرّق بين كلمتي "مبادئ" و "بداية").

ذلك الكتاب كان قد أُعطي للمعتقلين قبل عدة أشهر وحفظه الجميع عن ظهر قلب، لأن ثمَّة جزءٌ منه كان مخصَّصاً للراءة خلال التدريب اليومي، حيث كان أحد المعتقلين يقرأ جملاً منه فيما الآخرون يرددون وراءه. استطاع جميع المعتقلين الإجابة عن الأسئلة في عشر دقائق وسلَّموا أوراقهم للحارس، بعد ذلك بوقت قصير دخل بعض الحرّاس لإعلان نتائج الامتحان.

–الحارس: "من هو بيروكرات؟ فليخرج بسرعة".

–بيروكرات: "بيروكرات ماردين، حاضر سيدي".

–الحارس: "أيها الوغد، لماذا لم تجب عن الأسئلة بشكل صحيح؟".

–بيروكرات: "لقد جاوبت يا سيدي".

–الحارس: "اخرس أيها الحقير، هل تحاول خداعنا؟ هل تعرف ماهي عقوبة عدم الإجابة بشكل صحيح؟".

–بيروكرات: "لكنني كتبت الإجابات بشكل صحيح يا سيدي".

–الحارس: " اخرس، عليك اللعنة، أية أجوبة صحيحة هذه؟ هيا احزم أغراضك ستذهب إلى الزنزانة الانفرادية".

قال العريف، الذي رأى بيروكرات يذهب لجلب أغراضه: "تعال، لا حاجة لها، ستنام على الأسمنت البارد، لتعود إلى رشدك".

أخرج الحراس بيروكرات وأخذوه معهم، بعد ذلك دخل عدد كبير من الحرّاس إلى المهجع. قال أحدهم: "سيتم طلاء جميع النوافذ المطلة على الخارج بألوان العلم التركي، ومن الآن فصاعداً ستبقى كلها مغلقة تماماً، يجب ألا يبقى ولو ثقبٌ صغير واحد".

كانوا قد جلبوا الطلاء والفراشي التي اشتراها المعتقلون سابقاً، وكان لدى ياسين نماذج جاهزة للعمل؛ وتم تنفيذ الأمر بوقت قصير. بعد أن تم إغلاق النوافذ انتشرت رائحة دورات المياه المسدودة في المهجع كله، وبات المهجعُ أشبهَ بمرحاضٍ كبير، كان المعتقلون يحدقون في بعضهم البعض وكأنهم عمال محاصرون داخل منجم ويتساءلون: "يا ترى إلى متى سنتحمّل هذه القذارة؟"، لكن لم يستطع أحد الإجابة عن ذلك السؤال، إدارة السجن أيضاً لم تكن تتحمّل تلك الرائحة، فحين كان الحراس يدخلون المهجع لضرب المعتقلين أو للقيام بأعمال أخرى يتوقون للخروج من هناك بأسرع وقت.

غدا المهجع /33/ أشبه بجزيرة جميع سكانها مصابون بالجذام، وكانت إدارة السجن تقول للمعتقلين بصراحة: "قد تتحمّلون هذا الجو لمدة أقصاها شهر واحد، وستصابون جميعكم بالسلّ في وقت قصير وبعدها بأمراضٍ يندهش لها الطب"، وبالفعل بدأت تلك الأمراض تظهر بعد مضي نحو شهر ونصف، وأصيب حوالي عشرة معتقلين بالسلّ.

بعد فترة أعادوا بيروكرات إلى المهجع، لم تكن تظهر عليه آثار تعذيب خطيرة، لكن آثار الخوف بدت واضحة عليه عندما رأى رفاقه رغم أنه كان يبتسم،

حين كانوا يأخذون أحداً من المهجع لفترة ومن ثم يعود، كان الجميع يجتمع حوله ويبدؤون بطرح الأسئلة عليه، كان ذلك تقليداً متبعاً داخل المهجع، وكانت الأسئلة عادةً من قبيل: "ماذا حدث، وماذا فعلوا بك؟ هل سارت الأمور على نحوٍ جيد؟"، وكان الشخص الذي تُطرح عليه الأسئلة يقوم بسرد قصته دون أن يُخفي عن الآخرين شيئاً.

كان بيروكرات ينحدر من إحدى قرى منطقة (أوفا)، وابناً لإمامٍ وطني، كان والده يراقب التطورات الحاصلة في جنوب كردستان عن كثب ومنخرطاً فيها، وقد ورث أبناؤه الوطنية منه، تعرّف بيروكرات على الأفكار الثورية وشارك في الحراك والأنشطة الثورية حين كان طالباً في المرحلة الثانوية، لم يكن هادئاً كوالده، بل سريع الانزعاج ويهدأ بسرعةٍ كذلك الأمر، وعندما يغضب لم يكن يرى أمامه شيئاً، ويكسر كل ما تقع عليه يده، كان بيروكرات يرتدي نظاراته دائماً لأنه كان يعاني من مشاكل في عينيه، وحين لم يكن يجد شيئاً ليكسره، يعمدُ إلى كسر نظارته، كان يهدأ بسرعة ويعتذر من الآخرين ويبدي ندمه على ما فعل، ومن ثم يحاول إصلاح نظارته أو يشتري أخرى جديدة.

كان بيروكرات صاحب أفكارٍ ثورية إلا أنه لم يكن قد وصل بعدُ إلى مستوى الثوري الحقيقي. بطريقةٍ ما كان لايزال ولداً مشاكساً، لذا تأثر كثيراً بأحداث يوم الـ 10 من تشرين الثاني، لكن بمساعدة فرهاد، الذي كان يعرفه ويعرف عائلته جيداً، استطاع أن يتجاوز تلك الأزمة خلال وقتٍ قصير، ورغم سلوكه الطفولي إلا أنه كان مؤيداً للحزب بشكل كبير، و لا يُخفي شيئاً عن رفاقه، سيما المقربين منه. كان حزيناً بسبب الأيام القليلة التي قضاها بعيداً عن رفاقه،

وعندما التقى بهم مجدداً بدأ يروي لهم ما حدث معه بغبطةٍ بالغة،يهزّ رأسه ذات اليمين وذات اليسار، وعيناه محمرَّتان قائلاً: "انظروا إلى ذاك الوغد، يكاد أن يسقطني".

–فرهاد: "أهدأ يا م...، من الرجل الذي تشتمه؟ أخبرنا السبب أولاً، ومن ثم اشتمه".

–بيروكرات: "من الأفضل أن أخبركم بكل شيءٍ منذ البداية. بعد أن أخرجوني من المهجع أخذوني مباشرة إلى المهجع /37/، ووضعوني في الزنزانة الخامسة مع خَلَف جاربار الذي كان في الطابق الثالث، سعدتُ كثيراً لأنني كنت أعرفه سابقاً، وبعد أن تبادلنا السلام والسؤال عن الأحوال، تحدثنا عن ذكرياتنا خارج السجن. أنتم تعرفون أن خَلَف كان يدافع عن الحزب أمام المحكمة، لذا كنت أثق به. بعد ذلك سألني "لِمَ جلبوك إلى هذه الزنزانة؟"، قلت له: "في الحقيقة أنا أيضاً لا أعرف السبب، ففي الصباح الباكر جاء حارس إلى مهجعنا لأجل إجراء امتحان كتابي، وقالوا أنني كتبت أجوبةً خاطئة، لذلك جلبوني إلى هنا". فقال لي خلف: "أما أنا فثمة من وشى بي في المهجع". أكمل بيروكرات: "خلال مجرى حديثنا كنت أسأله عن وضع المهاجع، أما هو فقد كان دائماً يسألني عن الأحداث السابقة التي حصلت معنا، ولم يتحدث عن المهاجع أبداً، لذا شعرت بالشك حياله وانزعجت"، قال لي: "ماذا ستفعل حيال الشهود في قضيتك؟"، فقلت: " بالأساس، لا يوجد شهود في قضيتي"، فردَّ علي: "أنت على حق، إنه مجردُ فضولٍ لا أكثر" متابعاً: "سأسألك عن شيءٍ آخر، بما أنك تعرف أكثر مني، هل تتذكر عاكف يلماز؟ لقد بقي في

ماردين لفترة، هل تعلم لماذا جاء إلى هناك؟ لو لم يُعتقل لخدم الحزب أكثر".

وهنا تيقَّنت تماماً لأمره، وقلت له: "وما أدراني بسبب مجيئه؟ من أين تأتي بهذه الأسئلة؟ علاوة على ذلك أنا لا أعرفه، وليس من الصواب أن تكون فضولياً ومصرّاً على معرفة سبب مجيئه إلى ماردين، ماذا كان يفعل ومع من كان يعمل؟ كما أنك تسألني أسئلةً كثيرة أخرى لا علاقة لنا بها حتى، وحتى لا أشك به قال لي: "ما بالك يا صاح، صدّقني أنا أسألك فقط حتى نُشغل أنفسنا". لكن في اليوم الثاني ازدادت شكوكي حوله، لذا كنت أفكّر ملياً قبل أن أجيبه على أي سؤال، وصباح هذا اليوم جاء الحارس وقال لي لقد انتهت عقوبتك، وحين خرجت من الحُجرة تركت له كل النقود التي كانت بحوزتي وحذائي أيضاً. في الحقيقة لو لم أكن حذراً لأوقعني في شركه، وقد حاول ذلك كثيراً. هذه هي حكايتي مع خَلَف في الزنزانة".

تفرَّق الجميعُ بعد أن انتهى بيروكرات من سرد قصته وبدأ كلّ واحدٍ يعلق على الموضوع وفقاً لطريقته، ولأن خَلَف كان يدافع عن الحزب أمام المحكمة حتى وقت قريب، قال بعض رفاق بيروكرات له: "شكُّك حيال الرجل محض وهم، الرجل يدافع عنا، من أين أتيت لنا بهذا كله؟ هو رفيقنا، ولمجرد أن سألك بعض الأسئلة، شككت به مباشرة؛ ما هذا إلا وسواسٌ قد تملَّكك".

بيروكرات: "أتمنى أن أكون مخطئاً، على الأقل لن أندم على إعطائه حذائي".

الفصل الخامس

الجوع قميءٌ والفقر قبيح، لكن لا شيء يضاهي قبح وبشاعة الرضوخ والاستسلام، حتى كلمتا القبح والبشاعة قد لا تكونان كافيتان لوصف ما كان يحدث في سجن آمد. ذاك السجن كان يصبح أحياناً قبرا ضيقاً، وأحياناً أخرى جحيماً لا يطاق، ورغم كل الألم والضغوطات والتعذيب الوحشي كانت لا تزال راية المقاومة ترفرف داخل جدران ذلك السجن.

كان كل شيء ينذر بقدوم الأسوأ، فساحات السجن وممراته باتت تتحول أكثر فأكثر إلى مسارح للتعذيب السادي، وعثر الجلّادون على أشخاصٍ بائسين لمدِّ يد العون لهم في أعمالهم القذرة، فقد كان أولئك البائسون يقومون بالمساعدة في عمليات التحقيق حتى مع رفاقهم الذين جمعتهم الصداقة لسنوات، وأحيانا كانوا يجمعون المعلومات عن ثوّارٍ لا يعرفونهم، لطالما كان هناك ضعاف نفوس مستعدون لفعل أي شيء مقابل بعض العظام أو تخفيف الضغط عنهم.

قبل أن تبني الخيانة عشّها في المهجع /38/ كان المهجع /40/ قد وضع حمله المليء بالخطايا، فاتّحد الوشاة، النادمونَ والخونة في صفوف القوى المعادية للثورة، وبدأوا يساعدون إدارة السجن على تنفيذ أجنداتها وممارساتها القذرة، كان اولئك الخونة يرون الحرية من منظور إبقاء المعتقلين تحت وطأة الضغوطات والتعذيب والقمع، لذا كانت الإدارة تعمد إلى التشديد أكثر فأكثر.

لم ينسى معتقلو المهجع /33/ تلك السنوات العجاف التي مرّت عليهم في غياهب ذلك السجن، وكانوا يرغبون الشعور بنيران نوروز تحتضن أرواحهم

التائهة، تلك النيران التي أشعلها كاوا الحداد فأشعلت السهوب والآفاق الواسعة. في ليلة الـ 21 من مارس/آذار، وبعد أن أنتهى الحراس من التفقد، قال الملازم: "بعد خمس دقائق لا ينبغي لأحد أن يبقى خارج سريره باستثناء المناوبين، وإن خالفتم سأ...". بعد ذلك التهديد والوعيد غادر الملازم ومرافقوه المهجع. كان من الواضح أنهم لايزالون خائفين من المعتقلين.

ذهب المعتقلون إلى أسرّتهم وأشعلوا نار نوروز بجريدة قديمة ليباركوا ذاك اليوم، غير آبهين بالتهديدات والشتائم، بعد ذلك اجتمعوا حول سرير فرهاد، حسب اتفاقهم، قام فرهاد بدايةً بشرح معنى وأهمية نوروز، ثم انتقل للحديث عن الوضع الذي كانوا يعايشونه بإسهاب.

أشرف: "يا رفاق، إن رغبتم، سألقي عليكم قصيدة أو اثنتين". وبعد أن انتهى أشرف من قراءة القصائد، قام بعض المعتقلين بالغناء، وتبادلوا أطراف الحديث حتى منتصف الليل وهم يحتفلون بعودة النوروز.

بينما كانت نسمات الربيع العليلة تهب في الخارج، كان المعتقلون يتلقَّون التدريب في فسحة التنفّس وينفّذون كل ما يطلبه منهم الحارس الذي كان واقفاً يلوح بعصاه ليتفادوا ضربات العصي والهراوات، كان الصوت الناجم عن ضربات أقدام 140 شخص على الأرض الخرسانية تحدث جلبةً كبيرة، وبينما كانت الحناجر تصدح بصوت، توجهت أنظار الجميع إلى باب فسحة التنفّس حين فُتح، ومرّة أخرى ظهر الجلّاد أسعد أوكتاي. صاح الحارس بأعلى صوته "انتبه!". تسمّر المعتقلون جميعاً في أماكنهم كالأصنام وساد صمت عميق، كانت

حبات العرق تنهمر من جباه المعتقلين بسبب شدة التدريب، وكانوا مجبرين على أن ينظروا إلى مكان وقوف النقيب، فيما بدا أسعد أوكتاي كتاجر عبيدٍ في سوق النخاسة يتمعَّن المعتقلين وهو ينظر إلى أوراقٍ كان يحملها بين يديه.

–النقيب: "فرهاد".

–فرهاد: "أنا هنا سيدي". ثم خرج من الصف وتقدم خطوتين إلى الأمام مقدِّماً نفسه: "فرهاد كورتاي، ماردين، أمرك سيدي".

بابتسامته المصطنعة، نظر النقيب إلى فرهاد من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، ومن ثم التفت إلى المعتقلين وقال بصرامة: "استمعوا إليَّ جيداً!"، ومن ثم أشار بإصبعه إلى فرهاد متابعاً: " إذاً أنت فرهاد كورتاي، كنتَ على وشك الخروج من هنا. انظروا، إن هذا الرجل الذي ترونه ليس شخصاً عادياً، بل هو مسؤول حزب العمال الكردستاني في آمد (ديار بكر)، ماردين وسيرت. إن لم أكن موجوداً هنا لخرج هذا الرجل من السجن وهو يلوِّح بيديه".

–"أبنائي، فلتكتشفوا حقيقة هذا وأمثاله. أما أنتم فستتعفنون في السجون. أيجوز مثل هذا الشيء؟ بلا شك لا. لن أسمح بذلك بأي شكل من الأشكال. لن أسمح أن يخرج هؤلاء الخونة من هنا أحياءً. أنا أريد لكم الخروج من هنا، أما هذا الرجل وأمثاله فسأجعلهم يتعفنون في هذا المكان، ولن يتبقّى منهم أحد. كانوا يتغنون بكمال بير وها هو قد اعترف، كذلك فعل خيري دورموش".

ضحك النقيب قليلاً، ونظر مجدداً إلى فرهاد ومن ثمَّ قال: "انظر يا هذا، أنا لا أصدّق، بالفعل كان قد بقي القليل لإطلاق سراحك. نحن لم نلتقي منذ مدة يا أبنائي، كان لدي بعض الأعمال، لكن مهما حصل، لا تترددوا، تعالوا إلي وأخبروني بكل ما فعلتموه بجسارة، أنا سأنقذكم، لا أحد غيري يستطيع فعل ذلك هنا. سآتي لرؤيتكم مجدداً، لذا فكّروا جيداً واتخذوا قراركم إلى ذلك الحين".

همّ أسعد أوكتاي الذي كان يشبه كلبة تتجول برفقة جرائها بالخروج مع مرافقيه كما جرت العادة، ولم يغفل عن فرقعة أصابعه وهو على وشك المغادرة قائلاً: "يا بني دع الشباب يستريحون!"، كان المعتقلون يدركون جيداً معنى الاستراحة التي كان يقصدها، فلم تمضِ بضع دقائق حتى دخل حوالي خمسة عشر حارساً إلى الساحة وهم يحملون العصي والهراوات وأدوات التعذيب المختلفة وقاموا بمهاجمة المعتقلين؛ وكأنَّ ثوراً هائجاً اقتحم بستان ورود.

كان المعتقلون يتأوّهون من شدة الألم، وكالعادة قام الذين كانوا لا يزالون قادرين على الوقوف بمساعدة رفاقهم الذين فقدوا الوعي لإعادتهم إلى المهجع، واضطر مسؤول المهجع أن يبلغ الحارس بالحالات الطارئة التي تتوجب الإسعاف. كان حسيب يتقلّب على الأرض وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويلوح بإشارة النصر بيده اليمنى قائلاً: "فلتسقط الفاشية، فلتسقط..."، في تلك اللحظة دخلت مجموعة من الحرّاس على حين غرَّة، وحين أحسّ حسيب بدخولهم بدأ يهتف عكس ما كان يقوله قبل مجيئهم، وبدأ بقراءة كل الأدعية التي كان يحفظها وحتى التي لم يكن يحفظها: "آه يا أمي، أنا أموت، خلصّني يا إلهي. أشهد

أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله"، كان أشرف واقفاً بجانبه وانزعج كثيراً لفعلته، فركله بقدمه ركلة خفيفة وقال له بالكردية دون أن يسمعه الحرّاس: "اصمت أيها السافل، قبل قليل كنت تقول فلتمت الفاشية، والآن تبكي أمامهم وتتوسل إليهم؟"، بعد أن أعطاه رقيب الصحية حقنة خرج الحرّاس من المهجع، وبقي المعتقلون لوحدهم مرَّةً أخرى، كانوا يفكّرون بما قاله النقيب لفرهاد ويبدون تعليقاتهم وآرائهم.

كان من المؤكد أن أحدهم قد وشى بفرهاد، وأن من وشى به لم يكن شخصاً عادياً.

-عدنان: "تُرى من يكون يا أخي؟".

-فرهاد: "من تقصد؟".

-عدنان: "ذاك الذي وشى بك".

-فرهاد: "كيف لي أن أعرف يا أخي؟ ولكن كما قال ميرفان أيضاً، ثمة من فعل ذلك، ولكن من هو؟".

-آمد: "أخي، كم عدد الأشخاص الذين يعرفون وضعك؟".

-فرهاد مبتسماً: "هناك عدد لا بأس به ممّن يعرفون".

كان لكل شخصٍ تفسيره الخاص، ولكن معظمهم يشكّون في شخص واحد، إلا أنهم لم يقولوا ذلك علانيةً.

همس آمد لعدنان: "بالتأكيد إنه يلدرم ميركيت".

–عدنان: "وكيف توصّلت إلى هذا الاستنتاج؟".

–آمد: "كيف توصّلت؟! من خلال مواقفه في السجن والمحكمة".

قال أشرف الذي كان يستمع إليهم: "لا ضرورة لتهامسكما، لقد سمعتكما، في الحقيقة أنا أيضاً أشكُّ به".

لم يكن حديثهم قد انتهى بعد، ولكنهم بدأوا ينسحبون إلى أسرّتهم ببطء.

سأل آمد: "لماذا تأخر الذين ذهبوا إلى المحكمة؟ التفقّد على وشك البدء".

–ميرفان: "لربما ثمة تطورات مهمّة فتأخَّروا في العودة".

وبينما كان آمد وميرفان يتحدثان، فُتح باب المهجع ليدخل إسكان أولاً ومن ثم بقية المعتقلين. تجمّع المعتقلون حولهم بفضول أكبر من المعتاد، وسألوهم: "ماذا حدث في المحكمة؟ لِمَ تأخَّرتم هكذا؟ هل التقيتم بأحدٍ من المهجع /35/؟".

كان العائدون من المحكَمةِ حزينين ومنهكين، وكأن كل واحد منهم يحمل جبلاً فوق ظهره، كانت شفاههم جافة، وألسنتهم عالقة في حُلوقهم، لم يكن ذلك بسبب العطش أو التعب، بل بسبب ذلك الخبر المفجع الذي أفزعَ سريرتهم، ربما كانوا يقولون في أنفسهم: "لقد سمعنا تلك الأخبار السيئة التي حطمت قلوبنا، كيف عسانا أن ننقلها لرفاقنا"، لكن مهما كان ذلك مؤلماً وصعباً، فلم يكن ليخفوه عن رفاقهم؛ إنّهم ملزمون بذلك، ولكن ألم يملك من

نقلَ لهم الخبر قلباً؟ أم أن قلبه كان من حجرٍ؟ استجمعوا قواهم أخيراً وقالوا: "لتعطونا بعض الماء، فقد جفَّت حناجرنا، ألم تعتادوا على هذه الأوضاع بعد؟ وكأنكم لم تتواجدوا في سيارة دفن الموتى تلك يوماً، وليعطنا أحدكم السجائر حتى نملئ قلوبنا بالقطران".

كان إسكان يجلس القرفصاء ويجثم بجانب فرهاد هيكلاً بلا روح، وعيون المعتقلين تتفحصهم كالرادار، نهضَ فرهاد من مكانه متوجِّهاً إلى المجتمعين، لا جدوى من إخفاء الخبر، فحتى مظلوم دوغان، كاوا العصر، لم يكن ليقبل بذلك. كان قلب فرهاد يحترق كالجمر، فصاح: "أيها الرفاق، لقد اضرم رفيقنا مظلوم النار بجسده في ليلة الـ 21 من آذار، لقد حمل نار نوروز من قمم الجبال وأشعلها داخل جدران السجن من خلال جسده"، في تلك اللحظة ساد المكانُ صمتٌ ممزوج بالعصيان، فالذين كانوا يدركون المعنى الحقيقي لذلك العمل الشجاع بدأوا التفكير بعمق، وباركوا تلك المقاومة المقدّسة بقلوبهم الملتهبة، أما الذين لم يدركوا فلم يتجرؤوا على السؤال خوفاً من حقيقة ذلك الخبر.

امتلأت العيون بدموعٍ حارّة، وضعوا المناديل على الجباه، بعضهم لم يخفِ دموعه ولم يمسحها، كانوا يقولون فلتبكي العيون التي نسيت البكاء. فلتنهمر الدموع على الشفاه وتستقر على الألسنة، فالدموع المالحة الحارة هي بلسمُ القلوب".

"كانوا يبحثون عن الموت في تلك الزنزانات، ولكن ليس أي موت، يبحثون عن موتٍ كبير بحجم جبل آغري (آرارات) عالياً وشامخاً مثل قممه، عن موتٍ

طاهرٍ ونقيّ كطهرُ مياه بحيرة وان، فلتمتلئ الدنيا بهذا الخبر لننسى هيروشيما وناكازاكي، ومعسكر أوشفيتس وحتى مجزرة حلبجة".

ثمَّة نوعان للموت في هذا العالم الكبير، موتٌ اعتيادي كتساقط أوراق الشجر، وآخرٌ فجائي لا يعترف بتراتبية قوانين المكان والزمان، كتساقط الأمطار في شهر نيسان، لكن أيضاً، ثمة موتٌ يضرب العدو في مقتلٍ، كخنجرٍ كردي ينغرس في عينه ويفتك بغدره اللئيم، كشعلة تمزّق ستائر الظلام العائد لمئات السنين، هي شعلة كاوا الحداد التي وصلت لكاوا العصر، مظلوم دوغان واخترقت جدران السجن فأنارت كل زوايا زنزاناته، تلك الميتة التي جعلت الأصدقاء يستفيقون من سباتهم، وجعلت العدو يهرب كالجبناء. هناك أيضاً تعريفاتٌ أخرى للموت على لسان المعلمين الكبار، يقول أبيقور: "يجب ألّا نخاف من الموت، فلا موت بوجودنا، فإن حَضَرَ الموت فلن نكون هناك". فيما يقول ماو تسي تونغ: "الموت نوعان، موتٌ بخفة الريش، وآخرٌ بحجم جبال التاي"، وقال تشي غيفارا: "الأبطالُ هم الذين يواجهون الموت، أما الذين يهربون منه فهم الجبناء والساسة السيِّئون".

–فرهاد: "أيها الرفاق، جميعكم سمعتم الخبر، فلنذهب إلى المطعم"، نهض الجميع من أسرّتهم متوجِّهين إلى المطعم، اقترب فرهاد من عدنان قائلاً له: "هل تحدثت إلى رفاقٍ من خارج مجموعتنا؟".

–عدنان: "أعضاء حزب كاوا والبارتيزانيون يقولون أنهم سيفعلون ما نراه مناسباً، أما البقية فهم يرون بأنَّ هذا العمل محفوف بالمخاطر".

-فرهاد: " لا نستطيع إجبار أحد على المشاركة، فلتلق علينا كلمة يا نجمي، ومن ثم سندعو البقية للوقوف دقيقة صمت، ما بالك؟ توقف عن البكاء، فلتجمع شتات نفسك".

لم يكُ نجمي قد خرج بعدُ من تأثير الصدمة التي تعرَّض لها إثر سماعه خبر استشهاد مظلوم، كان يبكي بحرقة دون أن يخفي ذلك عن أحد. وقف قائلاً: "حسناً يا أخي أنا جاهز".

-فرهاد: "عزيزي نجمي، اصغي إليّ، بعد أن تنهي كلمتك قم بدعوة الجميع للوقوف دقيقة صمت".

-صاح نجمي: "تجمَّعوا أيها الرفاق!".

كان المعتقلون يجتمعون عادةً حين يأمرهم الحراس بذلك، وكأنهم مدعوون إلى مائدة إبليس لأداء صلواتٍ محرمة، لكن هذه المرة تجمَّعوا في ساحة التدريب بكل حبٍّ واحترام إجلالاً لقائدهم، إذ لامس نداء نجمي قلوبهم، وهم بدورهم أبدوا الاحترام ووقفوا باستعداد جنباً إلى جنب، ذاك الاحترام لم يكن مصدره الخوف، الضرب أو الإكراه، بل كان نابعاً من قلوبهم بكل صدق.

كان يتواجد في المهجع قرابة عشرة وطنيين، وحين تقدّموا برفقة بعض المعتقلين الآخرين للاجتماع، اضطر الآخرون من باقي الأحزاب للانضمام إليهم، وهكذا انضمَّ جميع معتقلي المهجع /33/ للوقوف دقيقة صمتٍ إجلالاً لروح مظلوم دوغان، عندما رأى نجمي أن الجميع قد حضر، دعاهم ببضع كلمات مقتضبة

للوقوف دقيقة صمت، كلمات نجمي كانت تعبيراً صادقاً عن مشاعره ولم تكن خطاباً بالمعنى الحرفي، حيث قال: " أيها الرفاق، كان يجب ألَّا نجتمع اليوم لنستذكر مظلوم، بل كان يجب أن يقوم هو باستذكارنا، لأنه كان علينا حمايته وإبقاءه على قيد الحياة، لكننا لم نفعل ذلك، لا تتوقعوا مني أن أكلمكم عن مظلوم، فجميعكم يعرفه جيداً"، لم تُفهَم كلمات نجمي الأخيرة وكأن ثمة شيءٌ ما عالقٌ في حلقه، فانخرط في البكاء، وبكى معه الجميع، لم يعد نجمي قادراً على التحمُّل، ولا على الكلام، رغم أنه كان يرغب كثيراً في الكلام وحتى الصراخ، رفع يده اليسرى في الهواء شادّاً قبضته، أدرك المعتقلون أنه يدعوهم للوقوف دقيقة صمت فنفذوا ما طلبه رفيقهم، بعد مضي دقيقتين كان نجمي واقفاً كالتمثال وكأنه يقول: "لا تدعوا هذه الوقفة تنتهي، لا تدعوا هذه المعركة تنتهي"، رغم أن فرهاد أدرك وضع رفيقه إلا أنه لم يرغب في إيقاظه، فلو فعل لكان ذلك أسوأ ما قد يفعله بحقه. أنهى نجمي الاستذكار بكلماتٍ كردية مقتضبة.

كان نجمي بالكاد يعود إلى رشده، فانضم فرهاد إلى الخطاب قائلاً: "أعاهدكم جميعاً بأنني سأكمل مسيرة الرفيق مظلوم".

كانت الحياة مليئة بالمخاطر، وإن لم تؤخذ تلك المخاطر بعين الاعتبار فلن يفهم عندها المعنى الحقيقي للعمل الذي قام به الرفيق مظلوم، وبعد ذلك العمل البطولي بات المعتقلون يأخذون المخاطر التي تحيط بهم بعين الاعتبار، فمن الآن فصاعداً سيقسم التاريخ لديهم ما بين "قبل مظلوم وبعده"، فما قام به مظلوم كان ضربةً موجعة لحالة الاستسلام التي كانت كحصان يشق طريقه دون

توقف، وكذلك أربك كل مخططات وأجندات القوى المعادية الثورة، وخلق النواة الصلبة للمقاومة.

غدا ذلك العمل كنجم الشمال لكل من تاهت به السبل، ودماً طاهراً نقياً لكل رفاقه وأحبائه، وأمسى بركاناً ثار لينير ظلمات وغياهب السجن، العملُ البطولي الذي قام به مظلوم كان له التأثير الكبير على كل من يعتنق الكفاح لأجل الإنسانية، فلقد بث في أرواحهم قوة كاوا التي لا تقهر أبداً، وبشارةً لكل المعتقلين الذين كانوا يئنون تحت نير الظلم الوحشي، وكان معتقلو المهجع/33/ أكثر من تلقوا تلك البشارة بحفاوةٍ وجعلوها قطعةً من أرواحهم.

اولئك الرفاق الشجعان وهبوا الحياة للمهجع من جديد من خلال آلامهم ودموعهم، فلقد كان الوقوف دقيقة صمت وإلقاء الخطاب الثوري في أكثر أماكن العدو خطورةً، في المطعم الذي يعتبر حقل ألغامٍ متكامل، مجرَّد امتحانٍ صغير لهم، سوى أنَهم تحدّوا كل المخاطر إجلالاً لروح مظلوم، وباتت تلك القلوب التي تتألم منذ سنوات تتغلب على الخوف شيئاً فشيئاً.

جلسوا وقلوبهم تمتلئُ بالإرادة، ودون أن يكترثوا لأي شيءٍ أخرجوا السجائر وأشعلوها علانية، وبدأوا يسحبون دخانها حتى وصلت إلى قلوبهم وأكبادهم، نادوا إسكان قائلين له: "هيا قل لنا، كيف سمعت باستشهاد مظلوم؟ أخبرنا عن أدق التفاصيل، هيا أخبرنا"، صمت الجميع وتوجهت الأنظار كلها إليه.

إسكان: "قاموا بإخراجنا من المهجع، وقيّدوا أيدينا في ممر (مالطا)، جعلونا نردِّد الأناشيد الوطنية حتى الثامنة والنصف، بعدها جلبوا معتقلي المهجع

/35/، قرأوا الأسماء ولكن لم يكن اسم الأخ مظلوم موجوداً بينهم، اعتقدت أن الرفيق مظلوم مريض وإلا كان سيأتي، فهو لم يغب عن حضور أية محاكمة حتى اليوم، وصلت هيئة المحكمة إلى القاعة عند الساعة العاشرة وتم تنفيذ الإجراءات المعتادة، رفع الأخ خيري يده وطلب الإذن للكلام، وبعد أن منحته الهيئة حق التكلّم، ذهب الأخ خيري إلى الميكرفون، كان يبدو حزيناً للغاية، وبدا ذلك واضحا من كلامه، قال: "في ليلة الـ 21من آذار، بثلاثة عيدان ثقاب، أضرم مظلوم النار بجسده، منهياً حياته، اعتراضاً على القمع والتعذيب الوحشي المُمارَس بحق المعتقلين في السجن، لذا فالعمل الذي قام به مظلوم ليس عملاً عادياً بل عملاً سياسياً"، ومن ثمَّ أكمل: "أريد أن ينقل كلامي هذا كاملاً إلى المحضر"، ومن ثم جلس في مكانه، لكنني لم أفهم بالضبط معنى أنه: "أحرق نفسه بثلاثة عيدان ثقاب" ربما فهم الرفاق الآخرون أكثر مني".

توجهت العيون إلى الرفاق الذين كانوا المحكمة، لكنهم قالوا: "نحن أيضاً فهمنا على النَّحو الذي فهمه إسكان".

-إسكان: "هذا ما حدث في المحكمة، لا شيء آخر، ولكن قبل أن أنسى، لقد ترك الرفيق مظلوم بياناً، وطلب الأخ خيري من الإدارة أن ترفقها مع ملفّ قضيتنا".

كان كومين المهجع /33/ يبدو كعائلة ثوار، وكان الشباب الكادحون أعمدتها الرئيسة، إلى جانب اولئك الكادحين كان ثمة من يشبه الأطفال المشاغبين، وكان هناك أيضاً من يستاء ويغضب، كانوا مزيجاً من الضعف، العيوب

والعظمة في الآنِ نفسه، ولكنهم كانوا كتلةً صلبةً متكاملة، وعندما تعرض الكومين للضغوطات والعواصف العاتية تخلى عنه بعض أعضاؤه.

كانت أكبر صدمة تعرضوا لها هو خطاب العاشر من تشرين الثاني، فانفصل البعض على إثرها عن قافلة المقاومة، لكنهم عادوا مرّة أخرى، ومن بينهم نجم الذي كان يؤدي مهمة مسؤول المهجع في تلك الظروف الصعبة بوفاء كبير، حتى فصيح الذي لم ينضمّ إلى الكومين سابقاً جاء ليعلن الانخراط في صفوفه، فجلب حاجياته الشخصية وألقى بها أمام رفاقه قائلاً: "لم يعد بإمكاننا العيش بعيداً لوحدنا، سواء أن قبلتم بذلك أم لا".

انتقل المعتقلون إلى تقييم القسم الثاني من العملية الفدائية التي قام بها مظلوم، وعلى ضوئها ناقشوا كيفية كسر سلسلة الاستسلام، كانت تلك النقاشات تُدارُ عموماً بالقرب من سرير فرهاد، حيث كان كل المعتقلين مجتمعين هناك وطلبوا من فرهاد أن يحدثهم عن مظلوم.

-فرهاد: "كيف أحدثكم عن مظلوم؟ جميعكم تعرفونه، ومن لا يعرفه فقد سمع به".

كان واضحاً أن فرهاد لم يرغب بالتحدث، لكن بعد إصرار رفاقه شعر بأنه مضطر للتحدث وقول شيءٍ ما: "قبل كل شيء، لكي تعرفوا مظلوم حق المعرفة، فمن الضروري فهم عمله الفدائي الأخير، حين تفهمون ذلك ستعرفون من هو مظلوم".

-عدنان: "إن وددتُم، يمكننا مناقشة التأثير الذي سيخلفه العمل البطولي الذي قام به الأخ مظلوم على الداخل والخارج".

-محمود: "لا حاجة للخوض في ذلك، فليحدِّثنا أحد الرفاق عن عملية الأخ مظلوم وما الرسالة التي أراد إيصالها إلينا عبرها".

-فرهاد: "فلتكتشفوا ذلك بأنفسكم".

-أشرف: "أعتقد أن سياسة إدارة السجن كانت تتمحور بشكلٍ أساسي حول استيعاب المستسلمين، لكن مع حلول العام الجديد قاموا بتغيير تلك السياسة، أرادوا إنهاء المستسلمين بشكلٍ كامل، أي أنهم لا يريدون أن يبقوا مجرد مستسلمين، بل تحويلهم إلى خونة؛ حسب رأيي، ينبغي تقييم عملية الأخ مظلوم ضمن هذه المعطيات".

-ميرفان: "ما قاله أشرف صحيح، كما تعلمون لدينا حق الدفاع عن النفس في المحاكم، ولن نقبل انتهاك هذا الحق من قبل العدو بأي شكلٍ من الأشكال، فمن خلال ذلك الحق وحده نستطيع أن نوصل صوتنا الثوري لشعبنا، حزبنا والعالم أجمع، لو أضفنا هذا التضييق المتعمَّد على حق الدفاع إلى ما قاله أشرف ستبدو الرسالة من عملية مظلوم واضحة، وأنا على ثقةٍ أيضاً أنه أراد أن يقول لنا: "لا تبقوا صامتين حيال هذا الوضع".

-عدنان: "ثمة ما أريد قوله إلى جانب ما أسلفتم ذكره، إن لم نكسر حالة الاستسلام التي نعيشها اليوم، فلن نكون قادرين على مواجهة سياسات

التخوين التي يسعى العدو لتطبيقها علينا، كذلك لن يكون بمقدورنا استرداد حقنا المنتهك في الدفاع عن النفس. قبل كل شيء، عملية مظلوم ترمز لكسر حالة الاستسلام التي نعيشها وكذلك تحقيق ما ذكرتموه، أي أن مظلوم يقول لنا: " انهوا حالة الاستسلام قبل أن تودي بكم إلى الخيانة، وقد يكون ثمن ذلك التضحية بأرواحكم كما فعلتُ، وإلا فلن تستطيعوا أن توقفوا عمليات التخوين وكذلك لن تستطيعوا إيصال أصواتكم في المحاكم للشعب والحزب. لقد أنار لنا مظلوم طريق الخلاص، لكنه أشار أيضاً لمدى وعورة وخطورة ذلك الطريق".

-فرهاد: "عملية الرفيق مظلوم تحمل معانٍ أوسع، إذ أنَّ القيام بذلك العمل في ليلة نوروز يحمل في طياته أهميَّةً أخرى، وهي إعادة إحياء ذكرى كاوا الحداد الرامز للمقاومة والانتفاضة التاريخية، أي أن مظلوم دوغان بات كاوا العصر".

-"تاريخنا حافل بحركات المقاومة، لكن شعبنا اليوم يقود معركة البقاء، والقتال هو طريق الخلاص الوحيد، كما أن العدو يسعى جاهداً لخنق وتدمير ثورة شعبنا ونضالنا الثوري من خلال استهداف شخصياتنا داخل السجون، فلو قيَّمنا الوضع من هذا المنظور سيتَّضح لنا تماماً المعنى الحقيقي لعملية مظلوم. باختصار، نضالنا ومقاومتنا في عقر دار العدو هو تمثيل شعبنا في أعلى المستويات، فقد رأى مظلوم أن حالة الاستسلام تتجه نحو التخوين المنهج فنفَّذ عمليةً على أعلى المستويات لسدِّ الطريق أمام ذلك، وكأنَّه يقول لنا: "إن كنتم لا تريدون الوقوع في فخِّ التخوين فلتسيروا على خطاي، هذا الطريق لن يكون سهلاً البتَّة، قد تضحُّون بحياتكم عن طيب خاطر بينما تسيرون فيه. من جهةٍ أخرى، الاستسلام ليس قدراً محتوماً علينا، وإن إنهاءه من خلال النضال

الجدّي سيودي حتماً إلى النصر". لقد كان مظلوم أحد رفاقنا الذين جسّدوا هذه الحقيقة في شخصيتهم؛ كان الاستسلام بالنسبة له يعني الموت، كما أنه كان بعيد النظر وبمقدوره فهم أهداف الحركة جيداً".

-"لقد كان يدرك جيداً الأخطار التي تحدق بثورتنا، وعلى رأسها حالة الاستسلام في الداخل، ويؤمن بأن كل خطوة للأمام ستعزز مكاسب الثورة، لذا كان يشير إلى أن العبء الأكبر يقع على عاتق قادة وأعضاء الحزب، وما يقع على عاتقنا الآن هو السير على الدرب المرسوم من قِبَل مظلوم، لا تحزنوا أبداً لموت مظلوم ولا تدعوا الألم يستحوذ عليكم؛ نحن لم نخسر مظلوم، بل هو لا يزال منبعاً للمقاومة والنضال، رحيله يعني أنه سيعيش في قلوبنا إلى الأبد؛ وهذا هو الخلود بعينه".

{عندما لامست مطرقة كاوا السندان، تطاير الشرر فاشتعلت كل السهوب في آنٍ. قلب مظلوم احترق كما ظلام زنزانته. لشدة غضبه من الاستسلام، أشعل ثلاث أعواد ثقاب، وبينما كان جسده يرفرف كعلمٍ قرمزي في قلب السماء، جلب معه نور الصباح فشقَّ به عتمة الزمان، مظلوم دوغان بات كاوا العصر بعد الآن، أنارَ بشعلته قلوب كل القابعين في السجون، و باتَ اسمه شِعراً على كلِّ لسان.}

يا وردتي

لن تدركي خيانة العتمة الموحشة

قبل بزوغ فجر الصباح

لن تدركي قيمة النور

قبل حلول الظلام

* * * * * * * * *

يا وردتي

وحده الثلجُ ما يخفي الوجه القبيح للعالم

وحده الموتُ ما يختبر بأس الرجال

* * * * * * * * *

يا وردتي

لن تدركي، إن لم تتألمي

سوف تعرفين يوماً أنه

وقبل أن تبصري النور،

احتفى بك رجلٌ من هذا الزمان،

كان يدعى مظلوم دوغان.

دبَّت الحماسة والإثارة في جنبات المهجع /33/ من جديد، كان المعتقلون يبتسمون ويتمازحون فيما بينهم ولو بقدرٍ أقل ممَّا كان في السابق، إلا أنهم كانوا لا يزالون يضحكون، فالضحك هو جوهر الحياة. يجب أن يضحك المعتقلون حتى لو كانوا في مخاض الموت، أن يناضلوا بابتساماتهم، وأن يقفوا متسلحين بهذه الإرادة وجهاً لوجه أمام العدو، تلك الإرادة المزوجة بالفرح تغلغلت بالفعل في قلوب معتقلي المهجع /33/، فكانت الدردشات والنقاشات الليلية والصحبة تملأ جنبات المهجع، وكان كشه لا ينقطع عن تلك النقاشات دون أن يكترث لمرضه، ففي بعض الأحيان كان يغيظ آمد ومحمود، وأحياناً أخرى ينصب الكمائن لنجمي وأشرف، وبالطبع لم يتخلى يوماً عن صديقه المقرب كيبار. كان ثمة نقص كبير في المهجع، بالنسبة لكشه، فقد غاب عنه منافسه الأزلي منذ فترة طويلة، بدأ كشه يغيظ صديقه كيبار مجدَّداً: "تُرى ماذا يفعل ابن مدينتك آلِك الآن في (كاهتاي/ Kahtay)؟ بالتأكيد هو يواصل العمل في المهنة نفسها التي كان يمتهنها هنا".

–ميرفان: "صحيح أن ابن مدينتي كان شخصاً متلعثماً، لكنه كان رفيقاً جيداً، لو كان هنا لدعمك دائماً، لكنه ليس هنا الآن، لن أسمح لك أن تغتابه".

–كشه: "لقد عرفناك وعرفنا ابن مدينتك عندما كان هنا، حين أُطلق سراحه طلبت منه أن يذهب لرؤية عائلتي، لكنني لا أعرف هل ذهب أم لا؟.

–ميرفان: "إن وعدكَ بذلك فسيذهب بالتأكيد".

استعاد عصمت حماسته وروحه المرحة مرَّةً أخرى، كان يتحدث بسرورٍ للمعتقلين المجتمعين حوله عن المقاومة، النضال في الخارج، والقادة، وبالطبع يتطرُّق إلى بعض الدُّعابات في معرض حديثه ليُضحك من حوله، ويضع لمساته الخاصة على كل ما يقوله، حتى وصلت به الأمور أنه لم يعد يملك ما يخبره للمعتقلين القدامى، لأنه روى لهم كل ما في جعبته مرَّاتٍ عدَّة وبرواياتٍ مختلفة، كما أنَّ المعتقلون القدامى لم يعودوا يستمعون إليه كثيراً، لكنه كان دائماً يجد من يستمع إليه، وهذه المرّة وجد بعض الوافدين الجدد ممن لم يسمعوا نوادره بعد، وبدأ يتحدث إليهم بشغفٍ كبير.

-كولومبو عصمت: "حسناً، عندما وقفتم أمام القاضي ماذا قلتم له؟".

-"ماذا عسانا نقول؟ كنا صامتين، باستثناء بعض الأشياء مثل، هذه ليست إفاداتنا".

-كولومبو عصمت: "كيف ذلك؟ ألم يقُم أحدٌ منكم بفضح ممارسات الجلادين؟ استمعوا إلى ما قلتهُ أنا، أخذوني مع مجموعة من الرفاق للمثول أمام القاضي، وكانت ثمة امرأة جالسة هناك تُدوِّنُ إفاداتنا، كان الجميع يقولون أنهم غير مذنبون كما فعلتم أنتم، وعندما حان دوري، ظنَّ القاضي بأنني سأدّعي البراءة، فسألني: "لقد قرأنا إفادتك يا عصمت، ماذا تقول؟"، تلفتُّ يميناً ويساراً ونظرت إلى تلك المرأة، قلت في نفسي أني سأفضحها مهما كان الثمن، قال لي القاضي: "اسرع يا عصمت نحن في انتظارك". كما تعلمون يا رفاق، فإن الأشخاص الثوريين لا يخجلون من قول أي شيء أبداً، لكن في الوقت نفسه لا

يبوحون بكل شيءٍ في كل مكان، فتلفتُّ من حولي مرة أخرى و قلت في قرارة نفسي: "هل أقولها أم لا؟"، ثم قلت: "هذه مهمة تقع على عاتقي ومن الضروري قول ذلك".

–المستمعون: "يا عصمت، لا يجوز ما تفعله، نحن نستمع إليك منذ الصباح الباكر وأنت لم تدخل في صلب الموضوع بعد".

–كولومبو: "تمهَّلوا يا رفاق، بالطبع سأخبركم كل شيء، وإلا لِمَ أتيت على ذكر الموضوع؟ لا تقلقوا لن أثير فضولكم أكثر" قلت للقاضي: "سيدي القاضي، يوجد شيء تملكه أنت، وأملكه أنا، و يملكه كل الحاضرين هنا".

–القاضي: "عصمت، يا ُبني، ما هو هذا الشيء الذي أملكه أنا وتملكه أنت ويملكه الآخرون أيضاً؟ تكلَّم بوضوح أكثر".

–كولومبو: نظرت إلى تلك المرأة مرة أخرى وقلتُ: "لو لم تكن موجودة لكنت تكلمت بوضوح"، في النهاية قلت مرّةً أخرى: "يوجد شيء تملكه أنت، وأملكه أنا، ويملكه كل الحضور، ما عدا تلك المرأة هناك وأشرت بإصبعي إليها"، لم يفهم القاضي ما قلته مرة أخرى، لعلَّهُ فهم لكنه تظاهر بعكس ذلك، لذلك اضطررت أن أمسك به أمام القاضي و قلت له: "لقد تم تعذيبه على أيدي الشرطة! ما أريد قوله هنا، لا أحد يستطيع فضح هذه القضية المفصليَّة، أما أنا فقد فعلت ذلك بكل أريحيَّة".

كان دور الذهاب إلى المحكمة هذه المرّة لأعضاء الـ (KUK) من المهجع /33/، وبعد عودتهم ذهب المعتقلون إليهم حتى يعرفوا آخر التطورات في المحكمة، وكان كل ما سيقولونه في تلك الفترة مهماً بالنسبة لمعتقلي حزب العمال الكردستاني، ففي تلك المرحلة ازداد عدد المعترفين في المحاكم وبدأت أسماؤهم تظهر إلى العلن، ونضجت الخيانة تماماً في المهجع /38/.

أحد أعضاء الـ(KUK): "في الحقيقة يا رفاق، إن جلّ ما كانت تفعله هيئة المحكمة هذه المرة هو التقصّي عن معلومات حول أعضاء تنظيمنا، لقد سلّموا ملفات الادعاء الخاصة بنا لشخص كان ضمن صفوفنا في السابق، فكان يشهد ضد كل المتهمين في قضيتنا، لقد وصل به الانحطاط لدرجة أنه كان يقوم بتذكير القاضي بالتفاصيل الدقيقة التي سها عنها، أعتقد أنه يجب عليكم الاستعداد جيداً لمواجهة هؤلاء المنحطين، وخصوصاً آمد وعدنان، باستثناء ذلك لا شيء جديد، فالمعتقلون الذين قابلناهم هناك لم يخبرونا عن أوضاعهم داخل السجن".

بعد عملية مظلوم الفدائية برز حراكٌ جديد بين المعتقلين المقاومين، وفي المقابل كثّفت إدارة السجن بالتعاون مع اولئك المخبرين من هجماتها بناءً على المعلومات التي كانت تصلهم من المحاكم.

في ذلك الوقت، بدأت خيوط مؤامرة جديدة تتكشف أمام أعين المعتقلين، ويظهر جلياً من كان يقف خلفها، فالكلام الذي قاله النقيب لفرهاد في فسحة التنفّس لم يكن مجرد عبث، بل كان مصدره يلدرم ميركيت، الذي شكَّ به

معظم المعتقلون دون أن يفصحوا عنه، باستثناء آمد الذي صرح علانيةً عدم إعجابه بذلك الشخص، ولم يكن يجد ضرورة لإخفاء شكوكه أمام الآخرين.

بعد أن تجاوزت إدارة السجن الصدمة التي سببها العمل البطولي الذي قام به مظلوم، بدأت تعمل بكل طاقتها، متسلِّحةً بضعاف النفوس الذين بدأوا يتساقطون في فخ العدو واحداً تلو الآخر، حيث كانت هيئة المحكمة تستغلهم كيفما تشاء، كما أن الإدارة استخدمت كل وسائل التعذيب والقمع، بالإضافة إلى الدعاية والديماغوجية الموجهة، لا سيَّما الدعاية التي كانت تستهدف القادة.

كان المعتقلون مدركين لأهداف تلك الدعاية ولم يصدقوها البتَّة، فعندما روَّجت الإدارة لاعتراف كمال بير وخيري دورموش كان المعتقلون مقتنعين تماماً بأن تلك كانت من ألاعيبها، فلو كان ذلك صحيحا لماَ عمدت الإدارة إلى بث الشائعات والدعاية الكاذبة، فكل شيء كان سيتضح في المحاكم، لكنها سعت من وراء ذلك لإرباك وزيادة الضغط على العناصر الضعيفة ودفعهم للاعتراف.

الفصل السادس

في إحدى الأيام دخل الحراس إلى المهجع /33/ ومعهم قائمة ببعض الأسماء: "على من يتم ذكر أسماءهم تجهّيز أنفسهم مع أغراضهم". لم يدرك المعتقلون سبب استدعاء رفاقهم في البداية فباتوا يخمِّنون لاكتشاف السبب، في النهاية تذكروا أن جميع من ذُكرت أسماؤهم مصابون بالسل، وكان يتم جمع المصابين في مهجع آخر، كان كشه يفضل الإصابة بالسل عدة مرّات أخرى على ألَّا يتم نقله من المهجع، لكنه كان مجبراً على تنفيذ الأوامر. قام الحراس بأخذ كشه ورفاقه المصابين مغادرين المهجع.

كانت ثمَّة بعض الأحداث الغريبة تدور في المهجع، في البداية لم يفهم أحد ما الذي كان يجري، فلقد كان كل من فرهاد، نجمي، أشرف ومحمود يجتمعون خفية ويتحدثون معاً لساعات طويلة، لكن المعتقلين اعتادوا على الأمر بعد ذلك وكانوا يفسرونه على أن الأخ فرهاد يخبر الرفاق ببعض الأشياء، أو أنهم يناقشون بعض القضايا فيما بينهم، فبين الحين والآخر كان فرهاد يشاركهم النقاشات العميقة، وبما أنهم لم يصلوا بعد إلى نتائج ملموسة لنقاشاتهم فلم يرتأوا أن يشاركوا تلك المواضيع مع رفاقهم في المهجع، لأن الوعي الثوري الصحيح لا يمكن أن يقوى أو يتجذر في الأذهان دون المشاركة الفعَّالة وتبادل الآراء.

بعد العملية التي قام بها مظلوم ليلة نوروز ازدادت النقاشات حول إنهاء حالة الاستسلام في المهجع /33/.

–أشرف: "يا رفاق، علينا أن نفعل شيئاً. أعتقد، أن بعد عملية الرفيق مظلوم، بات لدى العديد من المعتقلين ميلاً قويَّاً لوقف هذه الوحشيَّة، جميعنا يرغب بكسر حالة الاستسلام ولكن لا أحد يخرج علينا ويقدّم بديلاً عنه".

–حسين: "ليس لدينا ما نخسره. فلنأخذ الحرّاس كرهائن أثناء خروجنا إلى فسحة التنفّس، ومن ثم نفتح أبواب كل المهاجع ونعلن العصيان".

–نجمي: "ما تقوله جيد، لكني أعتقد أن ذلك لن يخلّصنا من حالة الاستسلام، فأفكارك هذه مجرد ردة فعلٍ عاطفية".

–آمد: "أعتقد يتوجب علينا أن نأخذ كل موظفي السجن كرهائن عندما يتم فك قيودنا أثناء العودة من المحكمة، بعدها نقوم بفتح باب المهجع /35/ ونترك كل شيء لهم، ليقرروا ما ستكون الخطوة التالية".

–ميرفان: "أقترح أن نقتل أسعد أوكتاي، هذا الرجل يجب أن يموت، فقتله واجبٌ إنساني قبل أن يكون واجباً ثورياً".

–فرهاد: "ثمة جانب صحيح فيما تقوله، لكن لا يمكن حلُّ كلَّ شيءٍ بالضرب والعنف عزيزي ميرفان، ليس هذا حلّا واقعياً، ونحن لا نلعب بالشطرنج. إن ذهب أسعد سيأتي غيره الكثيرون. من الضروري إيجاد حلٍّ جذري".

–آمد: "إذاً فلتجدوا الحلّ الجذري ولننفذه سوياً".

–محمود: " ثمة حلّ واحد، وهو إيجاد أشخاصٍ كمظلوم"

–فرهاد: "محمود محقٌّ فيما يقوله تماماً، نحن نحتاج إلى أكثر من مظلومٍ واحد، فإن لم تتجسَّد شخصية مظلوم في كل معتقلي السجن ستزداد الضغوطات أكثر".

–نجمي: "يجب أن تغدو العملية التي قام بها مظلوم إرثاً داخل السجن وخارجه، ولن يتم ذلك إلا من خلال كسر حالة الاستسلام".

بينما كانت النقاشات مستمرة على ذلك النحو، وصل برهان إلى المهجع، وتجمع المعتقلون من حوله: "الحمد لله على سلامتك، ما الذي حدث معك؟ إلى أين أخذوك؟ كنا نفكّر بك على مدار ثلاثةٍ أيام خَلَت".

– اكتفى برهان بقول: "اقتادوني إلى المنفردة لكي اعترف".

كان الحزن الشديد بادياً على وجه برهان، ويجيب عن الأسئلة التي تُطرح عليه ببرودةٍ شديدة مطأطئ الرأس. كان برهان من ضمن مجموعة آمد، لذا رأى أنه من الأفضل أن يشرح وضعه لآمد، فناداه قائلاً: "تعال لنتحدَّث قليلاً".

–آمد: "حسناً، لنذهب إلى سرير الأخ فرهاد، ونتحدث في ذاك الركن". حين وصلا إلى هناك وجلسا، قال برهان: "إن كان لديك سجائر فلتعطني واحدة"، وبعد أن أشعل سيجارته قال: "اصغِ إلي جيداً يا آمد، ما سأقوله لك الآن مهم للغاية، ولتنادي الأخ فرهاد إن كنت تودُّ ذلك".

–آمد: "حسنا يا رفيقي"، وذهب على الفور لإحضار فرهاد.

أقبل فرهاد وآمد إلى برهان، فأطفئ برهان سيجارته وبدأ بالحديث على الفور: "أعلم بأن الكلام الذي سأقوله لا يليق بشخصٍ يدّعي الثورية، لكني ارتكبت خطأً فادحاً وسوف أخبركم به، وأنتم ستقيّمون ذلك، عندما أخذوني من هنا، ذهبوا بي مباشرة إلى النقيب الذي أعطاني لائحة الأحداث التي وقعت في (جيلان بينار/Ceylanpinar) كي أعطيهم معلومات حولها، فأخبرتهم بأنْ لا علاقة لي بتلك الأحداث، فقال النقيب "خذوا هذا وضعوه مع البقية!" وسلّموني إلى الملازم القصير، بعد ذلك أخذوني إلى الزنزانة رقم /1/ التابع للمهجع /37/ في الطابق الأول، بعد حوالي خمس دقائق جاء حارس وعصب عيناي وأخرجني من الزنزانة إلى الممر الرئيسي ومن هناك إلى أماكن أخرى، وأخيراً قاموا بربطي إلى عمودٍ حديدي"، أكمل قائلاً: "وبعد مضي بعض الوقت سمعت أصوات تعذيبٍ وصرخات أناس، ومن بين تلك الأصوات سمعت صوت ثابت ومتين، كذلك صوت حسن غريب، إلا أنَّ صوته لم يكن يصدر بسبب التعذيب، بل كان يشارك الجلادين في التحقيق مع الرفاق، كنت أسمع صوت ضحكاتهم بشكل واضح، بعد عدة دقائق حان دوري، فقاموا بفك يديَّ المربوطتين بالعمود وقيّدوني هذه المرة من رجليَّ وعلقوني رأساً على عقب، وبدأوا بتعذيبي، فمن جهةٍ كانوا يضربونني ومن جهةٍ أخرى يسكبون الماء عليّ حتى لا أفقد الوعي"، ومن ثم أردف قائلاً: "لم أستطع تحمّل ذلك التعذيب، فقال لي صابر: "لنقبل بتنفيذ ما يطلبونه"، وأنا بدوري وافقته على ذلك، عندما أزالوا العُصابة عن عيني، وجدت نفسي في الزنزانة، بعد أن قبلنا بالاعتراف أعطوا كل واحد منا قلماً وورقة كُتب عليها عشرة أسئلة وطُلب منَّا الإجابة عليها بشكل صحيح.

-آمد: "كيف كانت الأسئلة؟ أخبرنا بشكلٍ مفصّل".

طلب برهان سيجارة أخرى، فأعطاه فرهاد سيجارة من علبة دخانه.

برهان: "كانت الأسئلة على النحو التالي:

1- متى انضممت إلى التنظيم، وعن طريق من؟
2- بعد الانضمام من كان المسؤول عنك؟
3- ما هي النشاطات التي شاركت فيها؟
4- من هم المقاتلون البارزون الذي تعرفهم في التنظيم، وما هي وظائفهم؟
5- اكتب أسماء وعناوين أعضاء التنظيم الذين لم يتم القبض عليهم بعد.
6- الأنشطة التي قام بها التنظيم، ومن قام بها؟
7- أنا نادم، وسبب ندمي؟ (كان الجميع مجبراً على قول عبارة (أنا نادم).

أما باقي الأسئلة فلم تكن ذات أهمية كبيرة إذ كانت حول الاسم والكنية وما شابه، بعد أن أجبت عن كل تلك الأسئلة أرادوا نقلي إلى المهجع /38/، لكن حين قلت لهم أنني أريد العودة إلى مهجعي، جلبوني إلى هنا".

كان فرهاد يستمع جيداً إلى حديث برهان منذ البداية، ومن ثمَّ قال له: "أنت لم تفعل شيئاً جيداً باستثناء عودتك إلى المهجع، فلو قبلت الذهاب إلى المهجع /38/ فلن تكون حينها قادراً على تخليص نفسك من ذاك المستنقع، على الأقل

هنا لديك فرصة للتخلص من الموقف الذي وقعت فيه بمساعدة جميع الرفاق، لكن هذا معتمدٌ عليك بشكلٍ أساسي، ما تستطيع فعله هو الذهاب إلى المحكمة في أقرب فرصة وتخبر هيئة المحكمة بما فعلوه بك وبرفاقك وتتنكر لكل ما كتبته، إن استطعت فعل ذلك فسيكون من السهل عليك التخلص من هذا الموقف السلبي".

-برهان: "أعدك بأنني سأفعل ذلك أخي فرهاد".

بعد مغادرة برهان، التفت فرهاد إلى آمد قائلاً له: "برهان كان ضمن مجموعتك، أليس كذلك؟".

-آمد: "نعم يا أخي".

-فرهاد: "من الآن فصاعداً تقرب منه أكثر وتحدّث معه بشكل دائم، إنه يمرُّ بأزمةٍ نفسية، إن لم تساعدوه فسيغرق في المستنقع أكثر فأكثر، لا تواجهوه بما فعل بشكلٍ مباشر بل اجعلوه يشعر بذنبه، حتى يدرك أنه ارتكب خيانةً، من الضروري التعامل معه بحذر، هو لا يعرف شيئاً عن تأسيس الكومين، أليس كذلك؟".

-آمد: "لا يا أخي لا يعرف".

-فرهاد: "اجمع بقية الرفاق، وأخبرهم عن وضع برهان".

في إحدى أركان المهجع اجتمع أربعة رفاق وبدأوا الخوض في نقاش جدّي، بينما كان الآخرون منهمكين في أحاديثهم الخاصة.

-فرهاد: "أيها الرفاق، بدأ العدو يحاصرنا أكثر فأكثر وبات على باب مهجعنا، فكل يوم هناك مُنهزمٌ جديد، لقد حان وقت تجسيد وجهات نظرنا، من الآن فصاعداً علينا أن نقوم ببعض التحضيرات المهمة على صعيد النهج والتفكير".

-أشرف: "يا أخي، أعتقد أن علينا المضيّ قُدماً على الدرب الذي سلكه الرفيق مظلوم، لا أفكّر بنهجٍ آخر، يكفي أن نقوم بنشر هذه الذهنية والوعي بين الكوادر، وبشكلٍ غير مباشر بين مجموعات المعتقلين، فلو بقينا نخبرهم بنفس الأشياء المعتادة مراراً وتكراراً سوف يرتاب بعضهم؛ ورفاقنا على قدرٍ كاف من الذكاء لفهم ذلك".

-نجمي: "أنا أتفق مع ذلك ولا أرى أي داعٍ للتأخير".

-محمود: "طالما آراؤنا متطابقة فمن الخطأ إضاعة الوقت، بعض رفاقنا تعامل مع الموضوع بعاطفةٍ مفرطة واقترحوا القيام بأعمالٍ لا تُحمد عقباها، فالقيام بعصيانٍ يمكن أن يتسبَّب في مذبحةٍ كبيرة".

-فرهاد: "بمقدورنا تنفيذ ما اتفقنا عليه حالاً، أشرف ومحمود قوما بتأمين كل ما يلزم للعملية عن طريق إكرام دون أن ينتبه لشيء، الأمر الثاني، يجب أن يتولى نجمي مهمة المناوبة الليلية من الآن فصاعداً، لا نريد أية مشاكل ليلة

تنفيذ العملية، ولا ينبغي أن يُتَّهم أي أحد من الرفاق بهذه العملية بشكل مباشر، أمَّا الأمر الثالث، هذه العملية لن تتضح نتائجها على المدى القصير، بالنسبة لنا أو لمؤيدينا، سيما رفاقنا الكوادر، فهي لن تكسر حالة الاستسلام دفعةً واحدة، لكن ستكون لها الفائدة في خدمة المصلحة العامة للثورة".

-محمود: "يا أخي، لقد ناقشنا أبعاد عملية مظلوم كثيراً وتحدثنا عن المعاني التي تحملها، لذلك سنتعامل مع ما قلته من وقتٍ لآخر".

-فرهاد: "ثمة موضوع آخر مهم لا يقل أهميَّةً عن القرار الذي اتخذناه، يتوجب على الرفاق القادرين على الدفاع عن الحزب أن يقوموا بذلك في أول محاكمة لهم، فأنا لن أستطيع القيام بذلك بسبب القرار الذي اتخذناه، إن قمت بذلك فثمة احتمال كبير أن يفصلوني عنكم، وهذا سيعرقل تنفيذ العملية".

-أشرف: "في الحقيقة لقد ناقشنا الأمر فيما بيننا، وكنّا سنقترحه عليك أيضاً؛ لذا فنحن متفقون تماماً".

-نجمي: "القرار المتعلق بعدم القيام بالدفاع في المحكمة ينبغي أن يقتصر عليك لوحدك".

-فرهاد: "بلا شك".

كانت الحياة في المهجع /33/ تمضي ضمن الروتين المعتاد، حيث كان المعتقلون يتصبَّحون بوجه أسعد أوكتاي القبيح و يسمعون ما يقوله للحرّاس "هل أعطيتم الشباب فرصة للاستراحة؟.. اعطوا الشباب فرصة للاستراحة، هل جلبتم

الشيء الفلاني للشباب" وكانوا يعرفون إن تلك الكلمات نذير شؤم بالنسبة لهم، كذلك كان الأمر حين يقول الحارس ليخرج فلان إلى هنا، ففي كل مرّة كانوا يأخذون أحد المعتقلين بحجة الزيارة أو لقاء المحامين كان رفاقه يعرفون أنه سيتعرض للتعذيب والاستجواب. في ذلك الصباح قالوا لفرهاد وأشرف: "لديكما محاكمة". أدرك المعتقلون أنهم سيؤخَذَان للاستجواب، لأنهما يذهبان إلى المحكمة عادةً في مجموعتين مختلفتين، وما عزز شكوكهم هو عدم استدعاء بقية أفراد المجموعتين. بعد أن أمضى المعتقلون أوقاتاً عصيبة وهم بحالة قلق وتوتر، أعادوا فرهاد وأشرف إلى المهجع، ولم تظهر عليهم أي أثار للتعذيب، فرح المعتقلون للقاء رفيقيهما من جديد وقالوا: "ماذا بعد؟ كيف سينتهي بنا المطاف؟ كل يوم يأخذون واحداً منا، إن قلوبنا تنفطر لذلك، هذا ليس تعذيباً لهم فحسب، بل لنا أيضاً".

رد فرهاد وابتسامته المعتادة تعلو محيّاه: "ليس لدينا خيارٌ آخرَ سوى التحمُّل، انسوا ذلك الآن ولتجلبوا لنا ما نأكله، أم أنكم تعاقبون من يذهب إلى المحكمة أيضاً؟".

شمّر بعض الرفاق عن سواعدهم وذهبوا لجلب الطعام، فيما طرحَ البقيَّةُ الأسئلة على فرهاد وأشرف.

–فرهاد: "لا يا رفاق، هذه المرّة نحن سنعاقبكم، لن نخبركم بأي شيء قبل أن نتناول طعامنا وندخن السجائر، هذه ليست عقوبة، بل مقاومة".

–ميرفان: "موضوع الطعام محلول، ولكن من الصعب تأمين السجائر".

–أشرف: "قد لا تتواجد السجائر مع أحد في المهجع باستثنائك أنت".

–فرهاد: "حسناً، سأبدأ بالحديث الآن. في الحقيقة لم يكن ثمة شيء جديد في المحكمة، لقد قاموا باستدعائنا بناء على اعترافات خَلَف جاربار، فقد سلموه ملفات الادعاء وكان يختلق قصصاً و حكايات، وقال عني أنني كنت مسؤول ولاية. التطور الإيجابي بالنسبة لنا كان الموقف السياسي الذي أبداه أشرف".

–أشرف: "في الحقيقة، كان يجب أن أقوم بهذا الدفاع منذ وقتٍ طويل".

–فرهاد: "لا، بل قمت بذلك في الوقت المناسب، ألم ترى الفرحة التي ارتسمت على وجه كل من كمال وخيري". حين ذكر فرهاد اسم خيري لم يستطع أن يخفي حزنه، فقام برشف سيجارته عدة مرات متتالية بحسرة ثم أطفأها قائلاً: "بعد أن أنهى أشرف دفاعه جاء دوري، فذهبت إلى الميكروفون، وقبل الإجابة على الأسئلة التي طُرحت عليّ فكّرت في أن أقوم بالدفاع، لكنني لن أنسى أبداً لحظة تقابلت نظراتي أنا وخيري، كانت نظراته وكأنها تقول لي: "لم نكن نتوقَّع منك هذا أنت أيضاً". لا أعلم إن فهمني أم لا، كنت أود أن أقول له "انتظر قليلاً"، أردت أن أقول ذلك".

فقط ثلاثة أشخاص فهموا صمت فرهاد ذاك الذي كان يخفي وراءه ألف ألف سر، لم يستطع أحدٌ آخر فهم صمته، فحتى لو جلبوا أمهر مفككي الشفرات من كل أنحاء العالم وأفضل رجال المخابرات لما استطاعوا فك شيفرة ذلك الصمت، كان فرهاد مجروحاً، وجرحه العميق أكثر إيلاماً من الألم الذي قد

تسبِّبه أعتى أنواع الرصاصات، كان قلبه يحترق ويتفحم على صفائح حديديَّة أمام ناظريه.

نهض فرهاد من مكانه وذهب إلى ركنٍ هادئ، فكّر ملياً ومن ثم قال لنفسه: "تحمّل يا فرهاد، تحمّل، فلينظر خيري إليك بهذا الشكل، وليظن بك الكثير من الأناس الذين يحبونك ظن السوء، لتكن كما أنت، بالتأكيد ستصبح مثل مظلوم وستحقق هدفك، ستذهب قبله لتطفئ نار الجحيم بجسدك، ستغزو الجحيم بكل قوتك لتجعل منه جنة لأجل رفاقك"، أيقظ عدنان فرهاد من أحلامه وخيالاته لأنه كان يعرف أنه ليس على ما يرام، جلس إلى جانبه. قال له فرهاد: "من الجيد أنك أتيت، اذهب لتنادي آمد أيضاً، فلنتحدث قليلاً".

-فرهاد: "يا رفاق، أنتم أيضاً ستذهبون إلى المحكمة في وقت قريب، وتعلمون أن خضر قد اعترف، أعتقد أنه يعرفكم، لذلك سيعطي معلوماتٍ عنكم".

- عدنان و آمد: " سيفعل ذلك بالتأكيد"

-فرهاد: "لذا علينا أن نقوم بالتحضيرات اللازمة منذ الآن حتى لا ترتبكوا في المحكمة".

-آمد: "لقد أخبرتكم سابقاً عما أفكّر به، هذه فرصتي للدفاع عن الحزب في المحكمة".

-عدنان: "لقد ناقشنا الموضوع أنا وآمد، سوف نقول أننَّا مؤيدون للحزب".

–فرهاد: ”تعرفون رأيي في هذا الموضوع، فمقابل كل معترفٍ يجب أن يكون هناك من يدافع عن الحزب، لكن ثمة شيء آخر، أنا لا أستطيع أن أطلب من أحد اتَّخاذ موقفٍ لم اتَّخذه بنفسي، لا أملك هذا الحق. ما أستطيع أن أقوله لكم هو أنه في وقتٍ قريب، ستفهمون السبب وراء عدم قيامي بالدفاع عن الحزب أمام المحكمة. لننهي هذا الموضوع الآن، ودعونا لا نتطرق إليه مجدداً، سيكون موقفكم بمثابة ضربةٍ كبيرة لسياسات العدو من جهة، ودفعاً معنوياً كبيراً لجمهورنا من جهة أخرى“. في هذا القسم من الحديث انضم أشرف إليهم.

تابع فرهاد حديثه: ”لكن احسبوا جيداً لهذا العمل، ولا تقلِّلوا من أهميته. سأقولها لكم بصراحة، لا ينبغي أن يكون لهذا الموضوع أية جوانب عاطفية، فكل خطوة مبنيَّة على العواطف ستعود عليكم بالضرر الكبير في المستقبل. على كلٍّ من سيعلن هذا الموقف السياسي أن يحسب لكل شيء، وأنتم تعلمون كيف يتعاملون مع المدافعين منا، لقد أخبرتكم رأيي بإيجاز، فرغم أهمية هذا العمل والفائدة التي ستعود بها علينا، إلا أنكم تعلمون أيضاً المخاطر التي تحدق بها“.

–آمد: ” أخي فرهاد، لقد فكَّرتُ بما قلتَه واتَّخذت قراري، سأدافع عن الحزب. أنا أدرك أن الظروف صعبة، لكنكم تستطيعون الاعتماد عليَّ في هذا الأمر“.

–فرهاد: ”ستقومون بهذا العمل على أنكم مؤيدون، أليس كذلك؟“.

–آمد: ”نعم“.

فرهاد: "قراركم هذا يجلب السرور، لقد سررت لهذا كثيراً، لم يعد لدي ما أقوله".

قام الرفاق بمناقشة كافة المواضيع التي طرحوها، إلا أنَّ نقاش المرافعات كان لا يزال مستمراً.

-فرهاد: "لو كانت المحاكمات تتم في ظروف طبيعية، لكان الحزب حينها اختار من سيدافع عنه، لكن في هذه الظروف سيقوم من يستطيع بذلك حتى النهاية؛ ولا يمكن لأحد أن يمنع أحداً من فعل ذلك. لقد بات الدفاع عن الحزب في مثل هذه الظروف واجباً ثورياً. و هو ليس مرتبطاً بهذا أو ذاك، فهو متروكٌ للمبادرة الفردية بشكل مطلق. قد يكون العمل الجماعي والتضامن لايزال قائماً بيننا هنا، لكن الأوضاع في المهاجع الأخرى أسوء حسبما أعتقد. ففي مثل هذه الظروف، لا يمكنك الجلوس كما نجلس نحن الآن، ودفع الناس للدفاع. هل تفهمون ما أقصده؟".

هزَّ أشرف رأسه موافقاً على ما قاله فرهاد، وقال لآمد: "إن كان لديك سجائر فلتعطني واحدة".

-آمد: "اعتقد أنه كانت ثمة واحدة في طرف جيبي هذا، إن لم تنكسر ف...، للأسف إنها مكسورة".

-أشرف: "اعطني إياها سألصقها".

-أشرف: "إن إكرام هذا يعبث بنا".

-فرهاد: "ماذا حدث هذه المرة يا أشرف، أثمة شيءٌ جديد؟"

-أشرف: "كلا لا يوجد شيء، لكن إكرام هذا لو أصبح وزيراً للمالية يوماً ما، فلن يتمكن أحد من القيام بأي شيء غير قانوني، لقد طلبت منه شراء الطلاء والأشياء الأخرى لكنه لا يفعل ذلك، حتى اضطررت في النهاية أن أذكر اسمك، ففكّر قليلا وقال: "إن طلب مني الأخ فرهاد ذلك، لربما أفعل".

-فرهاد: "لطالما المشكلة من طرف أحد رفاقنا، فسنتولى الأمر، ظننت أن العدو قد قام بفعل شيء جعل أشرف يرتبك لهذه الدرجة، لقد أخبرني إكرام عن الموضوع وطلبت منه تأمين الأشياء التي طلبناها".

في تلك اللحظة قال محمود ضاحكاً: "لقد وصلت البضاعة وقمت بإخفائها!".

-أشرف: "متى وصلت يا أخي، ومتى خبأتها؟".

-محمود: "اترك هذا الأمر عليّ".

-أشرف: "طالما وصلت أغراضنا، لم أعد خائفاً من شيء"

-فرهاد: "يا رفاق، نحن وحدنا من يعرف السبب وراء طلب كل تلك الأغراض، ولكن ماذا عن رفاقنا الذين لا يعلمون شيئاً؟ عندما طلبت من الرفاق أن يكتبوا قائمة كاملة باحتياجاتهم وتسليمها لعدنان، نظر إليَّ نظرةٌ يملؤها الذهول والاستغراب، وفي النهاية قال لي: "يا أخي أنتم تتصرفون وكأنَّكم لا

تعرفون الوضع الذي نمرُّ به، إن استمرينا على هذا النحو فستنفذ كل أموالنا".
قلت له: "لا بأس، فليتذوق الرفاق فاكهة وخضروات الموسم الجديد".

كانت أيام ذلك العام الـ365 أياماً ثقيلة...

يعيش الإنسان عادة حياةً من سنين، أشهر وأسابيع، تلك الأسابيع تنقسم لأيام، يُطلق عليها، السبت، الأحد، الأثنين، الثلاثاء...تلك الأيام تبقى تدور وتدور كما المكوك بلا توقفٍ وبلا تعب.....

الربيع أجمل فصول السنة، وشهر أيار دُرّة فصل الربيع...

أربعة أرواح، أربعة أبطال، قاموا بوضع سباباتهم على لعبة الحظ المرسومة على لوحة المواسم والشهور...

و كان شهر أيار من نصيب أربعتهم....

الأيام الأولى من هذا الشهر هي أيام وفرةٍ وبركة...

أربعة أرواحٍ غريبة، أربعة شجعان، وأربعة أيامٍ من أيَّار اصطفوا جنباً إلى جنب وتلاحموا للأبد.

في أيار، لا تُحتسب الأيام بالعدّ، 16–17–18–19، بل بكثرة شهدائها الذين كانوا بكثرة ورودها...

تلك التواريخ الأربعة، الأيام الأربعة، والأرواح الأربعة ستبقى منقوشةً على راحات أيدينا، على جباهنا، وكذلك على أبهى صفحات التاريخ.

الأحد، 16أيار 1982

في معظم السجون في العالم، وعلى اختلاف أنظمة الحكم في البلدان التي تتواجد فيها، يتم في العادة تخصيص أيامٍ لراحة السجناء، لكن تلك الرفاهية لم تصل لسجن آمد يوماً. لقد كانت إدارة السجن تحتل كل ساعةٍ ودقيقة وثانية في حياة المعتقلين، كانت الحياة هناك عبارة عن عذاب في كل تفاصيلها، وكان للمهجع /33/ نصيباً دائماً من ذلك الوضع القائم.

كان معتقلوا المهجع/33/ على موعد مع يوم أحدٍ حالك ومظلم. في ذلك اليوم استيقظوا في الفجر الباكر، فغسلوا وجوههم وحلقوا ذقونهم بكأس ماءٍ كالمعتاد. كان المعتقلون قد حُرموا من وجبة الفطور منذ فترة طويلة، فواسوا بطونهم ببقايا الطعام الذي خبأوه تحت أسرّتهم بغية سدِّ جزءٍ من رمقهم. بعد ذلك قام الحراس بضرب جميع المعتقلين بحجة أن المناوبين الليلين لم يقوموا بعملهم على أتمِّ وجه، كان ذلك الضرب بمثابة فطورهم الصباحي. كانت مجموعة من المعتقلين تقف في قاعة المطعم (مكان التدريب)، في وضعية الاستعداد، فيما أحدهم يقرأ كتاباً، والبقية يرددون بعده. ذلك الإجراء كان يطلق عليه اسم (التدريب).

كان فرهاد، نجمي، أشرف ومحمود جالسين على سرير فرهاد كما جرت العادة، ويتبادلون أطراف الحديث، تلك حالهم طيلة الأيام الأخيرة الماضية، وهذا ما لفت نظر بعض المعتقلين. اقترب ميرفان من آمد وسأله: "عمَّ يتحدثون طوال الوقت؟".

–آمد: "وما أدراني؟ أنا أيضاً يساورني الفضول حيال ذلك. هل انتبهت أنهم يجتمعون سويَّة دائماً، ويتهامسون فيما بينهم؟".

تُرى حول ماذا كانت تدور تلك الأحاديث التي جمعت الرفاق الأربعة؟ ما الذي كانوا يخفونه عن رفاقهم الذين عاشوا معهم لسنوات، واجتازوا سويَّةً كافة المصاعب؟

–فرهاد: "لقد كَتبتُ البيان، خذوه، لكن أخفوه بشكل جيد. سأنجز النسخة النهائية منه فيما بعد. وأنتم، ماذا فعلتم؟".

–نجمي: "لقد رتَّبتُ وضع المناوبة الليلية لهذا اليوم، سأتولاها أنا، وستسير الأمور كما نريد".

–محمود: "كل الأمور تسير على ما يرام. لكن هناك أمر آخر، لدينا متَّسعٌ من الوقت حتى منتصف الليل أو بعد ذلك بساعة، لذا أقترح أن نحدّث رفاقنا عن بعض الأمور, دون أن نخبرهم بكل شيءٍ بشكٍل مباشر".

–نجمي: "ما مضمون ما سنخبرهم به؟".

–أشرف: "عليهم أن يعرفوا ما سيفعلون بعد العلمية".

–نجمي: "أنت محق، وكذلك كي لا تبقى عمليتنا محصورة داخل جدران السجن، يجب أن يتحدثوا عن هذه العملية في المحاكم، علينا أن نخبرهم

بشكلٍ غير مباشر، لكي يدركوا، بعد تنفيذ العملية، لِمَ قلنا لهم ذلك وما هي الرسالة التي أردنا إيصالها".

–فرهاد: "يجب أن يكون حديثنا معهم على نطاق أوسع، علينا أن نحدثهم عن مظلوم، وعن الصعوبات التي تواجه حركتنا في الوقت الراهن، ومن ثم نتحدث بشكل مستفيض عن سياسات إدارة السجن المتبعة لزيادة عدد المعترفين. اسمعوا، عليكم أن تعرفوا جيداً، أن ما ستقولونه الليلة سيغدو تاريخاً في الغد. لا تتعاملوا مع الأمر بشكلٍ عاطفي".

باستثناء الرفاق الأربعة، كان المعتقلون يقضون يومهم بروتينه الرتيب المعتاد مثل كل يوم. كان الرفاق يتطلعون لحلول تلك الليلة، فهم سيقبّلون شفاه ليلة الموت تلك بحسرة السنين، ويحطّموا الطلاسم والأساطير، ويرون بعيونهم كيف سيتذلل الموت عند أقدامهم، ويلوذ العدو بالفرار من خراب قلعة الموت تلك، لقد كانوا متحمسين لمواجهة أعظم مخاوف البشرية ولمحاسبة عدوهم الغاشم.

كان الرفاق الأربعة فرحين في ذلك اليوم، على عكس الأيَّام التي مضت كلَّها، وكانت وجوههم تلمع كأحجار في مياهٍ صافية. كانوا يلمعون كالشرر المتطاير من النار. مع انسحاب النهار إلى عشه، وحلول الظلام مزّق صوت الحارس أحلامهم وخيالاتهم: "اصطفوا للتفقّد!". لم تكن كوّة باب المهجع تختلف عن باب الجحيم، ففي كل مرة يتم فتحها، كان يتعرض أربعة أشخاص ممن كانوا يبقون بالقرب من باب المهجع إلى أبشع أنواع الضرب والتعذيب، وقد سئموا

من ذلك الوضع، لذا كان يتم تغيير الأماكن بشكل دائم. وفي تلك الليلة، ترك الموجودون هناك أماكنهم خاوية.

-نجمي: "أيها الرفاق، أنا لا أرى الأربعة الذين يبقون بالقرب من الباب اليوم، كل من يبقى اللية هناك سأعطيه سيجارتين". وبمجرد أن قال نجمي ذلك ازداد عدد المتطوعين عن الأربعة. لذا قال نجمي: "توقفوا قليلاً، كلما ازداد عدد المتطوعين سينقص عدد السجائر التي سأعطيها". فسأل مرّةً أخرى: "هل ثمة أحد يريد أن يقوم بهذا العمل طواعيةً، دون أن أعطيه السجائر؟".

-أشرف: "أنا ومحمود سنبقى هنا، لكن ستعطي سجائرنا لـ خالو".

-نجمي: "حسنا أنا أقبل. هيا إذاً فلتأخذوا أماكنكم، سيجرون التفقّد الآن".

ذهب أشرف ومحمود إلى مكانهما، وتم إجراء التفقّد ومن ثم غادر الضباط برفقة الحرّاس، وأثناء مغادرتهم للمهجع قال أحد الحرَّاس: "ليختفي الجميع بعد الانتهاء من تناول العشاء مباشرة، لا أريد أن أرى أي أحدٍ يتجول في المهجع عندما أعود بعد خمس دقائق".

وهكذا حلّت ليلة أخرى على السجن. اجتمع المعتقلون حول أربعة أرواح مرهفة، وبدأوا يتناقشون، دون أن يدركوا أن تلك الليلة لن تكون كسابقاتها، انقسم المجتمعون إلى مجموعتين، إلا أن ثمة شيئاً كان ينقصهم، هل يمكن للنقاش أن يكون ممتعاً بدون الشاي والسجائر؟ لكنهم معتقلون ومجبرون على تحمل كل شيء، فهم تعلموا أن يكونوا أقوياء، واتقنوا ذلك جيداً. الثوار

المبدعون قادرون على خلق السعادة من صميم أصغر الأشياء، فالمرء يمكن أن يحيا بلا شايٍ، أو بلا طعام، لكن الحياة بلا كرامة تحت نير الاستسلام الكامل للعدو، لا يمكن أن تسمى حياةً أبداً. قد يعتبرها البعض كذلك، لكنها بالنسبة للثوار كانت الموت بذاته. هناك مثلٌ سائد يقول: "من يسعى وراء الخير يجده، ومن يسعى وراء الشر يجده أيضاً." إذاً أليسَ السعيُ هو بيت القصيد في كل ما نبتغيه؟

كان فرهاد بعينيه الزرقاوين وجسده النحيل، وذكائه الحاد ينظر إلى رفاقه الواحد تلو الآخر، فأومأ لـ ميرفان بأن يوزع السجائر. كان ميرفان الشخص الوحيد الذي يملك السجائر في كافة الظروف. عندما أدرك فرهاد أن ميرفان يتظاهر بعدم فهم إشارته قال له: "ميرفان لتأتي بتلك السجائر لندخِّنها".

–ميرفان: "من أين أتيت بهذا الكلام يا أخي؟ أنا لم أدخن منذ ثلاثة أيَّام".

–فرهاد: "كفاك مراوغةً يا صديقي، لو نفذت السجائر لدى الجميع فلن تنفذ من عندك. اذهب واخرج لنا علبةً من مخبأك".

بعد ذلك الإلحاح، اضطر ميرفان أن يذهب ويخرج علبة سجائر، ومن ثم وزّعها على رفاقه. قام المعتقلون بإشعال السجائر ليغدو الحديث أكثر إمتاعاً. في العادة كانت الأحداثُ اليوميَّة هي محور النقاشات. وأحياناً كان فرهاد يمازح رفاقه بغية الترفيه عنهم، فكانوا يغمرون المكان بالفرحة والسعادة. قال فرهاد: "إن أردتم فبمقدوري أن أروي لكم قصَّةً حقيقية من قصص جيكرخوين، شريطة أن يقبل ميرفان ما سأطلبه منه".

–ميرفان: "حسناً يا أخي، اطلب وأنا سأنفِّذ".

–فرهاد: "انظر، لا أريد واحدة فقط، بل اثنتين، واحدة لي وأخرى لـ خالو".

–ميرفان: "صدقوني لم يبقى لدي سجائر، توقفوا عن طلب السجائر مني".

هزّ فرهاد رأسه وقال: "سنرى ذلك بعد قليل".

بلغته الكردية البديعة بدأ فرهاد بسرد القصة: "عندما كنت خارج السجن قرأت كتاباً بعنوان (رشو ورشي/ Reşo û Reşê)، سأروي لكم منه ما بقي في ذاكرتي. كان رشو شاباً كردياً، جسوراً وصادقاً، فيما كانت رشي فتاة كردية قروية تمتلك جمالاً لا يمكن وصفه. تزوّج رشو و رشي ونالا مرادهما. لكن سليمان آغا كان يتلظى بنيران الغيرة لرؤيتهما سعيدين". كان المجتمعون مندمجين تماماً مع تفاصيل القصة لدرجة أنهم لم يدركوا أنها انتهت وكانوا ينتظرون المزيد. في نهاية القصة قدّم فرهاد مراجعة لها لينتقل إلى مواضيع أخرى.

كان رشيد قد ترك مكانه وانتقل ليجلس على سرير محمود، يتجاذبان أطراف الحديث فيما بينهما. كان محمود يحدث رفيقه، الذي اعتقل معه، عن ذكرياتهم القديمة. وفي خضم حديثه سأل رشيد: "هل تتذكر ذاك القميص الذي كنت أرتديه عندما تم القبض علينا؟".

–رشيد: "نعم أتذكر، كنتَ تحبّه كثيراً".

–محمود: "نعم، فقد أعطاني إياه الرفيق جمعة تاك. كان ذا قيمةٍ كبيرة بالنسبة لي، وكأنها قطعة من جمعة بقيت معي، لكني سأعطيك هذه القطعة القيّمة، لكن شريطة أن تعدني أنك لن تعطيها لأحد".

–رشيد: "طالما هي ذكرى من جمعة، كيف لي أن آخذها منك؟ كما أن قمصاني أكثر من قمصانك". كان محمود مصمّماً على إعطائه إياه، فأخرج القميص الذي كان يحتفظ به منذ أربعة أعوام ولم يلبسه يوماً من شدة خوفه

عليه. قال لـ رشيد: "ها هوَ، خُذه، لا فرق إن بقي معك أو معي، لا تخذلني، هيا امسكه". لم يستطع رشيد أن يقاوم إصرار رفيقه فأخذ القميص منه.

التفت أشرف إلى آمد قائلاً له: "يا صديقي، أنا لا أملك قميصاً لأهديك إياه. لكن عندما كنّا في المهجع الثالث أعطاني الأخ كمال قلم (تشافين)، واستطعت الحفاظ عليه حتى الآن ولم أدع الحراس يأخذونه أثناء عمليات التفتيش، إن وعدتني بالحفاظ عليه سأهديك إياه".

-آمد: "ما بالكم، أحدكم يهدي قميصاً والآخر قلماً"

نظر محمود وأشرف إلى بعضهما البعض وقالا: "نحن نرغب بفعل ذلك، وهل يجب أن تكون هناك مناسبة لكي نتبادل الهدايا؟". بعد ذلك غّير أشرف الموضوع، فقال: "هل تعرفون بِمَ أفكّر؟ أتساءل عمَّا إذا كان كل ما نعايشه هنا يمكن أن يُنقل يوماً إلى المحاكم يا تُرى؟ وهل ستصل تفاصيل هذه الفظائع التي تُرتكب بحقنا إلى مسامع شعبنا وحزبنا؟ أتمنى حدوث ذلك يوماً ما، وهذه ستكون مهمة الناجين منا".

لم ينتظر عدنان حتى ينهي أشرف حديثه فقال: "ستكون هذه مهمتنا".

التفت أشرف إلى آمد قائلاً: "يا صديقي، هل فكّرتم فيما ستقولونه أمام المحكمة؟".

آمد: "كلا، لم أفكّر في ذلك أبداً. ثمة متسعٌ من الوقت لاتخاذ القرار، لا نعرف إن كنّا سنبقى أحياءً إلى حينها. لكن إن بقيت حيّاً سأتعهد بالولاء والإخلاص للحزب ولكلِّ الذين ضحوا بحياتهم هنا دون تردد أو تلكؤ".

كان فرهاد يستمع إلى كلمات آمد تلك، فقال بصوت خافت: "سيغدو ذلك العهدَ الأجمل على الإطلاق".

أعجب أشرف أيضاً بكلمات آمد تلك، فأراد لفت انتباهه للكلمة التي أعدَّها: "لتستمع إلى ما لدي، إن بقيتَ حيّاً يمكنك أن تقرأ وصيتي لو أحببت".

-آمد: "لا، ألا يوجد لديك شيء آخر؟ وهل أنا وريثك؟ بما أنك ستبقى على قيد الحياة فلمَ أقرأها أنا؟".

-عدنان: "ما هي تلك الوصية؟ قد أقرأها أنا".

-أشرف: "أخرج قلماً وورقةً واكتب، لأنك لن تحفظها بسهولة".

-آمد: "يا رفيقي هذه ليست وصية إذاً، بل رواية".

فرهاد لأشرف: " وكيف كتبتها؟ على شكل قصيدة؟".

أشرف: "لا يا أخي، هي عبارةٌ لفلسطيني كنت قد قرأتها سابقاً في صحيفة و قد قمت بتعديلها وفقاً للأوضاع التي نعيشها. هكذا تبدأ العبارة: "نحن في حربٍ وسننتصر فيها، لأننا نمثِّل إرادة الشعب الكردي. سننتصر ليس فقط

للأحياء منا، بل سنغدو الأمل لأولئك الأطفال الذين لم يبصروا النور بعد؛ سننتصر!". هذه هي كلمتي الأخيرة".

أبدى جميع المتواجدين هناك إعجابهم بتلك العبارات.

-عدنان: "فلتقرأ هذه العبارات الجميلة بنفسك".

-فرهاد: "على الرفيق الذي سيقرأ هذه العبارات أن يذكر لمن تعود أصلاً. استمعوا إلى ما قاله فيدل كاسترو أمام المحكمة: "العدالة تشبه فتاة عذراء، إن تم العبثُ بها فلن يبقى هناك فرق بينها وبين عاهرة تجوب الشوارع". هل تستطيعون أن تنسبوا هذه المقولة لأنفسكم وتقولوها في المحكمة؟ بلا شك لا".

بينما كان فرهاد يتكلم رأى نجمي مُقبلاً إليهم، فسأله: "ماذا فعلت؟".

-نجمي: "تم الأمر يا أخي، لقد توليتُ زمام الأمور، من الآن فصاعداً سأتولى أنا مهمة المناوبات الليلية".

عندما سمع محمود ما قاله نجمي قال للرفاق: "لِمَ لا تأكلون ما لديكم من زعرور، خيار وطماطم؟".

-نجمي: "فلتخرجوا ما لديكم، سنأكلها أولاً ومن ثم سنأكل ما تبقى، أليس كذلك أخي فرهاد؟".

–فرهاد: "لا تبخلوا بشيء أيها الرفاق، كلوا كلّ ما لديكم وارتدوا أفضل الثياب التي تملكونها، فأنتم تعلمون أن لا شيء مؤكد في هذا السجن. قد يأتي الحراس في الغد ليسحقوا طعامكم ولباسكم تحت أقدامهم فتضيع سدى".

أخرج محمود كل ما كان بحوزته من تحت سريره قائلاً: "تعالوا يا رفاق، فلنأكل". تعجّب المعتقلون من تصرف محمود ذاك، فهو مسؤول مجموعته ضمن الكومين، وفي هذه الحالة لن يتبقّى لهم شيء ليأكلوه في الغد. لكن كما قال جيكرخوين: "هناك دائماً سلامٌ على موائد الطعام". وبعد أن تناول المعتقلون طعامهم قال فرهاد: "سأذهب للاطمئنان على عابد، لقد تم جلبه من المشفى للتو." انضم فرهاد هذه المرة لقافلة المتبرعين بأغراضهم، فعلَّق قميصه على سرير عابد وعاد إلى رفاقه، كما أنه أعطى ساعته لـ جليل وقال له: "إن سنحت لك الفرصة ارسلها إلى الخارج". لفتت مواقف فرهاد تلك انتباه رفاقه، فاقترب إكرام من آمد وقال له: "ما الذي يحدث يا أخي، ما الذي يفعله هؤلاء الرفاق؟ لقد وزّعوا كل أغراضهم، أقسم بالله أنه ثمة خطبٌ ما، ما رأيك أنت؟".

–آمد: "يمكننا التحدث إلى الأخ فرهاد لو رغبت في ذلك".

–إكرام: "أين هو بالمناسبة؟".

–آمد: "انظر، إنه جالس على سريره ويقوم بفعل شيء ما. فلنذهب إليه هيا".

عندما رآهما فرهاد وهما يقتربان منه ابتسم قائلاً: "هيا تعالا إلى هنا".

قبل أن يقوم إكرام وآمد بالجلوس، قالا لفرهاد: "يا أخي نحن لا نفهم شيئاً مما يحدث هنا، فمنذ المساء يتم توزيع القمصان والأقلام، وأخيراً تقوم أنت بالتبرع بساعتك، ما كلّ هذا؟"

كان فرهاد يضحك بخجلٍ كطفلٍ صغير فقال: "لا شيء ذا أهميَّة، لقد أعطيت ساعتي لـ جليل تحسباً لاحتمال أخذي إلى الزنزانة الانفرادية، فأنا أحبّ تلك الساعة كثيراً، إنها ذكرى من والدي. سأكون سعيداً للغاية إن تمكَّن من إرسالها إليه مرَّةً أخرى".

أدرك بعض المعتقلين أن تلك الليلة كانت مختلفةً عن الليالي السابقة، لكنهم لم يعرفوا ماذا سيحدث. لقد كانت كل أحاديث الرفاق الأربعة خطابات وداع.

بعد تناول العشاء شكل المعتقلون مجموعتين، ومع تقدم الوقت ازداد العدد إلى أربع مجموعات. كانت كل مجموعة تلتف حول واحد من الرفاق الأربعة، كانت النقاشات من ذاك النوع معتادة في السابق أيضاً، ولكن جلسة اليوم كانت مختلفة، فلم يرغب أحد في النوم أو انتابه المللُ من النقاش، سيما من تلك الكلمات البديعة التي كانت تخرج من فم فرهاد؛ فالجميع كانوا يرغبون في الاستماع إليه ونسيان همومهم. كان آمد غارقاً في أفكاره أثناء استماعه إلى فرهاد، لقد تذكّر حديث فرهاد الذي لم يفهمه في فسحة التنفّس إبّان استسلامهم في 8 آذار عام 1981.

إذ قال فرهاد حينها: "لن يتمكن أحد من تخليصنا من هذه الوحشية وهذا الاستسلام إلا أنفسنا. ولا سبيل لذلك سوى بالمقاومة والمضيِّ فيها". بعد مرور

أكثر من عام على ذاك الحديث غير المكتمل، ها هو فرهاد نفسه يكمل المتبقي منه. أعاد آمد شريط ذكرياته مع فرهاد، منذ اليوم الأول الذي التقاه فيه في المهجع /37/ وحتى تلك الليلة.

كان آمد يقوم بمقاربة سريعة للأحداث والمواقف، ووجد أن ما كان يقوله فرهاد منذ البداية هو نفسه ما يقوله في هذه اللية تماماً، فقال لنفسه: " أعتقد أن مصدر الحب والاحترام لهذا الشخص نابعٌ من ثبات أفكاره وممارسته العملية لتلك الأفكار. لكن ألستُ مستاءً قليلاً؟ قد أرى العيب في نفسي ولكنني لا أراه فيه، إنه شخص رائع. أحياناً أتحسَّر وأقول لو أنه فقط اتَّخذ موقفاً سياسياً أمام المحكمة. هو لا يخشى العقاب، ولا يهاب أحداً. لِمَ لم يفعل ذلك؟؟ أخشى طرح هذا التساؤل على أحدٍ آخر"

حين رأى فرهاد أن آمد قد غرق في عالمه الخاص سأله: "ما بالك يا آمد، هل تفكّر بأحداث اليوم؟". طأطأ آمد رأسه وكأنه اعتقل لاقترافه ذنباً. أردف فرهاد: "لا تشغل بالك، لن يطول الأمر كثيراً، غداً أوبعد بضعة أيام ستفهم كل شيء".

أراد فرهاد كقائدٍ أن يغيِّر مسار شكوك آمد التي بدأت تطفو على السطح، لذا كان لا بد له من السيطرة عليها فوراً بسبب الظروف الراهنة.

بعد ذلك النقاش الجانبي مع آمد، عاد فرهاد مرّة أخرى إلى موضوع نقاشه الأساسي. كان من الواضح أن حديثه قد أثَّر في جميع المعتقلين، فبدأت

المجموعات الأخرى تنضم إلى مجموعته رويداً رويداً، واستمرت الجلسة على ذلك النَّحو بعد أن غدوا مجموعة واحدة، نقاشاً واحداً وقبضةً واحدة.

–فرهاد: "ثمة طريقٌ واحد للخلاص من هذه البيئة والظروف، وهو الطريق الذي حدّده لنا رفيقنا مظلوم دوغان، لقد أثبت أنه يمكننا بسهولة تمزيق ستارة الاستسلام والخيانة عبر المجازفة بحياتنا، وإلا فسيكون من الصعب علينا عكس هذا المسار. هل تعرفون ما هو أكبر سبب لاستسلامنا؟ لأننا لم نعرف كيف ندرك الموت في أوانه المناسب، هكذا عرّفنا مظلوم مرة أخرى على أكبر عيوبنا وخطايانا، قبل الغرق في دوامة الخيانة، ودون السماح للعدو بخنق قضيتنا في شخصياتنا، يجب أن نسلك طريق مظلوم، كما علينا أن نرفع أصواتنا عالياً ونضع حداً للخيانة ولو دفعنا في سبيل ذلك أغلى ما نملك".

شعر فرهاد بالحاجة للتطرق إلى الموضوع الذي ذكره أشرف سابقاً فقال: "من الضروري أن ينقل بعض الرفاق ما يحدث هنا إلى المحكمة مهما كلف ذلك. طبعاً الظروف الراهنة صعبة للغاية، وقد تصبح أكثر صعوبة، لكن يجب أن يعرف الشعب والحزب حقيقة ما يحدث هنا".

ذهب أشرف وجلب علبة دخان ووزّع السجائر على الجالسين. فنظر فرهاد إلى ميرفان وقال ممازحاً: "لقد فشلت تكتيكاتك. انظر هناك من يمتلك علب دخان كاملة وليس فقط بعض السجائر".

–ميرفان: "من الجيد اتخاذ بعض التدابير يا أخي".

هرع نجمي إلى فرهاد والآخرين قائلاً: "ما يؤلمني حقاً هو أنني لم أدافع عن الحزب في المحكمة، لكنني على ثقة أن الشعب والحزب سيعفوان عني. لا اعتقد أنهم سيلومونني لذلك".

–محمود: "ما تقوله صحيح".

–نجمي: "يا محمود، لو قمتُ بفعل ذلك لامتلكت الدنيا بما فيها، يبدو أن ثمة عيباً ما فيَّ".

انضم فرهاد إلى حديثهما ذاك فقال: "أنتم تعرفون رأي الحزب في موضوع الدفاع، ففي العام 1981 كان من المفترض أن يقوم رفيقان كحد أقصى بالدفاع أمام المحاكم كأعضاء في الحزب أو مؤيدين له، لكن الظروف لم تسمح بذلك، أما الآن فقد أصبح الدفاع واجباً ملحّاً علينا جميعاً. دون التفكير بالحصول على حكم مخفف والخروج من السجن لنكون أكثر فائدة للحزب هناك. فالدفاع أيضاً مهمة ثورية جوهرية. في هذا الصدد، ثمة رفاق يقومون بهذا الواجب بمسؤولية كبيرة. أعتقد أنه فاتني الوقت لفعل ذلك، كنت سأفعلها عندما كنت مع أشرف حين أخذونا لمقابلة المعترفين، ولكن..." قال ذلك ثم توقّف.

التفت إكرام إلى ميرفان قائلاً: "أعتقد أن الأخ فرهاد سيقوم بدفاعٍ جيد ضدَّ اعترافات يلدرم ميركيت".

–ميرفان: "لا أعتقد ذلك، لكن ربما يفعل".

كان ميرفان يقول في قرارة نفسه: "لا يمكن أن يكون كل هذا النقاش متعلِّقاً بموضوع الدفاع فحسب".

قال كولومبو عصمت، الذي لم يتكلم منذ المساء قط: "يا أخي، ستذهبون إلى المحكمة في الغد، لذلك احرصوا على البصق في وجه يلدرم ميركيت ذاك، لقد قدّرناه خير تقدير لكنه باعنا بمعلقة عدس. أنا لم أمكث معه، لكن من كانوا معه قالوا إنه كان يختبئ في دورات المياه بينما كان رفاقه يقاومون، ومذ سمعت ذلك عنه وأنا ألعنه وأحتقره". لامست كلمات عصمت تلك أحاسيس فرهاد فالتفت إليه قائلاً: "لا تزعج نفسك، فمثل هؤلاء الأشخاص لا يستحقون حتى البصق في وجوههم، ثمة أشخاص سيئون في كل مكان، القضايا الكبيرة دائماً تكشف لنا أناساً حقيقيين يمتلكون إرادة عظيمة، وفي الوقت نفسه تكشف وجوه المرتدين والخونة والجبناء. سجن آمد هذا هو حلبة صراع تصطدم فيها البطولة بالخيانة، في هذا المكان كل من لا يساوم على شخصيته وكرامته هو شخص عظيم".

-كولومبو عصمت: "يا أخي، أمثال يلدرم ميركيت، سيعودون إلى صفوفنا مرة أخرى بعد أن تهدأ الأوضاع، أليس كذلك؟".

-فرهاد: " هذا سؤال جيد يا عصمت، دعني أجِب عنه، بلا شك سيعمد العدو إلى إنهاء قادة حركتنا، وهو يقوم بذلك فكرياً وجسدياً. الهدف الأكبر للعدو، على المستوى السياسي، هو القضاء على القادة. وبهذا الشكل، سيتم استخدامهم ضد الحزب والشعب، لذلك ستكون خيانتهم عظيمة، ونحن جميعاً

نعرف ما هو جزاء الخيانة. وتعقيباً على سؤالك، فإن هدأت الأمور وأصبحت الأجواء إيجابية، بالتأكيد لن يتم العفو عن أمثال يلدرم. كل الإفادات المقدمة من كوادر الحزب بشكل لا يليق بفكر الحزب والثورة ستعتبر خيانة بغض النظر عن الظروف التي تم تقديمها فيها، لذلك لا ينبغي قبول هؤلاء الأشخاص مرة أخرى ضمن صفوف الحزب. طبعاً لم يكتفي العدو باستهداف قادة الحزب وكوادره فحسب، بل استهدف أيضاً الوطنيين والمؤيدين الذين تعرضوا للضغط والتعذيب كلٌّ حسب موقفه. لقد تركوا لهم خياراً وحيداً فقط ألا وهو الخيانة. لذلك يجب اعتبار المؤيدين والمتعاطفين ممن رضخوا لضغوط العدو مذنبين من الدرجة الأولى، لكن مستقبلاً، إن استطاع أمثال هؤلاء أن يثبتوا أنفسهم في حياة السجن، حينها يمكن ضمُّهم إلى صفوفنا مجدداً".

كان يوم السبت على وشك الانقضاء مع توجه عقارب الساعة إلى الثانية عشر بعد منتصف الليل، كانت ظلمة الليل حالكة، والنقاشات مستمرة في كل ركن من أركان المهجع، كان أشرف أو فرهاد يوزعون السجائر على رفاقهم. في ذاك الوقت كان نجمي قد فرغ من مهمة توزيع ساعات المناوبة الليلية التي كانت على الشكل التالي: يناوب كل من أشرف ومحمود من الساعة الواحدة حتى الثالثة، بينما يناوب فرهاد ونجمي من الساعة الثالثة حتى الخامسة. بدأ المعتقلون ينسحبون شيئاً فشيئاً إلى أسرّتهم، ومن ضمنهم الرفاق الأربعة الذين تمددوا في أسرّتهم دون أن يناموا، كانوا ينتظرون أن يعم الهدوء المكان. أشرف كان آخر من كسر صمت تلك الليلة عندما بدأ بالغناء، وكان لأغانيه أثراً واضحاً على المعتقلين، حيث بدأوا يغمضون عيونهم ويستسلمون للنوم وفي

عقولهم لغزٌ لم يجدوا لحله طريقاً. قبل حلول الساعة الواحدة تجهز كلّ من أشرف ونجمي للبدء بمناوبتهم، وقالا لرفاقهم الذين كانوا لا يزالون مستيقظين: "هيا يا رفاق اخلدوا للنوم، سيكون لديكم عملٌ كثير في الغد، لقد بدأت مناوبتنا الآن". بعد ذلك توجه كل من كان مستيقظاً إلى سريره وخلد للنوم. انسلَّ الرفيقان المناوبان إلى فرهاد وكان نجمي بجانبه أيضاً.

-فرهاد: "يا رفاق لقد انتهيت من كتابة النسخة النهائية للبيان، سأقرأه عليكم".

كان الرفاق الثلاثة يستمعون لفرهاد وهو يقرأ البيان في سكون الليل المطبق، وحين انتهى من القراءة سأل رفاقه: "ما رأيكم؟"، قالوا: "في غاية الروعة، لا يمكن أن يكون أفضل من ذلك".

-فرهاد: "لكن يجب أن نقوم بنقله إلى ورقة جديدة، لأننا سنتركها لرفاقنا، دعونا نضع له عنواناً أيضاً".

-نجمي: "فليكن عنوانه: إلى الرفاق"، ووافق الجميع على ذلك.

-فرهاد: "فليقم نجمي وأشرف بنقل البيان، وسنكمل أنا ومحمود التحضيرات الأخرى".

كانت كل التحضيرات قد انتهت تقريباً مع اقتراب الساعة من الثانية بعد منتصف الليل.

–فرهاد: "هل كل شيء جاهز يا محمود؟".

–محمود: "نعم يا أخي، لقد أخرجت التَنَر أيضاً؛ كل شيء جاهز".

حين ذهب فرهاد إلى نجمي وأشرف كانا قد أنهيا كتابة البيان.

–فرهاد: "هل انتهيتم من نقل البيان؟".

–نجمي: "لقد انتهينا".

–فرهاد: "اكتبوا أسماءنا أسفل البيان لنقوم بالتوقيع عليه، هيا اسرعوا فالساعة تقترب من الرابعة".

الساعة الرابعة صباحاً، أربعة رفاق، أربعة أرواح غريبة جلست بين أربعة جدران واجتمعت للمرة الأخيرة...

–فرهاد: "لا يزال أمامنا البعض من الوقت، إن أردتم أحضروا شيئاً لنأكله. العمل الذي نحن مقدمين عليه، عمل صعب ويتطلب القوة والمهارة، نحن لسنا خائفين ولسنا على عجلة من أمرنا أيضاً".

أبدى بقية الرفاق موافقتهم على ما قاله فرهاد وأحضروا القليل من الطعام؛ نصف رغيف خبز وبعض قطع الجبن، وأحضروا أيضاً نصف علبة دخان (كانت آخر ما تبقّى لديهم من سجائر).

كان المبدأ السائد لدى معتقلي سجن آمد يقول: "لا أحد يعلم ماذا سيحدث في الغد" وكان ذلك المبدأ ينطبق على الطعام أيضاً، فأحياناً كان القليل من الطعام يُعتبر كنزاً بالنسبة لهم.

لقد كان الرفاق الأربعة، وكما في كل مرّة؛ يعطي فرهاد الأمر، فينبري رفاقه للتنفيذ دونما تردُّد، لقد كانوا جنوداً مخلصين له، لايخالفون أوامره، لقد كانوا الملائكة التي ستجلب النور الذي سيمزق ستائر الظلمة في زنزانات السجن.

وقف نجمي، محمود وأشرف بإيعاز من فرهاد، كانوا مثل السيوف الكردية التي لم تذق طعم الراحة داخل أغمادها لقرون، كانوا كالرماح المنتصبة. في تلك الليلة، نطق أشرف بأجمل كلمة (أخي) وسأل فرهاد: "يا أخي أين أضع البيان؟".

-فرهاد: "خذه وضعهُ على سرير أحد الرفاق بجانب رأسه، ولتضعه بطريقة يمكن للآخرين رؤيته من خلالها".

كان كل شيء كما ينبغي أن يكون، فالمهجع صامتٌ كأنه قبرٌ حيّ، فلو طارت ذبابة في الداخل لسُمع صوت جناحيها من بعيد وكأنه صوت مروحية قتالية متجهة لساحة معركة.

بينما كان معتقلوا المهجع/33/ يغطون في نوم عميق بعد تعب يوم مضنٍ، كانت أربع نجوم تلمع في كبد السماء وتنظر بلهفة إلى أربعة أشخاص؛ وكأنها كانت تتبعهم في كل خطواتهم.

نهضوا ممشوقي القوام، مرفوعي الرأس وساروا بخطى واثقة.

لم يسبق لهم أن ساروا أبداً بمثل تلك الحماسة والبهجة، لقد كانوا يمضون نحو الحريو التي يتوقون لها، وبقدر توقهم للحرية كانوا يعشقون الحياة ويعشقون الموت ويحتضنونه في سبيل العيش بكرامة. كانت تلك اللحظات لحظات كسر حالة الاستسلام والأسر، كانت ضربةً قاصمة للخيانة بكافة أشكالها.

بينما كانت أوراق التقويم تتساقط كأوراق أشجار الخريف وتشير لانتهاء اليوم الـ 16 من أيار لتعلن بدء يومه الـ 17، كان الرفاق الأربعة يضيفون حلقة جديدة لسلسلة شهداء أيار، عندما جلسوا في حجرة الحرية، تحت المراجل، التي سيذيبونها بأجسادهم.

لقد كانت تلك الليلة ليلتهم، كانت أغنيةَ فرحٍ لورود شهر أيار الملوّنة.

أربعة أرواح جلست القرفصاء في حجرة الحرية... ألقت التحية على الموت... أين أنت؟ أين أنت أيها الموت؟ أين الوفاء الذي يجمعنا؟ لطالما كنا نتشاجر في الخارج، فكنت تطاردنا حيناً، وتارة كنا نحن من نطاردك، لأننا حيث نموت نعود للحياة من جديد ونصبح خالدين، وخلودنا يجعل منك بائساً وتعيساً، فكلما كبرنا نحن صغرتَ أنت وبهتت هيبتك وجبروتك.

بعد كل سنين القهر و التعذيب، ها نحن نبحث عنك، وأنت تختفي وتتلاشى أمام عيوننا، لطالما كان اسمك لطخةً سوداء في سجل الأبطال، ها أنت ذا، لقد أتيت أخيراً. كنت ستأتي على أي حال، فغدرك يشبه نكرانك. لقد كنّا بقربك

هناك دائماً كأصدقاء منذ أربعين سنة فدعوناك إلى موائدنا ورحبنا بك قائلين: مرحباً بك أيها الموت. لقد طاردنا وتتبعناك دوماً، ولطالما أمسكنا بك، قيَّدناك وجلبناك، لقاؤنا هذا ليس الأول ولكن يكون الأخير، فصراعنا معك مستمر من بروميثيوس إلى سبارتاكوس، من برونو إلى تشي غيفارا، من كاوا الثائر إلى كاوا العصر، من دليل إلى حسين؛ لقد أقسمنا على مقاومتك.

تحت ضوء شموع عتمة الموت الباهتة، نظر فرهاد إلى رفاقه، بعينيه الزرقاوين التي تشبهان الياقوت، كانوا وجهاً لوجه، يداً بيد، كتفاً لكتف، وصمتت الألسن، وكانت العيون وحدها هي من تتكلم، كانت أيديهم دافئة متماسكة بإحكام، لقد كانت تلك الأرواح الأربعة مثل مسامير تدق في نعش العدو، مسامير تخترق حديد المرجل وتعِدُ بفجرٍ جديد.

انطلق لسان فرهاد كزلزال عنيف حين قال: "جاهزون يا رفاق؟".

كانت أفواه رفاقه الثلاثة تعمل كالساعات الأكثر إتقاناً، لم تكن تعرف التردد والخطأ

-"نحن جاهزون".

أمسك فرهاد علبة الكبريت وأخرج منها أربعة عيدان، جمعها معاً ومررها ببطء على طرف العلبة. تشبث الرفاق الأربعة بأيديهم العارية بالقوائم الحديدية للمرجل، عندما أشعل فرهاد أعواد الثقاب تطاير الشرر واشتعلت النيران ...

بين لهيب النيران... أصوات الانفجار... وخنقة الدخان... جلس أربعة أبطال... كانت الرحلة إلى الفضاء قد بدأت، رحلة لقاء النجوم قد بدأت.

أبناء التاريخ الشجعان

في الثامن عشر من أيار

اشتعلت النيران في أجسادهم

في إحدى زوايا السجن

كانوا يحترقون أحياء، أحياء...

أبناء التاريخ الشجعان

أبطال شعبي العظماء

كانت سياط الجلادين تحرق جلودهم

كل قطرة دمٍ سالت من أجسادهم

غدت براعماً لغدٍ جميل...

أبناء التاريخ الشجعان

أبطال شعبي العظماء

فرهاد، نجمي، أشرف ومحمود

خرجوا من بوابات سجن آمد

نعشاً يليه آخرُ

و مضوا على دروب الحرية...

أبناء التاريخ الشجعان

أبطال شعبي العظماء

سيكسرون القيود من معاصم

كمال بير و خيري

في فجر يومٍ قرمزي...

أبناء التاريخ الشجعان

أبطال شعبي العظماء...

الاثنين، 17 أيار 1982

يُقال أن النوم موتٌ من نوع آخر، فترةٌ يرتاح فيها الجسد وتغيب فيها الروح عن الوجود.

لم تستطع قوة التفجير إيقاظ بعض المعتقلين من نومهم، أما الذين شعروا به ظنوا أنه من خارج المهجع، وظنَّ البعض الآخر أنه صوت انفجار من مكان قريب. لكن حين انتشر الدخان في أرجاء المهجع، صرخ بعض المعتقلين "انهضوا يا رفاق، لقد رموا القنابل إلى داخل المهجع!"، بدأ بعض المعتقلين ممن كانوا نائمين في الأسرَّة العلويَّة بالقفز على الأرض دون وعي من شدة الهلع. تجمَّع معظم المعتقلين في مكان الحريق، وبدأوا بالصراخ والعويل والبكاء من هول ما يرَون.

لقد كانوا مصدومين ومذهولين ويركضون يميناً ويساراً كالمجانين. كان البعض يلكم باب المهجع مراراً وتكراراً، لكن دون جدوى، والبعض الآخر بدأوا بتحطيم النوافذ بلا وعي أو خوف مما سيترتب على فعلتهم تلك. كان بعض المعتقلين يحملون عبوات المياه ويحاولون إخماد النيران. وبينما كان سعير النار يهمد وألسنة اللهب تتضاءل وقعت عيون المعتقلين على أربعة أشخاص يجلسون القرفصاء وسط تلك النيران. كان تأثير الصدمة عليهم كبيراً، ولم يستطيعوا التفكير بأي شيء...

أيعقل هذا؟ هل من الممكن أن يحدث شيء كهذا؟ هل يُعقل أن يجلس أحدٌ وسط لهيب النيران على هذا النَّحو؟ هل ما زلنا نياماً؟ أم هذا مجرد كابوس

استحوذ على عقولنا أو جاثومٌ يقبع فوق صدورنا؟ فليقرصني أحدكم لينقذني من هذا الكابوس، فليساعدني أحدٌ، أرجوكم... وبينما كان بعض المعتقلين يسكبون المياه على النيران لإطفائها جاءهم صوت من داخل النيران، فتسمَّروا في مكانهم وبدأوا يستمعون، كان الصوت الصادر منخفضاً، ولكنَّه واضحٌ ومفعمٌ بالأمل: "لا تسكبوا المياه، أشعلوا النار...أشعلوها...".

في هذا القرن؛ الحادي والعشرين، انفلق القمر والمريخ وانشقَّت السموات، لقد عاد زمن المعجزات. كانت النار تتكلم، تشعر، وتنطق كأي إنسان، كانت تقول: "لا تطفؤوني، بل أسعروني، فأنا سبب وجودكم. إن انطفأتُ وخبوتُ ستذهب ريحكم وتختفي البشرية. امسحوا دموعكم ولبّوا ندائي".

لم يكن ما رآه المعتقلون معجزة النبي موسى إذ شقَّ بعصاه البحرَ، ولا معجزة النبي محمد إذ أعاد للعيون الأبصار، ولا صعود النبي عيسى إلى السماء. لقد كانوا مجرد بشر، لكنهم كانوا أحفاد جيلٍ جالس على مائدة زردشت المباركة. لقد استمدوا إيمانهم ويقينهم وصلتهم بالنار من كاوا الحداد، لقد كانوا ككل البشر؛ يبكون، يعانون، يتألمون، ويضحكون...

بينما كانت النار تتابع حديثها، تسمّر المعتقلون في أماكنهم مذهولين، كانوا كالتماثيل يقفون بلا حراك، لم يكن بمقدورهم التأكد من هوية أولئك الجالسين وسط لهيب النيران، يا ترى مَن مِن رفاقهم يكونون؟ هل نطفئ النار أم نسعرها؟ كان التوتر سيد الموقف. حين تمكن صالح من التعرف عليهم هتف: "ليسقط الاستعمار"، وهتف معه بعض المعتقلون الآخرون، لكن لم ينتبه

الكثيرون لما قاله صالح بسبب الهلع الذي كان يسود المكان. مع بزوغ الفجر كانت سحابة من الدخان الأسود تتصاعد من المهجع /33/ وتُنبأ بخبرٍ حزين.

قام المعتقلون برش النيران بالمياه بغية تخليص رفاقهم، فتوضح لهم هوية الرفاق الذين تلتهم النار أجسادهم، هذا فرهاد كورتاي، والآخر أشرف آنياك، وهذا نجمي أونر ومحمود زنكين. كانوا لايزالون يصرخون "أسعروا النيران، لا تطفؤوها.. لا تطفؤوها.. أشعلوها... خائنٌ كل من يطفئها. يا رفاق نحن أحرقنا أنفسنا. هذه عملية فدائية، لا تُفشلوها!".

مع مرور الوقت خبت ألسنة النار، و ملأت رائحة اللحم البشريّ المحترق المهجع. كان مشهد إخراجهم من بين النيران مرعباً، فوجوههم كانت محترقةً بالكامل، وقطع اللحم تتساقط من أجسادهم، لكن أياديهم كانت لا تزال متشابكة مع بعضها البعض وملتصقة بقوائم المرجل الحديدية. لم يكن المعتقلون قادرين على النظر إلى وجوه رفاقهم، رغم أنهم كانوا في أجمل صحبة معهم ليلة أمس. كانت جمجمة أشرف قد بانت كنصبٍ تذكاري لكنوز قديمة. قام المعتقلون بفصلهم عن بعضهم البعض ولفّهم ببطانيات وجلبوهم إلى قاعة الطعام ووضعوهم إلى جانب بعضهم البعض.

كان محمود بالكاد يستطيع الكلام، فقال بكل ما تبقى لديه من قوة: "فليسقط الاستعمار". كان أن أشرف أيضاً يريد التكلّم لكنه لم يقوى على ذلك، أما نجمي فقط اكتفى بالقول: "اجلبوا لي وسادة". كان فرهاد مدركاً لمسؤوليته الثورية كقائد حتى في كلماته الأخيرة، قال: "نادوا على عدنان يلماز".

كان عدنان جالساً بجانبه، يبكي بصمتٍ وحُرقة، فقال: "أنا هنا يا أخي قل، قل ما تريد قوله، أنا أسمعك". لامس فرهاد يد عدنان بيديه المحترقتين، كان يبدو كإنسان قد انتشل من قبره بعد سنين من موته، قال :"كونوا يداً واحدة، ساندوا بعضكم البعض، لا تتخلوا عن رفاقنا..."

لم يكن المعتقلون يعرفون ماذا سيفعلون، وخصوصاً اولئك الذين لم يستفيقوا بعد من هول الصدمة، فقد كانوا هائمين على وجوههم كالمجانين...

-" يا إلهي، ما الذي حدث؟ من ألقى القنبلة في مهجعنا؟ من مات من الرفاق ومن جُرح؟".

أقبَل زبانية السجن أخيراً، وهذه المرة لم يكونوا على عجلةٍ من أمرهم، لقد كانوا عادةً يحضرون لمجرد أن يقوم أحد المعتقلين بالسعال ويوسعونه ضرباً لأجل ذلك، أما اليوم فها هم آتون وهم يسيرون كالسلاحف. فتح أحد الحرّاس كوّة الباب قائلاً: "ماذا هناك أيها الأوغاد؟ ما هذا الدخان؟ لِمَ أنتم مجتمعون هكذا؟". قال أحد المعتقلين الذين كانوا قريبين من الباب: "أربعة أشخاص أحرقوا أنفسهم يا سيدي". قال الحارس: "ما الذي تقوله أيها الوغد!".

-المعتقل: "أقسم لك أنني أقول الصدق يا سيدي، انظر ها هم هنا".

-الحارس: "نادوا لي مسؤول المهجع".

-المعتقل: "هو أيضاً أحرق نفسه يا سيدي".

أغلق الحارس كوّة الباب وغادر.

على وقع صوت التفجير والدخان المتصاعد ومن ثم أصوات وصرخات الأشخاص صعد معتقلو القسم (D) إلى النوافذ في محاولة لمعرفة ما يحدث. وعندما رآهم الحرّاس قالوا: "انزلوا أيها الأوغاد سأ...، كل من صعد على النوافذ من معتقلي المهجع /27/ سأ... أمهاتكم في الغد". بعدما ذهب الحرّاس صعد المعتقلون مرّة أخرى النوافذ.

وصل إداريو السجن إلى المهجع/33/ حوالي الساعة الخامسة والنصف، وكانوا يتحدثون مع المعتقلين من خلال كوّة الباب. لم يجرؤوا على دخول المهجع في البداية. بعدها وصل الدجال أسعد أوكتاي، الذي جاء برفقة العشرات من الحراس، قال: "من هم الذين أحرقوا أنفسهم؟ أحضروهم إلى هنا". حمل المعتقلون رفاقهم على البطانيات ووضعوهم أمام الباب.

-أسعد أوكتاي: "أيها الرقيب هل ألقيتم نظرة على المهجع؟".

-الرقيب: "نعم سيدي فعلنا ذلك".

-أسعد أوكتاي: "هل كانوا يحملون شيئاً في أيديهم؟".

-الرقيب: "كلا سيدي".

لم يكن النقيب قادراً على إخفاء خوفه أو السيطرة عليه. فالتفت مرّة أخرى إلى الرقباء والعرفاء وقال: "يا بني فلتتفقدوهم جيداً، هؤلاء لا يُؤتمَن جانبهم".

بعد أن تفقد الرقيب المهجع عبر كوّة الباب، مرَّةً أخرى، قال: "لا شيء يدعو للقلق يا سيدي".

–النقيب: "حسنا إذاً، فلتدخل أنت، وهذين الاثنين معك أولاً إلى الداخل، وأنتم ابقوا بقربي وصَفّوا كل من يحاول الاقتراب مني".

–الحرّاس: "أمرك سيدي".

–النقيب: "هيا يا أبطالي، أروني ما ستفعلونه".

فُتح باب المهجع فجأة، فقال العريف الذي دخل أولاً: "ليذهب الجميع إلى قسم المنامة"، بعدها دخل أسعد أوكتاي ومرافقوه، ألقى نظرة على المعتقلين الأربعة الذين كانوا على وشك الموت وقال للعريف: "يا بني فلتنادي على بعض الأشخاص حتى يأخذوا هؤلاء إلى المستوصف".

نادى العريف بعض المعتقلين وقال لهم مشيراً إلى البطانيات: "انقلوهم إلى المستوصف بسرعة".

–النقيب: "فليأتي حارس المهجع /33/".

–الحارس: "أمرك سيدي".

–النقيب: "يا بني، من هم الذين أحرقوا أنفسهم؟".

–الحارس: "الأول هو فرهاد كورتاي سيدي".

بعد أن أشعل النقيب سيجارةً قال: "هكذا إذاً، فرهاد كورتاي، لقد توقعت ذلك. كان سيُطلق سراحه، لكن عندما اكتشفتُ أمره، أحرق نفسه... هيا فلنذهب من هنا".

بعد أن أغلقوا باب المهجع وذهبوا، اقترب إكرام من عدنان وهمس له قائلاً: "لقد ترك لنا الأخ فرهاد بياناً".

–عدنان: " أين! أين هو؟".

–إكرام: "إنه في جيب سترة أشرف المعلّقة".

بعد أن ألقى عدنان نظرة على البيان قال: "ليس لدينا متسع من الوقت كيف سنقرأه؟ لا يمكننا قراءته على الجميع".

–إكرام: "اقرأه بسرعة ومرِّره للآخرين".

–عدنان: "لقد قرأ الجميع البيان، فلندع مدحت عضو البارتيزان يقرأه أيضاً".

–آمد: "إن كان كل رفاقنا قد قرأوه، فليقرأه هو أيضاً".

بعد أن قرأ مدحت المنشور أعطاه لـ آمد وعبّر له عن أحاسيسه قائلاً: "لا يمكن للمرء إلا أن ينحني إجلالاً واحتراماً أمام هؤلاء الأشخاص".

–عدنان: "هذا البيان ُكتب لأجلنا وقد قرأناه جميعاً. هل نتلفه أم نضعه على سرير الأخ فرهاد؟".

–آمد: "كما تشاء. لكن من الأفضل ألا يقع في يد العدو".

ذهب عدنان إلى المرحاض وأحرق البيان.

كان البيان مكتوباً على صفحتي دفترٍ مربع كبير، تحت عنوان "إلى الرفاق".

كانت المقدمة تتطرق بإيجاز إلى الوضع العالمي والإقليمي وتقييم الوضع في الوطن، كما تطرقت إلى تاريخ كردستان باختصار، والأحداث التي وقعت منذ أحداث ديرسم وحتى يومنا هذا، وتأسيس الحزب ونضاله، 12 أيلول وبداية المقاومة في السجون، 21 آذار والعملية الفدائية التي قام بها مظلوم عشية عيد نوروز، بينما تمَّ التطرُّق في القسم الأخير إلى أهداف عمليتهم الفدائية وتأثيرها على ثورة كردستان وعلى السجون لرفع مستوى إدانة القمع والتعذيب وكافة الأعمال اللا إنسانية التي يتعرض لها المعتقلون، كما أوضحوا أنهم من خلال إحراق أنفسهم يمضون على الدرب الذي رسمه الرفيق مظلوم دوغان، وفي الختام كتبوا "فلتسقط (...)... فلتسقط الرأسمالية... فليحيا (...)... فليحيا (...) كفاحنا". وذُيّل البيان بأسمائهم وتواقيعهم.

يقول أبيقور "الموت فاجعة، ليس لمن يموت، بل لمن يبقى حيّاً"، في الحقيقة هذه المقولة تنطبق على الواقع الذي يعيشه المهجع الآن، فكل شخص تنتهي حياته عبر النضال الثوري، تنتهي معها كل أنواع التناقضات والمفارقات والصراع مع الملوك أو الحكام، ويورث ذلك العبء الثقيل لرفاقه الأحياء. كانت إدارة السجن مرنةً بعض الشيء مع المعتقلين في البداية، حيث فسرت الحادثة على أنها ردة فعل عامة. جاء الملازم أول علي عثمان آيدين إلى المهجع وأعطى

لكل معتقل ورقة وقال لهم: "اكتبوا كل ما رأيتموه، بأدق التفاصيل". وبعد أن كتب المعتقلون ما رأوه، كتبوا أسماءهم في أسفل الأوراق ووقعوا عليها. البعض منهم كانوا قد كتبوا الهتافات التي أطلقها رفاقهم وهم داخل النيران، والبعض الآخر لم يكتبها".

-الملازم أول: "من لم يكتب الهتافات فليكتبها". ومن ثم خرج.

في الساعة التاسعة صباحاً جاء النقيب أسعد أوكتاي برفقة المدَّعي العسكري، وبعد أن تجوَّلوا في المهجع ونظروا إلى النوافذ المكسورة التفت المدعي العسكري إلى النقيب وقال: "لا، لا، لو لم يكسر هؤلاء زجاج النوافذ لاختنقوا جميعاً".

-أسعد أوكتاي: "هذا عصيان وتمرد".

حين وصل المدَّعي العسكري إلى المكان الذي أحرق فيه الرفاق الأربعة أنفسهم، أمسك بعصا خشبية وبدأ بتفتيش علب الطلاء والتنَر الفارغة، في تلك اللحظة تثبتت أنظارهم على مكان واحد عندما رأوا قطع اللحم تتدلى من القضبان الحديدية أسفل المرجل، وبقوا ينظرون إليها لبضعة دقائق.

-المدَّعي العسكري: "حسناً، ماذا كان يقول هؤلاء عندما كانوا يحرقون أنفسهم؟".

قال أحد المعتقلين: "كانوا يهتفون: فليسقط التعذيب! فلينتهي الضغط والقمع!".

تمتم المدَّعي العسكري: "أي نوع من البشر هؤلاء؟ أية إرادة يملكون؟ أنا مندهش من قوة إرادتهم". لم يخف المدَّعي ذهوله وانبهاره من ذلك العمل النبيل.

عندما همَّ المدَّعي العسكري بمغادرة المهجع قال: "فتشوا كل جزء من سرير فرهاد بدقة، وأحضروا بعضاً ممن كانوا ينامون بجواره لأخذ إفاداتهم".

فتش الحراس سرير فرهاد بشكل دقيق لكنهم لم يجدوا شيئاً، فأخذوا بعض المعتقلين إلى المدعي العام لأخذ إفادتهم، وعندما عادوا إلى المهجع أخبروا رفاقهم عمّا حدث معهم.

كان المدَّعي العسكري قد سألهم: "هل ترك فرهاد والآخرون أي شيءٍ وراءهم أثناء قيامهم بذلك العمل؟"، فكان جوابهم: " لا نعرف شيئاً".

مع حلول المساء جاء الحارس إلى المهجع وقال: "اجمعوا أغراض أشرف آنياك وضعوها في كيس".

أدرك المعتقلون حينها أن أشرف قد فقد حياته. فقام اثنان من المعتقلين بجمع أغراضه ووضعوها في كيس.

فتح الحارس كوّة الباب مرّة أخرى وقال: "ليأتي شخصان يعرفان أشرف جيداً".

-"سياهمد، أورفا، أمرك سيدي".

–الحارس: "إن رأيت أشرف هل تستطيع التعرف عليه".

–سياهمد: "نعم سيدي، إن رأيته سأعرفه على الفور".

–الحارس: "حسنا إذاً، تعال إلي".

أخذ الحارس سياهمد وذهبا. وعندما عاد بعد حوالي ساعة اجتمع المعتقلون حوله وسألوه بفضول: "ماذا حدث؟".

–سياهمد: " ركبنا سيارة جيب عسكرية عند الباب الخارجي وأخذوني مباشرة إلى مشرحة المشفى العسكري. عرضوا أمامي جثة أشرف وقالوا "هل هذا أشرف؟"، فقلت نعم. اعتقد أنه كان قد فارق الحياة للتو".

–المعتقلون: "هل رأيت البقية؟ هل لا يزال الأخ فرهاد على قيد الحياة؟ هل...؟ هل...."، سألوا كل أسئلتهم دون توقف.

–سيامند: "لم أرَ البقية".

في المساء جلب الحرّاس مقطورة مليئةً بالطعام؛ حيث كانت معاملة إدارة السجن قد تغيرت مع المعتقلين من ناحية الطعام إبّان العملية الفدائية، إلا أن أحداً لم يأكل منهاً شيئاً، فكان الطعام ُيرمى كما هو. بعد التفقد ساد المهجع صمتٌ يشبه صمت الموت.

كان الجميع مستلقين في أسرّتهم باستثناء المناوبين من الساعة 7–9، كانوا يتأمَّلونَ بحزنٍ وأسى وألم كبير، لقد أمضوا يوماً حافلاً. لم يكن أي صوت

يُسمع أبداً من مهجعٍ يضم فيه قرابة الـ 120 شخصاً. كان القاسم المشترك لأفكارهم هو الخوف واليأس والذعر مما قد يحدث بعد رحيل فرهاد والبقية، من سيقودهم؟ من سيساندهم ويدعمهم؟

فجأةً فُتح باب المهجع ودخل عدد كبير من الحرّاس وهم يحملون في أيديهم العصي والهراوات، كان من الواضح أنهم قدموا بغرض التعذيب.

–الرقيب: "فليجتمع الجميع في قسم الطعام في غضون دقيقة واحدة".

اجتمع المعتقلون واصطفوا في وضعية التفقد.

الرقيب: "فليتقدم المناوبون إلى الأمام، من قام بتحطيم زجاج النوافذ تلك الليلة، وقال فليمت الجنود الأتراك الفاشيّون ؟".

لم يتكلم أحد، كانت أنظارهم موجَّهةً نحو الأمام.

–صرخ الرقيب: "أيها الأوغاد، سأسألكم للمرة الأخيرة، من منكم حطّم زجاج النوافذ؟ من منكم قال فليمت الجنود الأتراك الفاشيّون؟".

هذه المرة أيضاً, لم ينبس أحدٌ ببنت شفة، فانهال عليهم الحراس باللكمات و العصي و الهراوات بشكل وحشي لا مثيل له.

و هكذا انتهت الجولة الأولى من التعذيب لتلك الليلة.

لم تكن آلام الضرب الذي تعرضوا له قبل قليل قد فارق أجسادهم بعد، حتى دخل الملازم برفقة مجموعة جديدة من الجلادين إلى المهجع، وسألوا الأسئلة

نفسها: "من قال فليمُت الجنود الأتراك الفاشيّون؟ من حطم زجاج النوافذ؟ هيا تكلموا وإلا فأنا أعرف كيف أجعلكم تتكلمون".

مرّةً أخرى، لم يتكلم أي أحد.

–الملازم: "حسناً، طالما أنكم مصرّون على عدم التكلم فتحمّلوا عاقبة ذلك".

التفت الملازم إلى الحرّاس وأمرهم بالهجوم، ومن ثم أمر المعتقلين بالتمدد على بطونهم.

تعرض المعتقلون لأقسى أنواع الضرب والتعذيب في كل جزء من أجسادهم، كان الملازم ينظر إلى المعتقلين الذين فقدوا وعيهم بسخرية ويقول ضاحكاً: "اجلبوا لي كل الجالونات المليئة بالماء"، وبدأ يسكبها عليهم، لم يستخدم الجلادون تلك الكمية من الماء سابقاً، فبات الماء أداة تعذيبٍ إضافية بالنسبة للمعتقلين.

–الملازم: "إياكم وأن يتحرك أحد من مكانه سأعود بعد قليل"، ومن ثم خرج برفقة الحرّاس.

كانت المياه أسرَّةَ المعتقلين والخرسانة وسائدهم في تلك الليلة، كان الحراس يراقبونهم باستمرار عبر كوّة الباب، وفي كل دقيقة كانوا ينادون أحدهم ويضربونه.

نادى الحارس أحدهم مرّةً أخرى

–"حيدر، ماردين، أمرك سيدي".

مد حيدر يديه وأحسّ بألم الهراوة في قلبه، وللمرة الأولى أبدى موقفاً سلبياً حيال ذلك، فأشار إلى أحد المعتقلين عند الباب وقال: "هذا من هتف سيدي".

اعترض المعتقل الذي أشار إليه حيدر قائلاً: "لم أفعل ذلك يا سيدي، إنه يكذب!".

–الحارس: "اصمت أيها الوغد، أتنكر ذلك؟ هيا مدّ يديك بسرعة".

استمر التعذيب حتى منتصف الليل، و عند الثانية صباحاً أمرهم الحراس أن يفرشوا الأرض بالبطانيات ويناموا.

الثلاثاء، 18 أيار 1982

مع سماع إيعاز الحارس "استيقظوا" نهض الجميعُ من أسّرتهم، وخلال خمس دقائق اصطفوا للتفقد، بعد التفقد قام المعتقلون بتنظيف المكان، وقام عشرة منهم بإخراج القمامة، لكنهم عندما عادوا كانوا تسعة فقط، إلى أين أخذوا الرجل يا ترى؟ هل من الممكن أن يفعل شيئاً كهذا؟ كان تلك الأسئلة تدور في رؤوس الجميع، كان عدنان من بين الذين قام بإخراج القمامة، فرأى أنه من الأفضل استدعاء آمد، ميرفان، وإكرام لإخبارهم بحقيقة ما رأى.

–عدنان: "عندما أخرجنا القمامة كان حسين معنا أيضاً، وفي طريق العودة، أخبر الحارس بأنه يريد التكلم معه، أعتقد أن الحارس اصطحبه إلى غرفة بجانب المستوصف، يجب أن نأخذ ذلك بعين الاعتبار ونكون حذرين".

إثر تلك الحادثة تدهورت معنويات المعتقلين أكثر فأكثر، حيثُ كانوا يترقبون عودته إلى المهجع بفارغ الصبر، و كلما ازدادت الشكوك ازدادت معه المخاوف. وبعد ساعتين أعادوا حسين إلى المهجع، وبمجرد وصوله سألوه، إلى أين ذهبت؟ قال حسين: "عندما أخرجنا القمامة كنت في المؤخرة، فاقتادني الحراس إلى غرفة بجانب المستوصف وقاموا بتعذيبي، وفي الأخير ضربوني بالهراوة. لم أستطع تحمّل ذلك فاعترفت ببعض الأشياء".

سأله إكرام، الذي بدت عيونه كبركتَي دم من شدة الغضب: "ماذا قلت؟ لا تتكلم بشكلٍ مبهم، هيا قل ما الذي أخبرتهم عنه بوضوح".

–حسين: "لقد عذبوني كثيراً بعد أن سألوني هل يوجد كومين في المهجع أم لا، لم أتحمّل ذلك فأخبرتهم ببعض الأشياء، كذلك سألوني عن وضع المهجع وما كان يحدث فيه قبل العملية وأثنائها، ومن قام بالهتاف وكسر زجاج النوافذ". طأطأ حسين رأسه قائلاً: "لقد أخبرتهم ببعض الأشياء".

اقترب آمد من حسين أكثر وقال له: "مثل ماذا؟ أسماء من أعطيتهم؟".

–حسين: "أخبرتهم بوجود الكومين وقلت لهم أن صالح هو من قام بالهتاف".

ميرفان: " لقد قمت بعملٍ مشينٍ للغاية".

فُتح باب المهجع على حين غرَّة ليدخل رقيب الديوان برفقة عدد من الحرّاس وفي أيديهم العصي والهراوات، صرخ الرقيب: "ليضع كل واحدٍ منكم بطاقة هويته على صدره!".

نفَّذ المعتقلون الأمر خلال دقيقة واحدة واصطفوا على نسق واحد، وبدأ الحرّاس بعد ذلك بتفقُّد هويَّاتهم الواحد تلو الآخر.

كانوا يسعون إلى إخراج المعتقلين الذين وشى بهم حسين، كانوا جميعهم مسؤولين لمجموعات الكومين. التفت أحد الحرّاس إلى الرقيب وقال: "سيدي الرقيب لقد وجدت أحد الأوغاد، والآخر أيضا ها هو هنا".

–الرقيب: "أحضرهما إلي".

أمسك الحارس بياقة كل من آمد وعدنان وأخذهما إلى الرقيب.

–الرقيب: "وجهيكما إلى رفاقكما".

استدار عدنان وآمد إلى رفاقهما، قال الرقيبُ بعد أن تمشّى قليلاً: "من هو العظيم، أتاتورك أم لينين؟ هيا تكلما".

–عدنان: "كلاهما عظيمٌ، فمصطفى كمال أتاتورك أنقذ بلاده، وكذلك فعل لينين".

التفت الرقيب إلى آمد ونكزه بالعصا التي كان يحملها قائلاً: "هل توافقه الرأي أيها الوغد؟".

–آمد: "كلاهما عظيم، كلٌّ في عصره يا سيدي".

–الرقيب: "أيها الوغدان، طالما تقولان أن كلاهما عظيمان فلم تتحدثان بالسوء عن أتاتورك؟ وتنشران الشائعات في المهجع وتقولان لا تثقوا بِمَ تقوم به الإدارة، وأن الوضع لن يستمر على هذا النحو طويلاً، كما أنكما تتكلمان دائماً عن لينين. أتحسبان أننا لا نعرف شيئاً؟ نحن على علمٍ بكل ما يحصل هنا".

أمر الرقيب الحرّاس: "اجلسوهما على ركبتيهما!". وبعد انتهاء التعذيب وتفقّد الهويات قال الرقيب "ابقوا في وضعية التفقّد سنعود بعد قليل"، ومن ثم خرجوا.

عندما عادوا، قال الرقيب: "ليتقدَّم الصفّ الأمامي خطوةً إلى الأمام!".

كان آمد يقف بجانب حيدر، وحين جاء دورهما قاموا بضرب آمد أولاً، ومن ثم أمسك أحد الحراس عنق حيدر بكلتا يديه. عندما رأى الرقيب ذلك قال: "ماذا حدث أيها الحارس؟".

–الحارس: "ابن الزانية هذا يعتقد أني فتاة ويغمزني بعينيه".

–الرقيب: "أيها الشاذ اللعين، اضربوه جيداً".

عندا رأى حيدر أن خطته لم تفلح قال: "خذوني من هنا، أريد الخروج من هنا يا سيدي".

–الرقيب: "اخرس يا أحمق، ما الذي ستقوله بعد؟ لقد انتهى أمرك، عُد إلى مكانك".

حين خرج الرقيب والحراس أخذوا معهم الساعاتي أيضاً، وقالوا: "ابقوا في وضعية التفقّد". أغلقوا الباب وذهبوا ومن ثم سُمع صوت صراخ. انصبّ انتباه المعتقلين كله على الصوت القادم من الخارج، كان يمكن سماع كل ما كان يدور هناك بوضوح. كان الساعاتي يجيب على الأسئلة الموجهة إليه بـ: "لا أعرف شيئاً، ليس لي علاقة بأحد".

الرقيب: " أيها العريف، اعطني الهراوة"، علا صراخ الساعاتي مرّة أخرى، وعندما رموه إلى داخل المهجع كان عارياً تماماً.

ظل المعتقلون واقفين على أرجلهم طيلة ذلك اليوم، ويتعرضون للضرب والتعذيب الوحشي بين اللحظةِ والأخرى. اجتاح الخوف والذعر جنبات المهجع بأكمله، ونال اليأس من عزيمة الجميع. كان كل ذلك امتحاناً للمعتقلين، حيث بدى الانحلال والاغتراب عن القيم الثورية يظهر على بعضهم بالفعل، فالذين اعتادوا أن يكونوا أقوياء بالأمس من خلال تمسكهم بموافقهم، بدأوا ينقلبون جذرياً اليوم، ولم يكتفوا بالتخلي عن قيمهم الثورية فحسب، بل أساءوا إلى رفاقهم الأربعة الذين ضحوا بأنفسهم وبأرواحهم في سبيل تلك القيم. كان ذلك امتحاناً ولحظة صراع المقاومة مع عدوها اللدود، ورغم أنَّ محور الصراع والمقاومة في سجن آمد كان في المهجع /35/ إلا أن المهجع /33/ كان إحدى ساحاته الرئيسية أيضاً.

عاد المعتقلون الذين تم تحويلهم إلى المحكمة قبل التفقّد الليلي، باستثناء فكري.

-بحري: "عن عودتنا من المحكمة دخلنا قسم الإدارة، أراد فكري التحدث لذا أخذه الملازم الصغير. فلتكونوا حذرين، سيقول كل ما يعرفه".

بعد مرور نصف ساعة أعادوا فكري إلى المهجع. فسأله المعتقلون "إلى أين ذهبت وماذا فعلت؟". قال: "ولِمَ عليَّ أن أخبركم ؟". كان واضحاً أن فكري قد انضم إلى الآخرين. لم يكن المعتقلون قد تجاوزوا بعد الضرر الذي ألحقه حسين بهم، إذ كان الاستجواب لا يزال مستمراً بسبب المعلومات التي أدلى بها.

جاء الملازم الصغير إلى المهجع فاصطفّ المعتقلون للتفقّد.

الملازم: "من هو حسين؟ فليخرج إلى هنا".

–حسين: "حسين، أورفا، أمرك سيدي".

بعد أن قام الملازم بشتمه وصفعه قال للرقيب: "خذوه إلى الزنزانة الانفرادية". كان حسين متواطئاً مع الإدارة مسبقاً، ووعد بأن يتعاون معهم بشكل كامل.

ولد حسين في ناحية بريجيك التابعة لأورفا، وترعرع في كنف عائلة فقيرة، كان يكسب رزقه من العتالة. في عام 1979 اتهم بتأييده لحزب العمال الكردستاني، واعتقل للاشتباه به في تنفيذ بعض العمليات والأنشطة التي وقعت في تلك المنطقة. بعد دخوله السجن بقي مع أعضاء حزب العمال الكردستاني، ثم استسلم إبّان مقاومة سنة 1981 وجلبوه إلى المهجع /33/، جعله الفقر الذي عانى منه في حياته أكثر تعاطفاً مع الثوار، وكان لتعرّفه على الماركسية داخل السجن دوراً في جعله مسؤول مجموعة داخل الكومين. بعد العملية التي نفذّت في المهجع /33/ انضم إلى مجموعة المعترفين، لم يكن قادراً على حماية خصوصيته الطبقية، ولا القيمة التي أُعطيت له. أراد أن يتعامل مع الموضوع بمكره القروي الساذج. أثناء إخراج المعتقلين للقمامة، تخلف حسين عنهم عمداً، ورسم خطته مع الإدارة، فهو لم يكتفِ بالاعتراف وإعطاء الإدارة كل المعلومات، بل اقترح عليهم التالي، حيث قال للملازم الصغير :"سيدي، إن ذهبت الآن إلى المهجع سيشكّون بي. لذا خذوني وحين تأتون للتفقّد الليلي نادوا عليّ وقولوا: ضعوا ابن الزانية هذا في الزنزانة الانفرادية، وهناك سأخبركم بكل شيء، بل وسأكتبه أيضاً".

–الملازم الصغير: "أحسنت يا هذا، إن عقلك يعمل بشكل جيد، في الحقيقة ستفيدنا كثيراً في عملنا!". وهكذا تم لعب الفصل الأول من لعبة التواطىء تلك أمام أعين المعتقلين. بعد ذهاب حسين صرخ الحارس قائلاً: "ابقوا في وضعية الاستعداد"، وبعد ذلك أمرهم الحارس "تمددوا على الأرض أيها الأوغاد و ناموا"، فتمدد كل المعتقلين على أرضية قاعة المطعم الاسمنتية الباردة للغاية.

في تلك الليلة أيضاً بات الاسمنت فراشهم، فيما كانت أذرعهم وسائدهم، وتلاصقت أجسادهم درءاً للبرد، وبقوا على تلك الحال حتى الصباح.

الأربعاء، 19 أيار 1982

قاوموا لثلاثة أيام، بلا ماء وسجائر، قاوموا دون النظر إلى مقطورات الطعام المكدسة التي كانت تصلهم. كان المهجع /33/ لا يزال يقاوم؛ كانوا يقاومون رغم كل شيء.

في صباح الـ 19 من أيار أخذوا بعض المعتقلين إلى المحكمة، وظل البقية في أتون التعذيب والضرب، ولم يكونوا يرغبون الدخول في نفق مجهول لا نهاية له. في حدود الساعة الثالثة عصراً ظهر أسعد أوكتاي مرة أخرى في المهجع، وهذه المرة كان يحمل ملفاً بيده. بعد أن نظر إلى الملف وقف أمام حيدر قائلاً له: "أنت، ألم تكن رَجلي؟ ألم تعدني بأنك ستخبرني بكل ما يحدث في المهجع؟"، قام بصفع حيدر على وجهه عدة مرات بسخرية. ومن ثم عاد إلى جديته السابقة وقال: "يا أولاد، لقد كشفت كل شيء، بعد قليل سأخرج المذنبين بينكم، وسينالون العقوبة التي يستحقونها". وخرج مع مرافقيه من المهجع.

قررت هيئة المحكمة إطلاق سراح كل من جتين وخاليص، وقد كان من المذهل أن يتم إخلاء سبيل أحد ما في ظل تلك الأوضاع القائمة. فرح المعتقلون كثيراً لدى سماعهم لخبر إطلاق سراح رفاقهم. أحياناً يحلم المرء بأنه ميت، ويشعر أنه ليس الوقت المناسب للموت، حينها يشعر بسوء كبير، وعندما يوقظه أحد ما ليكتشف أنه لم يمت، بل لا يزال على قيد الحياة، يفرح لذلك فرحاً

عظيماً، هكذا كان حال خاليص وجتين، لقد كانا سعيدين جداً لأنهما سيتخلصان من الموت ومن عذاب ذاك الجحيم الذي لا يُطاق.

–الحارس: "اجمعا أغراضكما واخرجا من المهجع".

مع خروجهم اقتحم أسعد أوكتاي وفريقه المهجع، قال: "فليخرج كافة أعضاء الكومين". عندما رأى أن أحداً لم يخرج، قال غاضباً: "اصطفوا أمامي، وليكن المسؤولون عن المجموعات في المقدمة. مسؤول المجموعة الأولى آمد والتابعون له عدنان ونافذ...". حينما سمع نافذ اسمه قال: "سيدي إن أذنت لي أريد أن أقول شيئاً".

–النقيب: "ماذا ستقول؟ هيا قُل".

–نافذ: "سيدي أنا لست من أعضاء حزب العمال الكردستاني، لقد تم عزلي حين كنت في الخارج، ولا علم لي بوجود الكومين، اسألوا آمد إن كنتم لا تصدقوني".

–النقيب: "تعال يا آمد، أخبرني، هل هذا الرجل على علم بوجود الكومين؟".

–آمد: "لا يا سيدي، ليس هو فحسب، بل كل أفراد مجموعتي لا علم لهم بوجوده".

–النقيب: "وكيف لا يعلمون؟ ألم يكونوا يودعون المال لديك في الكومين؟".

–آمد: "بلى سيدي كنا نشتري الحاجيات سويّاً".

–النقيب: "إذاً، لِمَ لم تخبرهم؟".

–آمد: "هكذا اقتضى الأمر".

غضب النقيب وقال: "يا ابن الزانية، كنت تسرق أموال الناس أليس كذلك؟"، وصفعه عدة مرات على وجهه، وحين لم يشفى غليله منه أمسك بياقته ودفعه نحو الملازم الصغير. واستمر في قراءة الأسماء، وعندما جاء دور جتين قال: "أين هذا الرجل؟".

–الرقيب: "لقد أُطلق سراحه سيدي".

–قال النقيب للرقيب: "اذهب يا بني واحضرهم إلي فهم لم يغادروا بعد، لن يستطيع أحدٌ الافلات مني بهذه السهولة".

بعد بضع دقائق جلبوا جتين وخاليص.

–النقيب: "يا أولاد الزانية، كنتما على وشك الإفلات. جتين انضم إلى مجموعتك"، والتفت إلى خاليص

قدّم خاليص نفسه بصوت عال: "خاليص، أورفا، أمرك سيدي".

بعد أن تفحصهما النقيب بنظراته قال لخاليص: "هذا الرجل الذي تراه، كان في المهجع /35/ وقام بتعذيبك، هل أعاقبه أنا أم تفعل ذلك بنفسك".

–خالص: " عاقبهم أنت يا سيدي".

صفع النقيب تحسين عدة صفعات قائلاً له: "اذهب إلى مكانك سنتواجه فيما بعد. أيها الرقيب، يا بني، قم باستكمال الإجراءات اللازمة لإطلاق سراح خاليص ودعه يذهب".

كان فرات ينتمي إلى عائلة ثرية في ماردين، وكان والده رجلاً وطنياً مخلصاً لقيمه لحدٍ كبير، لم يتعامل يوماً مع القرويين كإقطاعي بل كأخٍ كبيرٍ لهم، وكانوا ممتنين للعمل معه، حيثُ كان ذا أخلاقٍ حسنة، وورث فرات كل تلك الخصال الحميدة. بعد وفاة والده انطلق النضال الثوري، فتأثر فرات بذلك وفتح أبواب قريته أمام الثوار وقدّم لهم الدعم المادي والمعنوي، وبسبب ذلك الدعم اعتقل مرَّاتٍ عدَّة وتعرّض للتعذيب والمضايقات لكنه ظل صامداً كمقاوم وليس كإقطاعي.

كان فرات كالآخرين يحبّ فرهاد كثيراً، وينفذ كل تعليماته دون تردد. يقاوم كل الضغوط والتعذيب ويقف جنباً إلى جنب مع المقاومين. عندما استسلم فرهاد لم يتركه لوحده، بل كان يلازمه دائماً، كان يحبّه أكثر من حبه لأخيه، وكسبَ من خلال أخلاقه وشخصيته ودّ واحترام الجميع. ذاك الصدق والارتباط الوثيق بقيم المجتمع والثورة لم يكن يمتلكه الكثيرون من نفس موقعه الاجتماعي.

أثناء التفتيش الصباحي وجد الحرّاس حوالي /15000/ ليرة تركية مع فرات، وادّعوا أن تلك النقود تعود للكومين، لذلك زجوه في الزنزانة الانفرادية، ومارسوا بحقه شتى أنواع التعذيب، لكنه لم يرضخ أو يتنازل عن شخصيته

وكرامته بأي شكل من الأشكال، عندما أدركت الإدارة أن أساليب التعذيب التي استخدمتها لم تُرضخ فرات أخذته ووضعته بين المعتقلين المصابين بالسلّ؛ كان ذلك أسلوباً آخراً للتعذيب، إذ كانت الإدارة تعمد إلى وضع المعتقلين الأصحّاء بين المصابين بالسلّ.

لم تتعرض الليرة التركية للإهانة كما تعرضت له ذلك اليوم في المهجع /33/، كان الجميع يكافح للتخلص من النقود التي كانت بحوزته. في تلك اللحظة لم تعد تلك النقود وسيلة للتبادل، بل غدت وسيلةً لجلب البلاء وتعذيب المعتقلين. كان الهروب من المال أبشع من الهروب من وباء عمّ المكان، فكان الجميع إما يرميها أو يحرقها. في خضم المقاومة والاستسلام لم تفقد فقط النقود قيمتها، بل الإنسان أيضاً، فالبعض ارتقى بنفسه من خلال مواقفه والبعض الآخر انحدر نحو الهاوية حتى غدا بلا شخصية، كان مساعد مسؤول المهجع قد انجرف أيضاً مع سيل الانحلال، فحين نستذكر تاريخ المقاومة في المهجع ندرك أن فتحي كان من مخبري الصف الثاني.

كان الاستسلام طفلاً غير شرعيّ، كبُر ونما داخل جدران المهجع /33/، لكن ذلك الطفل تحرر من شوائبه، وبات شجرةً مثمرة تحمل أفضل الثمار، والشجرة المثمرة لطالما تتعرَّض لضرب الحجارة. في عالم السجن البشع ذاك، نذرت أفضل الثمار، في أوج نضجها، نفسها للثورة، وكانت كرايات قرمزية ترفرف على أبراج المقاومة، كانوا مشاعل نورٍ تقتحم سراديب العتمة والظلام في أجمل ليلة.

الذين حادوا عن الطريق يوماً، أضرموا النيران بأبدانهم بشرارةٍ من نار مظلوم، غدوا شعلة ملتهبة تنير درب التائهين. كان نجمي يقول: "نحن جزءٌ من جيش تعرَّض قسمٌ منه للهزيمة"، لكن ذلك الجزء المهزوم بات صرخة مقاومة ورفع معنويات المقاومين والمنهزمين على حد سواء، كان من الطبيعي أن تظهر قفزات بطولية على جبهة المقاومة، ولكن الشيء الأهم هو القدرة على تحويل ذلك المستنقع إلى جنَّةٍ خضراء. إنها مهارة البستاني في جعل الورود الحمراء تنبت وتزدهر أكثر فأكثر، لقد جعلوا ذلك ممكناً في أكثر الأماكن قسوةً وظلماً، لكن ذلك لم يكن ليحدث دون التضحية ودفع الأثمان الباهظة.

كان المهجع /33/ أمام رحلة ترحيلٍ وتشتيت جديدة بأمر من الدجال أسعد أوكتاي، كانت تلك سياسته الجديدة إزاء المهجع، فلقد أرادت إدارة السجن محو اسم المهجع /33/ من سجلات سجن آمد. كان المعتقلون واقفين يحملون ثيابهم في أيديهم، حزانى ولكن فخورين بنفس الوقت، كانوا يرحلون عن المهجع ليتم توزيعهم على المهاجع الأخرى. كانوا يذوبون كالشمع في ذاك السجن، حتى يغدو الوطن أكثر دفئاً، كانوا يذوبون لينيروا دروب الشعب والحزب والإنسانية؛ كانت تلك اللحظات تجلب السعادة لهم.

النصر ضمن تلك الظروف الوحشية يتطلب المقاومة و لا شيء غيرها؛ بأن تكون كالخنجر المسنون وأحياناً كرمح لا يعرف الانكسار؛ هكذا تقدموا ومضوا إلى المهجع /37/ حيث تجرعوا سمَّ الاستسلام.

تم نقل مسؤولي المجموعات في المهجع /33/ إلى الطابق الرابع، حيث المصابون بالسلّ. كان أسعد أوكتاي يريد موتهم في أقرب وقت، مع أن الإصابة بالسلّ يعني الموت ببطء. لقد كان أوكتاي يكذب مجدداً. في البداية تم وضع آمد ومسؤولي المجموعات جميعهم في زنزاناتٍ في الطابق الرابع، (كان المصابون بالسلّ موزعين على كل الزنزانات)، أما البقية فقد تم نقلهم إلى الطابق الأول.

نُقل آمد، إلى الطابق الرابع، الزنزانة الثانية، وسرعان ما وصل إلى هناك بدأ بإجراء مراجعةً سريعة للأحداث. قبل 14 شهراً تم نقلهم من ذات المكان ضمن قافلة مؤلفة من 99 شخصاً إلى المهجع /33/، واليوم بقي منهم /53/، أربعة شهداء، أربعة معترفين قَبِلوا بكل ما طلبته الإدارة، عشرون شخصاً لم ينضموا إليهم، المطلقون سراحهم، الذين لم يقبلوا بحياة الكومين، وكذلك المنقولون إلى المهجع /37/، واكتشف أن الخسائر ضئيلة وهذا ما بثَّ السعادة في قلبه. ها نحن هنا أيها المهجع /37/، فلتفعل ما يحلو لك، ابذل قصارى جهدك، فلن تنال منا.

أجسادنا سدود في وجه أعنف الأعاصير

صدورنا دروع في وجه القمع

لهيب مقاومتنا شعلة للإنسانية

انحنينا مرّةً

ولن نخضع مرّة أخرى

أطفالنا الذين لم يولدوا، سيكملون الطريق.

استفاق آمد من دوَّامة أفكاره والتقى ببعض الأشخاص الذين كانوا مألوفين بالنسبة إليه، فروى لهم تفاصيل ما حدث معهم بإيجاز.

صاح النقيب من الأسفل: "هل العدد كامل يا بني؟".

–الحارس: "العدد 53 سيدي".

–النقيب: "أغلقوا الأبواب وانزلوا!".

كان آمد قد انتهى من إخبار معارفه حقيقة ما جرى معهم، لكن ثمة شيءٌ ما يقض مضجعه، وهو غياب أحد رفاقه، فبدأ يتساءل، تُرى ماذا حلّ به؟ من يكون؟ هل أصبح مخبراً؟ أو أنه؟ بينما كانت تلك الأسئلة تدور في رأس آمد، كان أسعد أوكتاي وإدارة السجن بأكملها تبحث عن ذلك الشخص، لكنهم لم يجدوه. ثمَّة معتقل غائب لكن من هو؟ ورغم كل عمليات البحث لم يتمكنوا من إيجاده، هل انشقت الأرض وابتلعته؟ كان أسعد يقول ويكرر: "هل هو ذاك... أم ذاك...أم..."، كانت تلك التساؤلات تثير جنون الدجال، كان يستذكّر عملية مظلوم وفرهاد الفدائيَّة قائلاً: "هل سيغدو كل هؤلاء مثل مظلوم وفرهاد ورفاقهم؟".

كان فصيح هو الشخص الذي اختفى دون أن تراه عين عدو أو صديق. كان فصيح شاباً ممشوق القامةِ نحيل الجسد، حيث كان يعاني من الهزال وفقدان الشهية المزمن, قاوم كل أنواع التعذيب والوحشية والأذى من أجل الحياة، لكن

تلك الحياة باتت جحيماً لا يطاق. عندما تمت قراءة أسماء معتقلي المهجع/33/ لنقلهم إلى الطابق الرابع، لم يكن اسم فصيح موجوداً بينهم، وهذا ما أزعجه كثيراً وفطر قلبه، وبينما كان الجميع منهمكاً في جمع أغراضه لم يبال بالأمر قط, ووقعت عينه على شفرة حلاقة، كانت تلك الشفرة تبدو وكأنها حيّة و بدأت تكلم فصيح: " انظر، الجميع يوضب أغراضه ويتجهز للرحيل، ماذا ستفعل أنت؟". كان فصيح يدور في فراغٍ كبير، وأوشك على الانهيار و السقوط، لم يكن هناك أحد ليمسك يده ويسانده، فكّر ملياً، وأخيراً قال: "أمامي طريقان، إما أن أختار حياة الذل وأنفِّذ كل ما يطلبونه مني، أو أسلك الدرب الذي سلكه الأربعة المقدسون؛ كلَّا العيش بلا شرف هو موتٌ يوميّ، سأختارُ ميتةً واحدة، سأختار الخلود". بقامته المشوقة كالناي اندسَّ تحت السرير ، ضرب معصمه الأيسر بالشفرة، في البداية كان النزيف قليلاً، فعاود الكرّة مرة تلو الأخرى، حتى باتت الدماء تتدفق بغزارة، وكلما كانت الدماء تسيل أكثر، كانت قواه تخور أكثر فأكثر، وتُظلم الدنيا في عينيه، كان يشعر بحاجةٍ كبيرة للنوم ولشرب الماء، ورغم كل ذلك كان لا يزال يستطيع سماع الأحاديث الدّائرة حوله.

دخل علي عثمان وبدأ التحقيق مع من تبقَّى في المهجع، والذين يلقون اللوم على المعتقلين الذين تم نقلهم، عندما سمع فصيح ذلك الكلام ازداد نفوره من الحياة أكثر وزادت عزيمته على المضيّ قُدماً فيما يفعله.

كان الجميع يبحثون عنه لكنهم لم يجدوه. بدأ فصيح يحرِّك ساعده بسرعة ليزيد من كمية النزيف، لقد كان يتمنى أن ينتهي الأمر بلمح البصر، لكن

الوعاء الذي كان أمامه امتلأ بالدماء، وبدأ يسيل على أرض المهجع، وبينما كان فصيح يفكر بتلك المشكلة، رآه فكري الذي بات أحد المخبرين في المهجع.

فصيح: " أرجوك لا تخبرهم بأني هنا، أريد أن أموت بهدوء"، لكن فكري لم يلقِ بالاً لتوسلاته، بل ركض كما يركض بدويٌّ وجد الماء في وسط الصحراء ليبلغ عنه وصرخ: " سيدي، سيدي، لقد وجدته".

–الحارس: " ما الذي وجدته، أيها الوغد؟".

–" لقد وجدت فصيح، الشخص الضائع يا سيدي"

كان فصيح قد غرق في نومٍ لطيف، نومٍ أبدي بلا ألمٍ، بلا تعذيب.

تم نقل فصيح إلى المستوصف، وأُبلغ كبير الجلادين أسعد عن العثور عليه، كان النقيب سعيداً لسماع الخبر، ولكن عند إبلاغه عن العمل الفدائي الذي نفذه فصيح انكبَّ على كرسيه كشُوال حنطةٍ كبير.

تم تحويل فصيح من المستوصف إلى المشفى على وجه السرعة، وهناك علّقوا له السيروم وضخُّوا عدة كيلوغرامات من الدم في جسده، لقد كانت أشبه بعملية تغيير دمٍ كاملة إن جازَ التعبير.

بات العدو مشوشاً ومتخبِّطاً أكثر، وكانت أعظم مخاوف أسعد أوكتاي تتجسَّد أمام عينيه، فجميع مخططاته باءت بالفشل الذريع، فكَّر في نفسه وقال أخيراً:

"سأنقل هؤلاء الأوغاد إلى المهجع /35/ ليتم تلقينهم درساً قاسياً لن ينسوه في حياتهم."

انفتحت أبواب المهجع /37/ وصرخ الحراس: " اخرجوا أيها الملاعين وخذوا أغراضكم معكم."

بدأ المعتقلون بالخروج وهم مُرغمون وساروا في طريقهم نحو المجهول.

كان المهجع /35/ قريباً، وعندما فتح الحراس باب المهجع أمروا المعتقلين بالاستدارة إلى الحائط والاصطفاف بوضعية التفقد، في أثناء ذلك نادى أحد المعتقلين وكان يدعى ياووز على الرقيب قائلاً: " سيدي سأخبركم بكل ما أعرفه"، ردَّ الرقيب: " حسناً، تعال لنرى ما لديك"، أخذوا ياووز معهم وأكملوا توزيع بقية المعتقلين على زنزانات المهجع. أشار النقيب إلى آمد وصالح وقال: "خذوا هذين الوغدين إلى الطابق الأول، الزنزانة رقم 1، واعتنوا بهما جيداً فأنا أحبهما كثيراً."

كان رفيق يحاول التخلص من القمل الذي ملأ جسده خلال فترة الاستراحة داخل زنزانته رقم 9 في الطابق الأول، ومع سماعه إيعاز:" 35 التفت إلى الحائط" قام واستدار، كان ثمة من يقترب، عندما وصل الحارس إلى زنزانته أمره بالرجوع إلى الوراء. فُتح الباب ودخل شخصان، كان أحدهما جتين. كان رفيق وجتين يعرفان بعضهما البعض قبل اعتقالهما، وكان رفيق مسؤولاً عن مجموعة جتين وقتها، كانا يحبّان بعضهما ويتبادلان الاحترام.

كان جتين رجلاً شجاعاً ومخلصاً، فبمجرد دخوله الزنزانة تعرف على صديقه وقال: "إنه صديقي العزيز رفيق". تعانق الرفيقان وتبادلا الترحيب الحار. كان رفيق ككرة الطاولة التي تتدحرج بين المهجعين /35/ و/37/ لسنوات، وكان توّاقاً بشدةٍ للقاء شخص عزيز.

تنهد رفيق بعمق قائلاً: " لقد مرت سنوات على لقائنا الأخير، أخبرني أين كنت؟ ومن أي مهجع أتيت؟ ما الذي حدث؟".

بدأ جتين يروي الأحداث الواحدة تلو الأخرى بتفصيلٍ دقيق.

-رفيق: "إذاً فقد رحل فرهاد أيضاً؟ لم يخب ظني به يوماً، كان دائماً يفكر بالقضايا الكبرى دون التلفت للقشور. أعرف الرفاق الآخرين أيضاً. كنت أرى محمود زنكين من وقت لآخر عندما كنّا في المهجع /7/، لكنني الآن لا أستطيع تذكر ملامحه أبداً، كانت لدي ذكريات جميلة مع كل من أشرف ونجمي حين كنّا في القسم الأول. على كل حال، أُبارك عملهم الفدائي، في الحقيقة قاموا بعملٍ مشرِّف للغاية، لكن من الواضح أن تفاصيل عملية مظلوم قد وردتكم بشكل خاطئ؛ مظلوم لم يحرق نفسه، بل شنق نفسه".

اندهش جتين مما سمعه للتو فقال: "ماذا؟ هل قلت أن مظلوم شنق نفسه؟".

كان كل من في الزنزانة ينظر إليهما ويستمع لحديثهما.

-رفيق: "ليس لدينا متسع من الوقت الآن، بعد قليل سيأتون لجعلنا نردد النشيد الوطني. سأخبرك عن ذلك ليلاً تحت البطانية، نحن لا نستطيع أن

نتحرك قيد أُنملة هنا بسبب المراقبة، إنهم يراقبوننا طوال الوقت". لكن جتين أصرّ عليه ليسمع ما لديه، فقال رفيق: "حسناً، حسناً، سأخبرك، من الواضح أن نسبة الفضول لديك لم تتغير، استمع إذاً: في صبيحة يوم الـ 21 من آذار استيقظنا باكراً كالعادة، وبدأوا بتوزيع الطعام ابتداءً من الطابق الرابع، كان مظلوم في الزنزانة رقم /9/ الطابق الرابع، أي فوقنا مباشرةً. وقف الحارس صاييم أمام باب الزنزانة ونادى على مظلوم كي يعطيه حصَّته من الطعام".

-"سمع الجميع صوت الحارس وهو ينادي على مظلوم، لكن لم يصدر أي صوتٍ من مظلوم، لذا استدعى الحارس الرقيب الأحدب وقال له: "سيدي لقد ناديت مظلوم عدة مرات لكنه لا يجيب"، في البداية سُمع وقع قدمَي الرقيب الأحدب، وكان كل من في المهجع يستمع لكلام الحارس. نادى الرقيب عدة مرات متتالية: "مظلوم...مظلوم"، لكن مظلوم لم يجب مطلقاً. فقال الرقيب للحارس "حسناً يا بني، أكمل توزيع الطعام على الآخرين، من الواضح أن مظلوم مريض لذلك لا يجيب".

"هرع الرقيب الأحدب مسرعاً إلى الإدارة، وبعد وقت قصير فُتح باب زنزانة مظلوم، وكانت بعض الأصوات تصدر من هناك، أخذوا مظلوم معهم وذهبوا، لم نكن نعلم ماذا الذي يحدث، الشيء الوحيد الذي فهمناه هو أن مظلوم قد فعل شيئاً ما. وعندما استدركتُ تاريخ ذلك اليوم تأكدت أن مظلوم قد أقدم على فعل شيء ما، إما قطّع شرايينه أو شنق نفسه في يوم نوروز، لكنني لم أرجّح احتمال أن يكون قد شنق نفسه، لأن سقف زنزانته كان منخفضاً للغاية، لذلك خُيّل إلي أنه قد قام بتقطيع شرايينه، وبعد مضي بضع ساعات، جاء الرقيب الذي

كنّا نسميّه (ابن الأخت الكبرى) وقال: "توقفوا عن ترديد النشيد!". كان يقف أمامنا مباشرة وبدا شاحباً للغاية، فاتكأ على المدفأة وقال: "استمعوا إلي جيداً، أحمل لكم خبراً محزناً. رفيقكم مظلوم دوغان من الطابق الرابع شنق نفسه"، عندها ساد صمت مطبق على المهجع بأكمله. أشعل الرقيب سيجارة وتابع كلامه: "هنيئاً له، لقد كان رجلاً جسوراً وشجاعاً، لقد ترك بياناً وراءه، قال فيه: "لا يمكن للثائر أن يحيا حياةً بلا كرامة، بلا شرف"، وذكر فيه بعض الأشياء الأخرى أيضاً"، وحين خرج الرقيب قال: "أوقفوا صيامكم لبعض الوقت".

"لاحقاً, علمنا أنه كانت هناك الكثير من المراسلات والمحادثات بين مظلوم وخيري حول هذا الموضوع، والتي لا نعرف تفاصيلها بشكل كامل حتى الآن، لكن في ليلة نوروز، بعد أن أنهى مظلوم كل التحضيرات أشعل ثلاثة عيدان ثقاب، مررها من بين القضبان ووجَّهها نحو زنزانة خيري وبقية الرفاق، لقد كان ذلك استذكاراً لإحدى التقاليد الرمزية بإشعال نار نوروز، لذى فقد ظننتم أنَّه عندما أشعل أعواد الثقاب أحرق نفسه. باختصار هذا ما حدث. من الطبيعي سماع الأخبار بطريقة مختلفة في مثل هذا المكان. دعك من صعوبة نقل الأخبار الصحيحة من مهجع إلى آخر، فالأحداث التي تقع في الزنزانات القريبة منّا نسمع بها بعد بضعة أشهر".

الربيع والمهجع /35/... ما الذي قد يعنيه الربيع لهذا المهجع؟ ذلك الفصل البهي كان يفقد رونقه قبل وصوله لجدران المهجع، لم يكن المعتقلون قادرين على الاستمتاع بجمال الربيع أو استنشاق عبق زهوره، فهم لا يستطيعون رؤية

السماء أو التمتُّع بنسمات الجبال العليلة، فحتى تلك الجدران الخرسانية لن تبعث الدفء إلى داخل السجن قبل شهر حزيران.

في إحدى أيام حزيران كان سيتم تحويل آمد إلى المحكمة، وكان سعيداً لذلك، فمن ناحية سيفي بالوعد الذي قطعه لـ فرهاد حتى يزيح عن كاهله ذلك العبء الثقيل، ومن ناحيةٍ أخرى سيتمكن من التخلص من سوء حظه بعدم قدرته على لقاء الرفاق الذين كان يحسّ ويشعر بهم في داخله منذ سنين، كان سيزفُّ بشرى عملية فرهاد لخيري وكمال بنفسه وسيسعد كثيراً للقائهما.

كانت المحاكمة مستمرة على قدمٍ وساق، كان خضر أكبالِك جالساً يستمع إلى إفادته، وسرعان ما سيشهد ضد المعتقلين الذين وشى بهم، كان سيدافع عن أقواله. لم يكن خضر مجرد واشٍ، بل تعدى ذلك ليصبح أحد أذرع القوى المعادية للثورة، وكان يدّعي أن الاشتراكية انهارت وانتهت، ورد خيري دورموش، عضو اللجنة المركزية لحزب العمال الكردستاني، على ادّعاءات خضر بقوله: "الاشتراكية لن تنهار أبداً، خضر أكبالِك هو الذي انهار".

بعد ذلك تكلّم المعتقلون الذين دافعوا عن الحزب، الواحد تلو الآخر، وكلما أضعفوا موقف خضر، كانوا يُضعفون معه القوى المضادة للثورة والتي كانت متمثِّلةً بشخيصته، ما قاله فرهاد بالأمس كان يتحقق ويصبح تاريخاً، فقد كان يواجه كلَّ معترفٍ، مدافعٌ واثنان وثلاثة وأربعة. وأخيراً جاء دور آمد الذي لم يهدأ في مكانه للحظة، كان متحمِّساً للغاية للوفاء بالوعد الذي قطعه.

–أمرالله كايا: "حسناً يا آمد، لقد سمعت ما قاله خضر أكبالِك بحقك. ما هو ردك؟".

–آمد: "قبل التطرق لإفادة خضر، أود قول بعض الأشياء المهمة جداً بالنسبة لي".

–أمرلله كايا: "نحن نسمعك!".

–آمد: "أنا لم أقل إنني مؤيد للحزب قبل الآن، وكان لدي أسباب لعدم قول ذلك، ولكن اعترافي بذلك الآن، لا علاقة له بإفادة خضر، فأنا إنسان وطني وأحمي خصوصيتي القومية من قبل، ولقد تعرَّفت على الأفكار الثورية من خلال معرفتي بحزب العمال الكردستاني. قمت بكل ما يقع على عاتقي كمؤيد وداعم، ولطالما تمسَّكت بإيماني بأن السبيل الوحيد الذي سيقود دولة كردستان إلى الاستقلال والحرية، يمرُّ عبر نضال حزب العمال الكردستاني".

–أمرلله كايا: "خضر يقول بأنك عضو في الحزب، ماذا تقول في ذلك؟".

–آمد: "أنا لست عضواً، و لو كنت كذلك، لأعلنته بكل فخر و اعتزاز، وإن ادَّعيتُ ذلك سأكون مجحفاً بحق أعضاء الحزب، لن أفعل ذلك مطلقاً، كما أنه لا علاقة لي بالأحداث. خضر يقول ذلك فقط ليثبت صحة ادعاءات المدعي العام. أنا أعرف خضر جيداً، هو لم يؤمن يوماً بالأفكار الثورية، وها هو الآن مستعد لتلفيق كل أنواع التهم والافتراءات بحقنا للحفاظ على حياته"، بعد أن قال آمد ذلك جلس مكانه.

عندما وصل آمد إلى زنزانته أشعل سيجارة على الفور. في الحقيقة كان سعيداً لأنه قد أوفى بالوعد الذي قطعه لفرهاد، ولكنه كان متوتراً لأنه لم يتحدث عن العملية الفدائية التي قام بها فرهاد ورفاقه. بعد ذلك أخبر المعتقلين عن التطورات التي حدثت في المحكمة.

تولى عدنان مهمة إخبار رفاقه بأحداث المحكمة بعد آمد، وكان يعبِّر عن فرحته وحماسته لتنفيذ المهمة. بعد وقت قصير رأى آمد أن المعتقلين منشغلون بالحديث فيما بينهم، فاقترب من عدنان وهمسه قائلاً: "صحيحٌ أننا وفينا بوعدنا، إلا أننا لم ننفذ الشيء الأكثر أهمية".

-عدنان: "ما هو هذا الشيء؟".

-آمد: "لم نتكلم عن العملية الفدائية".

طأطأ عدنان رأسه قائلاً: "أنت محقٌّ فيما تقوله، لكنك أيضاً ملمٌّ بالظروف التي نمرّ بها، لقد خطونا خطوةً إيجابية، أما الأمر الثاني فهو أكثر خطورة؛ في الحقيقة لقد تملَّكنا الخوف".

-آمد: "نعم، أنا أيضاً كنت خائفاً، الخوف ليس أمراً معيباً. برأيي، هكذا عمل ينطوي على الكثير من التبعات، لذلك أعتقد أنه يتوجب على المرء أن يحسب جيداً قبل أن يخطو أي خطوة، وإن كانت الخطوة للأمام تستوجب خطوتين للوراء، فمن الأنسب أن يبقى المرء ثابتاً في مكانه، لكن وفي الوقت

نفسه، يتوجب على أحدٍ ما التحلّي بالشجاعة للإفصاح عن هذا العمل البطولي، وإلا فلن أعرف طعم الطمأنينة والسكينة يوماً".

–عدنان: "نعم، ما قلته صحيح، لقد خطونا خطوة نحو الأمام من خلال دفاعنا في المحكمة، والإدارة تستخدم أساليب خاصة للتعذيب بحق المدافعين. نستطيع تحمّل التعذيب بسبب دفاعنا، نحن قادرون على ذلك، لكن إن تحدثنا عن عملية فرهاد والرفاق الآخرين سيستخدمون ضدنا أساليب تعذيبٍ قذرة تضاف إلى عقوبة دفاعنا من أجل دفعنا للاعتراف. إن لم نستطع حماية شخصيتنا الثورية في مواجهة ذلك التعذيب سيكون أمراً سيئاً بالنسبة لنا، هذا ما يؤرقني وليس التعذيب والضرب بحد ذاته".

بعد العملية الفدائية في المهجع /33/ أخذوا ثلاثة رفاق إلى زنزانة يلماز. اليوم وأثناء العودة من المحكمة، أعطى الحارس أمراً كان قد أعطاه سابقاً، وحين كرر رفاقه تنفيذ أمر الحرّاس ذاك، شعر يلماز بالحاجة للتحدث فقال: "أيها الرفاق، أردت التحدث معكم عن بعض الأمور منذ مجيئكم إلى هنا، لكن بسبب مكوثنا في الزنزانة الأولى، لم تسنح لي الفرصة لذلك، فنحن تحت مراقبة الحرّاس دائماً. هنا في المهجع /35/ ننفذ بعض الأوامر ولا ننفذ البعض الآخر، أي أننا لا ننفذ كل ما يقوله الحرّاس، نحن مستسلمون على المستوى الجسدي فقط. مثلاً، نحن نسمع أن المعتقلين يصفعون بعضهم البعض في المهاجع، أرادوا تطبيق هذا هنا أيضاً، لكننا بالتأكيد لم نفعل ذلك، كما نسمع أنهم يجبرون المعتقلين في المهاجع الأخرى على النهيق كالحمير، أرادوا فرض ذلك علينا أيضاً، لكن رفاقنا رفضوا فعل ذلك فتمّت معاقبتهم بحرمانهم من الطعام لمدة

ثلاثين يوماً، كما يُفرض على المهاجع أن يلحس المعتقلون الأرض بألسنتهم، وهنا أيضاً أرادوا إجبار أحد الرفاق أن يقوم بلحس الطعام المنسكب على الأرض، وعندما رفض تنفيذ الأمر قاموا بكسر حنكه، علاوةً على إجراءات أخرى فرضوها على المهاجع إلا أنهم لم يقدروا على فرضها هنا، بدون شك هناك بعض الأسباب التي تدفع الإدارة للتعامل معنا بحذر أكبر، أولها هو تواجد قادتنا جميعهم هنا، والثاني هو أن مقاومتنا لا تزال مستمرة، أي أننا لم نسلّم، الاستسلام الجسدي مختلف عن الاستسلام الفكري، بالنسبة لنا لم يؤثر كل ذلك التعذيب والقمع على أفكارنا وشخصياتنا، ولكننا ملزمون على تنفيذ بعض الأوامر والقوانين المفروضة علينا، وأنا على ثقة أنه لو كنتم هنا لفعلتم مثل ما نفعل".

أيّد عدنان وآمد ما قاله يلماز وقالا أنهم سينهجون نهج رفاقهم في المهجع /35/، وهكذا تعرَّف الوافدون على قوانين مهجعهم الجديد.

كان ميرفان متواجداً في المهجع/35/، وكان بصحبة رفيقه الذي لم يره منذ سنين، وعندما قابله شعر بالسعادة والحزن في الوقت نفسه، لقد كان حزيناً لأنه استسلم بينما هم بقوا يقاومون، وشعر بالسعادة لأنه انضم إليهم من جديد. كان ميرفان كبقية رفاقه، يؤمن بضرورة التحدث عن العملية الفدائية التي نفذها فرهاد و رفاقه أمام المحكمة، حيث لم يتحدث عن ذلك أي معتقل ممن ذهبوا إلى المحكمة قبله. كان القاسم المشترك بين الجميع هو الخوف! وكان معتقلوا سجن آمد، يعرفون معنى تلك الكلمة جيداً. كان الجميع يحترمون ويثمِّنون العملية التي قام بها رفاقهم، لكن الخوف والشكّ مما سيكون مصيرهم لو تحدثوا عنها في المحاكم يمنعهم من ذلك، لقد كانوا مثل مقاتلين عُزّل وسط ساحة معركةٍ تملؤها الخيول والعربات. عندما علم ميرفان أن أحداً لم يقم بذلك قال في نفسه: "ستجري محاكمة مجموعة رها في الأيام المقبلة، يتوجب عليّ أن أتحدث عن العملية حينها، سأتولى القيام بهذه المهمة التاريخية. كنت انتظر أن يقوم عدنان وآمد من مجموعة آمد بفعل ذلك، إلا أنهما لم يفعلا، وبالطبع لن يقوم أحد من المجموعات الأخرى بفعل ذلك أيضاً".

كان ميرفان قد اتخذ قراره، فقال: "يجب أن أتكلم عن عملية الرفاق الفدائية مهما كان الثمن، يجب ألا تبقى عملية كهذه حبيسة جدران السجن، هذه ليست مهمتنا فحسب، بل مهمة كل إنسان يمتلك ضميراً حيّاً".

كانت قناعة ميرفان تلك تزداد أكثر فأكثر يوماً إثرَ الآخر، وكان يركّز كل طاقاته على تنفيذ تلك المهمة. قال سبيندار لـ ميرفان، وهما في عربة نقل المعتقلين إلى المحكمة: "يجب أن تتحدث عمّا حصل في المهجع /33/، إن لم تقم بذلك فسنفعلها نحن".

التفت ميرفان إلى رفيقه، وفي لحظةٍ، تجسدت أمام عينيه الزرقاوين ذكريات الصداقة التي تجمعهما منذ سنين، فبدا وكأنهما قفزا سوية إلى مروج إحدى قرى حلوان الخضراء، وباتا يتجولان فيها ويصطادان سمك الشبوط من جدول ماء تحت أشعة ضوء القمر المتوهج، انتعشت جميع الذكريات الحلوة والمؤلمة دُفعةً واحدة، وكأنها عادت للحياة من جديد. ما أجملها من أيام، أيام الحرية و الصراخ بملء الفاه دون خشية شيء، وها هما الآن يكافحان لأجل البقاء على قيد الحياة تحت وطأة التعذيب والترهيب. لكن يوماً ما، سيشهدان أياماً تملؤها الحرية والسعادة، وإن لم يتمكّنا من عيشها بأنفسهم، سيعيشها رفاقهم وأحبائهم.

مع سماع صوت فرامل السيارة، استفاق ميرفان من حلم ذكرياته، وعاد للواقع بكل تفاصيله الوحشية، وكان التغلب على تلك التفاصيل، الخطوةَ الأولى نحو الحياة.

أنهت هيئة المحكمة كافة الإجراءات المتبعة للبدء بالمحاكمات، وكان الغضب واضحاً على أعضائها، وبينما كانوا يمنحون حق التكلّم للمعترفين بلا قيود، كانوا يُسكتون المعتقلين الذين كانوا يدافعون عن الحزب، كانت تلك اللحظات

الأصعب بالنسبة لـ ميرفان، وكان قد بقي عدة دقائق على انتهاء جلسة المحاكمة، فرفع 3–4 معتقلين أيديهم في اللحظة الأخيرة، من بينهم خيري وميرفان. لم يكن قاضي الجلسة ينوي منحهم حق التكلّم.

–أمرالله كايا: "ماذا تريد أن تقول يا خيري؟".

–خيري: "سأوضّح بعض الأمور".

–أمرالله كايا: "دعك من ذلك يا خيري، لا وقت لدينا الآن. وأنت يا ميرفان ماذا تريد؟ هل تريدنا أن نطلق سراحك؟".

–ميرفان: "كلا، بل أريد التكلم عن موضوع يخص السجن بشكل عام".

تشاور أعضاء هيئة المحكمة فيما بينهم، ومن ثم قال القاضي: "لتحتفظ بما ستقوله للجلسة القادمة".

عندما وصل المعتقلون إلى السجن لم يقترب منهم أحد، ومن ثمَّ تمَّ تحريرهم من القيود و الأصفاد في الردهة، وبينما كان يتم توزيعهم على المهاجع قال الرقيب الأحدب: "ابقى أنت يا ميرفان".

بعد مُضيٍّ وقتٍ قصير جاء النقيب والملازم الصغير. سأل النقيب ميرفان: "ماذا كنت ستقول في المحكمة؟".

–ميرفان: "سيدي كنت سأقول أن الذين شهدوا ضدي في إفاداتهم يكذبون".

–النقيب: "اسمعني جيداً، إن تحدثت عن ما جرى في المهجع /33/ فلتعتبر نفسك ميتاً، لأنّني عندها سأعلقك من خصيتيك ولن يستطيع أحد فعل شيء حيال ذلك، هل فهمت أيها الوغد؟".

–ميرفان: "نعم سيدي، فهمت".

–النقيب: "أيها الرقيب خذ هذا الرجل إلى مهجعه، هذا رَجُلي، اعتني به جيداً"، ومن ثمَّ خرج مغادراً.

–الرقيب الأحدب: "سِر أيها الوغد".

عندما وصلوا إلى الممر الضيق في الطابق الأول قال الرقيب الأحدب: "ميرفان، لماذا قال عنك النقيب (رَجلي)؟".

–ميرفان: "لا أعلم سيدي".

–الرقيب الأحدب: "لقد انتهى أمرك أيها الأحمق".

تنهد ميرفان بعمق ودخل إلى الزنزانة، كان رفيقه بوروكرات هناك بانتظاره فسأله: "لِمَ تأخرت، هيا تكلم؟".

–ميرفان: "أقسم أنني كنت سأتكلم عن العملية في المحكمة لكنهم لم يفسحوا لنا المجال، غداً سأقول كل شيء، لقد هددني النقيب والملازم الصغير بالموت، لكنني سأتكلم وليفعلوا ما يحلو لهم".

–بوروكرات: "سيكون من الجيد أن تتكلم، لكن يجب أن تأخذ كل شيءٍ بعين الاعتبار".

–ميرفان: "فليأت الغد أولاً، وحينذاك لكل حادثٍ حديث".

بالنسبة لـ ميرفان، لم يكن يوماً واحداً فحسب، بل شعر وكأنه كان شهراً، فقد أمضى الليل كله مفكِّراً ويضع خططاً ويستبعد أخرى، وفي النهاية قال لنفسه: "لن أُخفق هذه المرة".

كان ميرفان يلتهب حماسةً داخل المحكمة، فرفع يده طالباً الإذن للتحدث.

–أمرالله كايا: "ماذا تريد أن تقول؟".

–ميرفان: "سأخبركم عن بعض النشاطات".

اعتقد أمرالله أن ميرفان سيدلي باعترافٍ، فهمس بإذن أحد مستشاريه ومن ثم قال: "اقترب يا ميرفان".

كانت تلك المسافة القصيرة تطول عليه أكثر فأكثر كلما تقدم من هيئة المحكمة، كان ميرفان مستغرقاً في أفكاره، فمن ناحية كان مدفوعاً بحماسة ما سيقوله، ومن ناحيةٍ أخرى كان الخوف يتملَّكه من تهديدات النقيب له.

عاد ميرفان إلى وعيه عندما قال أمرالله: "نعم يا ميرفان، نحن نسمعك"،

–ميرفان: "قبل التحدث عن النشاطات، أودُّ توضيح بعض الأمور".

أمرلله كايا: "ليكن باختصار!".

–ميرفان: "أنا مقاتل في حزب العمال الكردستاني الذي يضمُّ في صفوفه مجموعة من المتطوعين. حزب العمال الكردستاني، هو حزب سياسي ولكنه يدرك متى يصبح نهج العنف سارياً. الرفاق فرهاد كورتاي، أشرف آيناك، نجمي أونر ومحمود زنكين أضرموا النيران في أجسادهم تنديداً بالضغوط واحتجاجاً على أشكال التعذيب الوحشية التي تُمارس بحقنا، وأنا بصفتي مقاتلاً في حزب العمال الكردستاني، أعتبر كل من يقدم اعترافاتٍ ضدنا، سواء أكان من ضمن مجموعتي أو المجموعات الأخرى، خائناً، إنَّهم يعتقدون أن معركتنا قد انتهت، لكن نضال حزب العمال الكردستاني لن ينتهي قبل تحرير كردستان والشرق الأوسط برمته".

–أمرلله كايا: "ميرفان، هذه محكمة وليست مكاناً للدعاية، فلتتكلّم ضمن إطار جلسة المحاكمة، أخبرنا عن النشاطات التي قمت بها".

–ميرفان: "كنت أنا وعصمت جوتكار من سيفريك نعمل معاً لحماية القرويين في حلوان".

–أمرلله كايا: "ما هو نوع السلاح الذي كنتم تستخدموه؟".

–ميرفان: "مسدس (G 9) بذخيرة متفجرة وخطَّاطة".

تنفس ميرفان الصعداء وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهله. لكن، ما الذي ينتظره هناك في السجن؟ لقد قال ما أراد قوله، لقد انطلق السهم من القوس،

وليكن ما يكون، حتى لو كان الموت هو الثمن لذلك، أليس من سبقه للموت أشخاصٌ مثله؟ ألم يكونوا قادةً حقيقيين؟

القائد كالشمس، كالقمر

أثره كبير، وخطأه لا يغتفر

القائد دوماً في المقدمة

يحمل عقله في صميم قلبه

وعندما يحين الوقت

عندما يفرض العدو

وقت تدخين السيجارة

يفتح صدره للموت كالصقر...

كان ميرفان مستعداً لكل شيء، وكان شعاره الذي سيصرخ به عندما يواجه الموت: "طوبى لمن يموتون لأجل الحياة!".

كان ميرفان يسير بفخرٍ كقائد منتصرٍ أدى مهمته بنجاح، مرفوع الرأس، ومستعداً لتلقي الضربات التي ستأتيه من كل الجهات؛ كان قوساً مشدوداً. الخوف سليل الظلمة؛ قناعٌ يُخفي تحته الجلّادون وجوههم.

في ليلة نوروز، التقط مظلوم الشرار المتطاير من سندان كاوا، محلّقاً به في السماء كعلمٍ قرمزي، ليزفَّ بشرى النصر للجميع. في البداية التهبت قلوب أربعة

أرواحٍ بضياء تلك النار، واشتعلت بعدها في كل السهوب. كان ميرفان مثل عدّاءٍ يحمل الشعلة بيده ليوصل الخبر إلى السجن، كان خبراً يحمل الحزن والموت لحامله، إلا أنَّه كان البلسم لكل قلبٍ أدرك معنى الخلود.

أدخلت تلك الأخبار الفرحة إلى قلوب معتقلي سجن آمد عامة، والمهجع /35/ على وجه الخصوص، فلقد كان ذلك المهجع مصدراً للمعنويات العالية بالنسبة للمقاومين، والدعامة التي أبقتهم صامدين في أحلك الظروف، لقد كان منبع المقاومة والإيمان والعزيمة، فالنار التي كانت ملتهبة في قلوبهم لم تنطفأ يوماً.

كان للمقاومة والاستسلام أثراً كبيراً على إدارة السجن، سيَّما من خلال الأحاديث التي كانت تدور بين قادة الحزب وضباط العدو، والتي لطالما كانت تنطوي على حروبٍ لفظيَّةٍ تطعن في كل مرَّةٍ بيئة الاستسلام، وعندما كان المعتقلون يستمعون لتلك الأحاديث، كانت قلوبهم تفقر في صدورهم. وكما كان يقول كمال بير: " كان أسعد أوكتاي، البائسُ الجبان، يهز رأسه الكبير ويهرب في كل مواجهة دون أن يلتفت للوراء". في إحدى المرات قال أسعد أوكتاي لكمال: "ماذا حدث يا كمال، لقد كنتَ جنرالا وها أنت اليوم مهزوم!"، ردّ عليه كمال: "صحيح لقد انهزمت، لكن إن بقي في جيشي جنديٌ واحدٌ، فسأكون الثاني".

وعندما قال أسعد أوكتاي مبتسماً وقد أظهر أسنانه القبيحة: "أنا لا أتعامل مع الأسماك الصغيرة، بل الكبيرة منها"، فكّر الرفيق كمال قليلاً ثم ردّ عليه ردّاً موجعاً: "فكّر جليّاً، فالسمكة الكبيرة تمتلك عظاماً أكبر وأكثر من الصغيرة،

ستعلق في حلقك ولن تصل معدتك"، ومرّةً أخرى غدت الهزيمة من نصيب الجبناء.

كان الرفيق خيري واقفاً بالقرب من الرفيق كمال، يستمع إلى أجوبته بسرور كبير، ولكنه كان غارقاً في أفكاره، وكان ذلك يبدو واضحاً من خلال وقفته ونظراته، فهو لم يهمل الشعور الكبير بالمسؤولية يوماً، وكانت عيدان الثقاب الثلاثة التي أشعلها مظلوم وأشار لهم بها في ليلة نوروز لا تنفكُّ تلمع في عينيه كالنجوم، لكنه كان يمتلك صبراً كبيراً. كانت النار التي أشعلها مظلوم واحتضنتها الرفاق الأربعة في أجسادهم، تلتهب في صدر خيري أيضاً، لقد كان مُدركاً أن تلك الأرواح الأربعة المقدسة لم تلبس السواد أو تنوح على رحيل مظلوم، بل سارت على دربه بكل شجاعةٍ وبسالة.

كانت مقاومة المهجع /35/ هي القوة التي ملأت فراغ التدهور في الحزب، لقد كان ذلك المهجع مركز القيادة والقلب النابض في سجن آمد، مهدَ الكوادر القيادية والأبطال، كانت قلعة المقاومة تلك مخترقة عبر بعض الثغرات الصغيرة، ولكن لم يتم اختراقها بالكامل، فلقد كانت إدارة السجن تضغط عليهم بحذر وعبر خطواتٍ مدروسة.

التاريخ مليءٌ بالمصادفات التي قد يسميها البعض ضربة حظّ، ولكن ضربة الحظِّ تلك لن تكون كذلك إذا لم يتم استغلالها بشكل صحيح.

يشير تاريخ اليوم إلى الـ 14 من تموز، الشمس تبدو أكثر توهجاً، والقلوب ملأى بالحماسة والعنفوان، لأنه اليوم الذي سيسير فيه القادة في رحلة الموت

لأجل الخلود. كان خيري بقامته المشوقة ينظر إلى رفاقه المعتقلين الواحد تلو الآخر بنظراتٍ تَبعث الأمل والطمأنينة في قلوبهم. كان يريد أن يبوح لهم بخلجات صدره بأعلى صوت، في وقتٍ كان فيه حتى الهمس ممنوعاً، أراد أن يصرخ في وجه العدو بغض النظر عن عدد المرات التي تم منعها فيه عن الحديث.

وها قد آن أوان تلك اللحظة، اللحظة التي قدّمها التاريخ على طبقٍ من ذهب، لحظة ضربة الحظ، كانت المحاكمات تسير بالطريقة المعتادة، وكان يديرها الأشخاص المعتادون. ومرّةً أخرى كانت هيئة المحكمة تمنح المعترفين حق التحدث بلا حدود أو شروطٍ وهم بدورهم كانوا يسترسلون في حديثهم قدر ما استطاعوا، ويحاولون استرضاءهم بالقدر ذاته.

رفع خيري يده، كما يفعل دائماً دون كلل أو ملل، وهذه المرة لم يبقى أمام هيئة المحكمة وأمرالله كايا إلا الاستجابة لطلبه.

أمرالله كايا بتململ: "تعال يا خيري، ماذا تريد أن تقول؟".

سار خيري بين رفاقه، وكان يروي من خلال نظراته لهم ملاحم البطولة والإيمان، كان سيبدأ المعركة، سيكون أول من يطلق النار باتجاه العدو؛ كان مثل سبارتاكوس الذي صمت عن الظلم دهراً، حتى تلقى إشارة الحرب الأزلية، فأطلق العنان لثورته ضد نيرون، كان خيري من خلال كلمته التي سيلقيها، سيختصر الزمن من ساحة الباستيل إلى ساحات سجن آمد.

-خيري: "لقد تحدثنّا في كل جلسات محاكماتنا السابقة عن الأساليب اللاإنسانية التي تُمارس بحقنا في السجون، ولم يتم العمل على إيجاد حل لها، و لا أعتقد أنكم بصدد حلها أصلاً، لأنه يتم التعامل معنا من منطلق موقف سياسي بحت؛ فسياسة العسكرة التي تم تبنِّيها في السجون بعد أحداث الـ (12 أيلول)، تهدف إلى انتزاع شخصيات المعتقلين ودفعهم نحو الخيانة والاعتراف. نحن نتعرض لأبشع أنواع التعذيب والقمع في السجون بسبب دفاعنا عن أفكارنا داخل أروقة المحاكم، لقد بقينا صامتين، حيال الكثير من الممارسات فقط لكي نتمكن من الدفاع عن أفكارنا، لكن حتى هذا الحق بات يُسلب منّا الآن، ولم يتركوا خياراً أمام الجميع سوى الاعتراف والخيانة. لقد أنهى مظلوم حياته، وأضرم فرهاد ورفاقه النيران في أجسادهم تنديداً بتلك الممارسات الوحشية. لم يعد لحياتنا أي معنى، ولا حتى لمحاكماتكم؛ لذا أُعلن البدء بالإضراب عن الطعام حتى الموت".

وهكذا بات يوم الـ 14 من تموز، اليوم الأول لأكبر ماراثون لصيام الموت بقيادة خيري دورموش وكمال بير.

الفصل السابع

قال فرهاد ذات مرة لرفاقه: "كل ما نعيشه اليوم سيغدو تاريخاً في الغد"، وهذا بالفعل ما حدث. هم لم يدخلوا صفحات تاريخ الثورة في بلدهم فحسب، بل استطاعوا من خلال عملهم الفدائي، أن يتربَّعوا على الصفحات المشرفة للتاريخ البشري برمته، سوف يتم تخليد ذكراهم مع برونو وسبارتاكوس وكاوا الثائر، وكاوا العصر مظلوم دوغان.

فيما يلي نبذة مختصرة عن السيرة الحياتية للرفاق الأربعة، ومشاركتهم في النضال الثوري و علاقتهم بالحزب وحقائق عن السجن:

فرهاد كورتاي

ولد في قرية كورِس التابعة لـ(قزل تبة). كان والده إمام مسجد القرية. كان لفرهاد ثلاثة إخوة وأختان، داوود كان أكبرهم، وكان يعمل مع والده في المسجد، وعندما رأى أن عمله ذاك لا يسد حاجاته اليومية انتقل إلى قزل تبة، و عمل بالتجارة هناك. أرسل الملا حسن ابنه فرهاد إلى المدرسة، وبعد أن أنهى مراحل دراسته الابتدائية والإعدادية والثانوية، انتقل إلى طرابزون ليدرس الهندسة المعمارية في جامعاتها، لتبدأ حياته الفعليَّة بعد التخرج.

كون فرهاد ينحدر من ماردين، وعلى وجه الخصوص من قزل تبة، فمن الطبيعي أن يمتلك حسّاً وطنياً عالياً وارتباطاً وثيقاً بالقيم الثورية، لأن ماردين

كانت مركزاً مهمّاً للثورة في المنطقة ولم تفقد تلك الخصوصية يوماً. كان فرهاد مثالاً حيّاً لحب الوطن والتفاني في خدمة الناس.

تأثر فرهاد خلال سنوات دراسته بحركات الشباب الثورية في العالم وفي تركيا، وقد ساعده تفانيه في ثقافة حب الوطن والشعب بالتعرف على الأفكار الثورية وتشربّها. خلال السنوات ذاتها بنى علاقة مع الكوادر المؤسسين لحزب العمال الكردستاني، ولكن تلك العلاقة كانت عادية حتى عام 1978 لتتوطَّد بعدها أكثر فأكثر.

كان فرهاد كورتاي من أوائل الأشخاص الذين تمت الاستفادة من آرائهم وثقافتهم لنشر أفكار الحزب وإقامة علاقات وطيدة مع الجماهير في منطقة ماردين، فلقد استوعب فرهاد نهج ومبادئ وبرنامج الحزب في وقت قصير، وتحمّل مسؤولية تشكيل اللجان التحضيرية المؤقتة، وكان المسؤول الإقليمي لمنطقة هيلين التي كانت تضم آمد- ماردين- سيرت حتى قبيل اعتقاله، كما كان سيكلَّف في المشاركة في تأسيس هيئة الإذاعة والنشر في منطقة ماردين، ورغم أن حياته الحزبية كانت قصيرة إلا أنها كانت ذات أهمية كبيرة، لذا كان اعتقاله المفاجئ خسارة كبيرة للحزب و المنطقة.

في عام 1979، ونتيجة إهمال وضعف أحد رفاقه، اعتقل فرهاد مع خيري دورموش في منزل أحد الوطنيين في قزل تبة، وأبدى موقفاً يليق بعضوٍ في الحزب أثناء التحقيق والتعذيب الذي تعرَّض له على يد الشرطة، وبقي على موقفه عندما مثُل أمام النيابة العامة، ومحكمة التوقيف والمحاكم الأخرى أيضاً.

تحمّل المسؤولية في السجن ونفّذ كافة تعليمات الحزب، وعندما تم جمع المعتقلين في الطابق الخامس من السجن، أصدر فرهاد ومظلوم صحيفة هاوار من المهجع رقم /9/، وكان مظلوم رئيساً للتحرير بينما كان فرهاد محرراً.

نالت القصة التي كتبها فرهاد تحت عنوان "ثائر بلا اسم" اعجاباً كبيراً. بحلول الـ 12 من أيلول، ومع تصاعد القمع والتعذيب، أخذ مكانه ضمن صفوف المقاومين. استسلم فرهاد في الخامس من آذار عام 1981. ذلك الاستسلام سُجّل كنقطة سلبية في سجل كفاحه، إلا أنه لم يقبل الاستسلام على المستوى الفكري بأي شكلٍ من الأشكال، وبدلاً من أن نقوم بالشرح والتدقيق في هذا الجانب، نترك للقارئ مهمة تقييم نشاطاته الثورية والعمل الفدائي الذي أقدم عليه هو ورفاقه الثلاثة.

أشرف آنياك

ولد في ويران شهر لعائلة تعمل بالزراعة بالمناصفة، وبسبب فقر العائلة لم يستطع أشرف سوى إتمام المرحلة الابتدائية من دراسته، لأنَّه كان مجبراً على مساعدة أسرته في تأمين القوت اليومي، فعمل معهم في الزراعة، كما عمل أعمالاً بسيطة في المدن الكبيرة. قبل تعرّفه على الثوار كان يعمل على آلة حفر لدى أحد متعهدي البناء في رها (أورفا). كانت أسرته فقيرة مادّياً، ولكنها غنية بحسّها الوطني العالي. وبما أن عائلته كانت تنتمي إلى عشيرةٍ وطنية، فلقد

كانت روح المقاومة متأصلة ومتوارثة فيها. انضم أشرف إلى صفوف حزب العمال الكردستاني مع بداية الحراك الثوري الشعبي في المنطقة.

اعتقل إثر اشتباكٍ في إحدى قرى حلوان وخضع للاستجواب، إلا أنه وقع في بعض الأخطاء أثناء التحقيق معه، وقد أدّى ذلك إلى خلق حالة من الانزعاج الدائم لديه، ولم يكن يستطيع استيعاب ذلك الموقف أبداً. شارك أشرف في كافة النشاطات الثورية داخل السجن، ولم يتخلَّف عن صفوف المقاومين يوماً. إن أفضل ما يميز الإنسان الثوري هو الخطوات العملية التي يتخذها، وقد أظهر أشرف أفضل مثالٍ على ذلك خلال مسيرة مقاومته في السجن.

محمود زنكين

كان محمود ينحدر من سيفيريك، إلا أن جده كان يقيم في حلوان، وكان محمود دائم التردد على حلوان. كان الوضع المادي لعائلته سيئاً. ترعرع محمود في كنف عائلة متوسطة الدخل –وفقاً لمعايير الدولة– وأنهى دراسته الابتدائية والإعدادية في حلوان، وعُرف بجرأته. انضم إلى صفوف الثوار إثر اندلاع الحراك الثوري في حلوان. في البداية شارك في الأنشطة الشبابية، ومن ثم التحق بالكفاح المسلح مع جمعة تاك في المناطق الريفية. اعتقل إثر محاولته إنقاذ رفاقه أثناء أحد الاشتباكات، ورغم أنه قاوم بشدة إلا أنه أُسر في النهاية، وقد أبدى موقفاً يليق بالثوار أثناء التحقيق معه في مركز الشرطة، وكان موقفه ذاك مثالاً احتذى به معظم الذين تم القبض عليهم في تلك الفترة.

أكمل محمود مسيرته الثورية داخل السجن بخطىً ثابتة، ومع بداية التعذيب والقمع أصبح مسؤول المهجع /5/ وانضم إلى صفوف المقاومين. تعرضت إحدى ساقيه للإصابة نتيجة التعذيب والضرب الذي تعرض له.

نجمي أونر

ترعرع نجمي في كنف عائلةٍ ثريّة في منطقة جيرميك. كانت عائلته تتبنى أفكار رجعية من حيث البنية، حتى أن عمّه كان مسؤول الـ (AP) في المنطقة في ذلك الوقت. تعرَّف نجمي على الأفكار الثورية خلال سنوات دراسته الثانوية. في البداية كان من المؤيدين للـ(DDKD)، واشتركَ ضمن وقتٍ لاحق في أنشطة حزب العمال الكردستاني في جيرميك، وتعرف على أحمد كورت وحسين دوروموش وسرعان ما تبنى أفكار الحزب وتخلى عن الـ DDKD . عمل في بداية مسيرته الثورية ضمن صفوف الشباب في حزب العمال الكردستاني، ومن ثم تولى مهمة مسؤول الشباب ضمن اللجنة التحضيرية المحلية حتى لحظة اعتقاله.

اعتقل على إثر حادثةٍ في المدرسة. أبدى موقفا لائقاً بالثوار أثناء التحقيق في مركز الشرطة، وفي السجن قام بتطوير نفسه من الناحية الفكرية، محافظاً على مكانته ضمن صفوف المقاومة كما كان في الخارج. مع حلول الـ 12 من أيلول، استسلم مع فرهاد وأكمل مسيرته النضالية في المهجع /33/.